اليسار الإسلامى

وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة

د. إبراهيم عوض

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ محمد فريد - القاهرة

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

مقدمة الكتاب

الشيخ خليل عبد الكريم كاتب يسارى معروف . وكان فى كتاباته الأولى يسمّى نفسه هو وأمثاله بـ « اليسار الإسلامى » مؤكدا أنهم هم وحدهم أصحاب الحق فى النطق باسم الإسلام والدعوة إلى مبادئه ، لكننى فى ذات الوقت كنت ألاحظ أنه يلمز الإسلام من طرْف خفىّ متظاهراً بأنه إنما يريد حمايته ممن ينتقدونه ويشنّعون عليه، ثم أسفر الرجل وأصبح يهاجم الإسلام ونبيه وصحابته على نحو مباشر .

وكل إنسان حرّ فيما يعتقد وفيما يقول . هذا هو مبدئى الذى أتمسك به ولا أحيد عنه ، ومن هنا فلستُ ممن يدعون إلى محاكمة الرجل أو إيذائه ، بالضبط مثلما أكره أن يحاول أحدٌ التدخلَ فى ضميرى أو الحَجْر على ما أقول وأكتب . لكن المشكلة تكمن فى أن الشيخ عبد الكريم حينما يتطاول على الإسلام ونبيه وصحابته إنما يلجأ إلى أساليب غير علمية ، إذ يمتلخ النصوص من سياقها ، ويستشهد بالروايات التى تعجبه رافضًا ما عداها دون تقديم أية حيثيات للقبول أو الرفض . بل إنه ليُسْقِط هو ومن ينقل عنهم من أمثاله فى الاتجاه الفكرى كثيرا من سطور الروايات التى يستشهدون بها دون أن ينصّوا على هذا الإسقاط لغرض فى النفس .

وهو فى سبيل بلوغ هذا الغرض لا يبالى بما يقع فى كلامه من

تناقضات صارخة كثيرة لا أدرى كيف تتسق مع دعاواه الطويلة العريضة عن المنهج العلمى المنضبط الذى يزعم أنه يلتزمه . كذلك لا يتورّع فضيلة الشيخ عن تفسير سلوك الرسول وصحابته بأحطّ البواعث حتى ليبدو سيد الأنبياء فى كتاباته رجلاً داهية لا همّ له إلا السلطان واتخاذ أخسّ الوسائل لبلوغ ذلك السلطان . وهذه الطريقة التى يجرى عليها سيدنا الشيخ هى هى نفسها طريقة طائفة من المستشرقين والمبشرين الحاقدين على العظمة المحمدية ، إذ تراهم يبحثون بملقاط الضغن والزيف عن كل ما يتوهمون أنه كفيل بتشويه صورة أشرف الخلق وأتباعه الكرام النبلاء مهملين عظمتهم ومجدهم وعبقريتهم وبطولاتهم وتضحياتهم النبيلة .

وفى هذا الكتاب يجد القارئ الكريم مناقشة لأفكار الشيخ خليل عبد الكريم تعتمد على المنطق الصارم والصدق فى إيراد الروايات وتفضح ما فى كتاباته من تناقضات وتدليسات وأخطاء تاريخية وعلمية ولغوية وتطاولات على سيد المرسلين وأصحابه الطاهرين . وإذا كان الشيخ يظن أنه ، بمثل هذه الافتراءات والتطاولات ، سينجح فى إطفاء نور الله بفمه فإننا نقول له : « كان غيرك أشطر ! » . والله غالب على أمره، ولكن الحاقدين من الناس لا يفقهون ولا يرعوون ولا يستحون !

الهجوم الوقح على الإسلام عقيدة وعبادة وتشريعا

في مقدمة كتابه « الأسس الفكرية لليسار الإسلامي » يورد الشيخ خليل عبد الكريم شهادة الصحفي الأمريكي ستيفْ نيقوس له بصحة الإسلام وحُسْنه شكلاً وموضوعاً ودهشته من أن الإسلاميين (أو « الإسلامويين » كما يقول الشيخ) يرفضونه بينهم ولا يعدُّونه واحداً منهم رغم « مظهره الإسلامي وسمته الإسلامي[1] وخطاباته وطروحاته الإسلامية » ، ثم يعقب على ذلك متسائلاً : « كيف استطاع هذا الصحفي الأمريكي الذي لم يمكث معي أكثر من ساعتين أن يدرك أنني أقف على أرضية إسلامية لم أغادرها في يوم من الأيام ، ولم يدرك ذلك الإسلامويون الذين زاملت أغلب نجومهم الساطعة وبدورهم اللامعة الآن ، زاملتهم في سجون الناصرية وخرجت مع آخرين في سبيل الله عدة أسابيع ... ؟ أهي المصالح والمنافع والمكاسب التي تعمي البصائر قبل الأبصار وتجعل من يزعم أنه داعية يسكت عن شهادة الحق ويتحول إلى شيطان أخرس ؟ » . وهو يمضي قائلا إن بعضهم قد تحول إلى شيطان ناطق ومن أشد المهاجمين شراسة وضراوة . يقصد أنهم يتهمونه بكراهية الإسلام ومعتقداته والعمل

---

(١) يشير الشيخ إلى لحيته وجلبابه واللاثة البيضاء التي يتعمم بها ، وهي الأشياء التي تعجب الجمهور . ولست أظن الشيخ يُدرج في سمته « الإسلامي ! » نظارته السوداء التي يظهر بها في صوره المنشورة بالصحف .

على تشويهه مع التخفي تحت لافتة « الكاتب الإسلامي » ، وهو ما يفهم من وسمهم له (كما يقول) بـ « مفتي الماركسية » و « الشيوعيّ الملتحي » و « الشيخ الأحمر » (١) . ثم يصف شهادة الصحفي الأمريكي في حقه بالأمانة معلنا تقديره البالغ لها ، وإن أضاف أنه رغم ذلك ليس بحاجة إلى شهادة الفرنجة لتشكّل دليل ثبوت على إسلاميته (٢) .

وبدورنا نقول نحن إن هذه الشهادة هي كلام كسائر الكلام ، الله وحده هو الذي يعلم مدى ما فيه من صدق وإخلاص أو كذب وتدليس ونفاق . كذلك فنحن لا يعنينا هذا الذي في ضمير الشيخ عبد الكريم ، فقد يكون فعلاً أحسن المسلمين طُرًّا ويستحقّ أن يوضع على رأسهم وفي مقدمتهم ويكون زعيما لهم وقدوة ، بيد أن ذلك أمر مردّه إلى الله ، فهو الذي يعلم القلوب والنيات . ولكني مع هذا كنت أحب لو بحث الشيخ عبد الكريم له عن شهادة أخرى غير تلك الشهادة « الأمريكاني » . ذلك أن نيقوس يرسم لكاتبنا صورة ، ونحن نعلم والناس جميعا أيضا يعلمون أن « الصورة الأمريكاني » هي مضرب المثل في « البَكَش » ، وتوصف بأنها « صورة مضروبة » . ولا أدري كيف وقع ، وهو المحامي ، في هذه الغلطة . إن الإنسان عندما يستعين

(١) انظر خليل عبد الكريم / الأسس الفكرية لليسار الإسلامي / كتاب الأهالي (العدد ٥١) / مارس ١٩٩٥م / ٧ .

(٢) المرجع السابق / ٧ ـ ٩ .

بشاهد فى المحكمة يحرص على أن يكون ذلك الشاهد متمتعا بطهارة السمعة وخلوص النية وصدق القول حتى لا يطعن فيما يقوله أحد ، فما باله غابت عنه هذه النقطة ؟ ثم ما باله أيضا فاته أن من الصعب جدًا جدًا أن يقبل المسلم شهادة غير المسلم فيما يتعلق بحسن إسلام شخص مختلف حول إسلامه ؟ ألم يجد مسلمًا معروفا بالأمانة والاعتدال والحيدة والخشية من الله والخلوّ من الغرض يشهد له بحسن الإسلام وصحة التدين بدين محمد عليه السلام ؟

أما بالنسبة لقول كاتبنا إنه فى غير حاجة إلى شهادة الفرنجة على صحة إسلامه فأخشى ما أخشاه أن ينبرى له شخص طويل اللسان قائلا : « فلماذا إذن أتعبت نفسك كل هذا التعب فى أن تقصّ علينا تلك القصة الطويلة العريضة عن الصحفى الأمريكى وما قاله فيك وصدّعت أدمغتنا بها ما دمت فى غير حاجة إليها ؟ ثم إذا كان ما تقوله صحيحًا وصادراً عن قلبك وليس من طرف لسانك ، فلماذا وصفت شهادته بالأمانة ، وأعلنت عن تقديرك البالغ لها ، وأكّدتَ أن صاحبها قد استطاع فعلاً فى خلال الساعتينْ الاثنتين اللتين مكثهما معك أن يعرف حقيقة أمرك وأنك مسلمٌ نقىّ الإسلام ؟ » . ودعنا من حكاية الشكل والسمت ، وما أدراك ما الشكل وما السمت ؟ وهما أمران ما أسهل أن يتذرّع بهما أى إنسان يريد أن يوهم الناس السُّذّج بأنه مسلم كامل الإسلام والإيمان ! لقد حسمها الرسول ﷺ بقوله : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأشكالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

التقوى ها هنا (وأشار عليه السلام إلى صدره وهو يقول هذا ثلاث مرات) » . ونحن نتأسى بسنة رسول الله ﷺ ولا نبالى بمسألة الشكل، وبخاصة إذا تعلقت باللحية والجلباب الأبيض واللاثة البيضاء (ولا نقول : « والنظارة السوداء » (١)، فلا أظن أحداً من المخلصين أو المنافقين يعدّها من سننه ﷺ) . وتبقى القلوب والأعمال ، وقد قلنا إن القلوب غيب لا يعلمه إلا الخالق عز شأنه ، فليس أمامنا إذن إلا الأعمال . وأعمال الأستاذ عبد الكريم كثيرة ومتنوعة ، ولسنا ندعى أن عندنا علماً بها إلا أقل القليل، فنحن لا نعرفه معرفة شخصية ولم نتشرف بلقائه ولا حتى برؤيته ، اللهم إلا صورته فى بعض الصحف ، وبخاصة صحيفة « الأهالى » ، التى كنتُ أقرؤها فى الثمانينات مع سائر صحف المعارضة ثم لم أعد أقرؤها أو أشتريها إلا فى الندرة الشديدة . وعلى هذا فلا سبيل لنا إلى الحكم على أعماله حكما موضوعيا ، على قدر ما يسع الطبيعةَ البشرية وقدرتَنا نحن بالذات على

---

(١) مع الاعتذار لإحسان عبد القدوس ولنادية لطفى ، فقد جاء ذكرها هنا عَرَضًا ودون أدنى اتفاق . هذا ، ولا أظن أن الجلباب الأبيض أو اللاثة البيضاء اللذين يحرص بعض الناس من إسلامويين وشيوعويين على لبسهما هما مِن علامات الإسلام إلا فى أذهان العامة وأشباههم . ومع ذلك فقد ذكرتهما جريًا مع مولانا الشيخ والصحفى الذى يستشهد به على صحة إسلامه وحسن تديّنه وإخلاصه !

الحكم ، إلا من خلال كتاباته ، وهو ما سوف نفعله فى الصفحات التالية التى سنترك فيها الأستاذ عبد الكريم نفسه من خلال كتبه ومقالاته يتكلم ، وبعدها سيكون بمستطاع القارئ الحُكْم على « الشهادة الأمريكانى » للصحفى ستيف نيقوس بغض النظر عما قلناه فى هذه الشهادة وصاحبها . وهذه الكتابات هى ما قصده الصحفى الأمريكانى حين ذكر خطاب الأستاذ عبد الكريم وأطروحاته(١) التى يقول إنه ينطلق فيها من أرضية إسلامية .

وقد اخترت للأستاذ عبد الكريم عدة كتب(٢) أرى أنها تعبر عن مواقفه وآرائه التى تتعلق بالإسلام خير تعبير . وهذه الكتب هى « لتطبيق الشريعة لا للحكم » (١٩٨٧م) و « الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية » (١٩٩٠م) و « قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية » (١٩٩٣م) و « الأسس الفكرية لليسار الإسلامى » (١٩٩٥م) و « مجتمع يثرب ـ العلاقة بين الرجل والمرأة فى العهدين المحمدى والخليفى » (١٩٩٧م) و « شدو الربابة بأحوال الصحابة ـ محمد والصحابة » (١٩٩٧م) ، علاوة على بعض المقالات هنا وهناك . وكثير من فصول هذه الكتب كانت فى الأصل

---

(١) أسقط الأستاذ عبد الكريم الهمزة من هذه الكلمة تقليدا لما هو شائع فى كتابات اليساريين ومن يتأثر بأسلوبهم .

(٢) هى فى الواقع معظم كتبه بل كلها تقريبا .

مقالات نشرها فى بعض الصحف والمجلات اليسارية ثم جمعها بعد ذلك فى كتاب بعد كتاب .

ونبدأ بأقدم تلك الكتب صدوراً ، وهو « تطبيق الشريعة لا للحكم » ، فماذا نحن واجدون فيه ؟ إن الكاتب يؤكد فى أكثر من موضع منه أن الإسلام ليس عبادات فقط ، بل هو إلى جانب هذا تشريعات وعقوبات ونظام سياسى (١) . وهو يوافق من يدعون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وإن كان يرى أنه لا بد من تمهيد كافٍ لذلك بإقامة مجتمع العدل والشورى . بل إنه يرى أن من يجحد الحدود أو يرميها بالقسوة فقد خرج على الملة ، كما يؤكد أنها صالحة لكل زمانٍ ومكان(٢) . كذلك فهو يقرر أن أحكام الله التى نصّ عليها الوحى فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية هى أحكام مُلْزِمة واجبة التنفيذ(٣) . وعنده أن جوهر الشريعة هو إقامة العدل الاجتماعى(٤) ، ومن ثم فالاشتراكية (كما يقول) هى الوجه الصحيح للإسلام ،

---

(١) خليل عبد الكريم / لتطبيق الشريعة لا للحكم / كتاب الأهالى (العدد ١٤) / مايو ١٩٨٧م / ٩ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ١٠١ ، ١١٤ مثلا .

(٢) المرجع السابق / ٤٥ _ ٤٦ ، وكذلك على ظهر الكتاب .

(٣) السابق / ٣٩ ، ٤٩ .

(٤) السابق / ٤ .

والاشتراكيون وحدهم هم المسلمون الحقيقيون[١] . وبالمثل يؤكد وجوب الأخذ بالبيعة عند تعيين الحاكم [٢] ولزوم اتباعه للشورى بعد وصوله إلى السلطة ، إذ هى أساس الحكم فى الإسلام[٣] .

والكاتب يعترف بأن الرسول ﷺ قد نجح فى تغيير أوضاع المجتمع العربى بعد كفاح شاقّ استمر ثلاثا وعشرين سنة [٤] ، وأنه وأصحابه، رضى الله عنهم ، كانوا يبدأون بأنفسهم أولا فى أى شىء يدعون الناس إليه ، وهذا هو سرّ نجاحهم[٥] . والملاحظ أن الكاتب إذا ذكر النبى فى كتابه هذا أتبعه بالصلاة عليه ، وفى بعض الأحيان يصفه بالمعصوم[٦] ، وإذا ذكر الصحابة استرضى الله عنهم ، وعند استشهاده، بشىء من القرآن يقول : « قال الله تعالى : ... » أو « أوحى الله لنبيه بكذا »[٧] .

وقد وصل بكاتبنا الأمر إلى الحملة العنيفة على المستشرقين

---

(١) السابق / ٩ ، ١٢١ . وسوف تراه فى كتاب « الأسس الفكرية لليسار الإسلامى » (ص ٣٦ مثلا) يؤكد أن مهمة اليسار الإسلامى هى إعادة ثورية الدين التى سرعان ما فقدها بعد انصرام عصر الرسول ، هذه الثورية التى تمثل روحه الحقة .

(٢) لتطبيق الشريعة لا للحكم / ٨٦ .

(٣) المرجع السابق / ٨٤ .

(٤) السابق / ٧٤ .

(٥) ص / ٧٨ .

(٦) كما فى ص ٢٨ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٠ مثلا .

(٧) وسوف نرى أنه فى كتبه التالية إذا ذكر النبى عليه الصلاة والسلام أو أحدا من الصحابة رضوان الله عليهم فإنه يورد الاسم مجردا دون صلاة=

واتهامهم كلهم تقريبا بسوء الطويّة وخبث النية واتبعاتهم في مواقفهم وآرائهم تجاه الإسلام من أحقادهم الصليبية ، والتنديد بمحاولاتهم المستميتة في الطعن في القرآن والإساءة إلى شخص الرسول ﷺ وإشاعة روح الهزيمة في نفوس المسلمين تحقيقا للمطامع الاستعمارية لدولهم، التي يؤكد أن كثيرا منهم كانوا موظفين في أقلام استخباراتها[١] .

هذا هو رأى كاتبنا في الإسلام وشريعته ، وقد كان المظنون بعد

= أو استرضاء ، وإذا أشار إلى نص قرآني قال مثلا : « وتلا عليهم محمد قرآنا » أو ما إلى ذلك . بل إنه في مقال له بمجلة « القاهرة » يصف عبارة « رضي الله عنه » وأشباهها بأنها مبالغة فجّة ممجوجة في التفخيم والتعظيم والتبجيل (انظر مقاله « هذا من تجليات الحقبة الثالثة » / مجلة « القاهرة » (العدد ١٤٤) / نوفمبر ١٩٩٤م / ١٧) .

(١) ص ٢٦ . وسوف نرى بعد ذلك كيف انقلب موقفه تماما في هذه القضية فأخذ يثنى على المستشرقين وعلمهم مع مهاجمة من دخل الإسلام منهم مهاجمة ضارية واتهامهم بالضحولة والسطحية وتفاهة الفكر . وحتى في الكتاب الذى نحن بصدده هنا لا يفوته أن يتهكم برجاء جارودى ويفرح المسلمين به وبإسلامه قائلا إنه « أصبح ... البدر الطالع والنجم الساطع في كل مؤتمر إسلامى » (ص ٢٦) ، مع أن من الإسلاميين من يختلف مع الأستاذ جارودى اختلافا شديدا . وعلى أية حال فإننا نحب أن نوضح للقارئ أن جارودى كان واحدا من كبار المفكرين الشيوعيين ثم انقلب على الشيوعية وأعلن إسلامه ، كما أن أحداً لم يفضح الصهيونية في أيامنا هذه مثلما فضحها جارودى ، الذى قدموه للمحاكمة لهذا السبب بمقتضى قانون جيسو ، هذا القانون الذى كان الشيوعيون الفرنسيون وراء إصداره . ومن هنا يدرك القارئ لماذا يكرهه الشيخ خليل عبد الكريم هذه الكراهية القتّالة .

ذلك كله أن يكون من الداعين إلى تطبيق الشريعة ، بل أن يكون على رأسهم . والواقع أن الرجل قد نادى بذلك مع المنادين كما أشرنا ، وإن كان قد أوصى بالتدرج والتهيؤ الطويل حتى يجيء التطبيق سليما ومثمرا . ومع ذلك فقد أثار عدة اعتراضات عليه في بعضها القليل شيء من الوجاهة ، لكن معظمها على العكس من هذا يخلو من المنطق والإقناع ، فضلا عن أن الطريقة التي تمَّ عرضت بها تنم عن كره للشريعة وتطبيقها ، إذ تقوم هذه الطريقة على الاعتساف الشديد والمبالغة المقيتة والرغبة في التيئيس ، وبخاصة أن بعض هذه الاعتراضات ليس له من حلٍّ إلا الانصراف عن التفكير في هذا التطبيق انصرافا أبديا .

إنه مثلا يدَّعي أن جماهير الأمة المصرية لم تسمع قط من قبل بمطلب تطبيق الشريعة ولا تعرف عنه شيئًا ولا تربطها به أدنى صلة[١] . وهو اعتراض عجيب ومتهافت ، إذ يَفْترِض أن الأمة المصرية أمة من الكفرة الهَمَج لم يسبق لها أن سمعت بالإسلام ، فضلا عن أن تكون قد دانت به غِبَّ بزوغ شمسه حتى هذه اللحظة وإلى الأبد بمشيئة الله ، وكأن الأجيال تلو الأجيال من علماء مصر لم يدَرِّسوا الفقه ويعلّموه ويؤلفوا فيه ذخائر وكتبا نتغذّى على رحيقها إلى الآن

(١) لتطبيق الشريعة لا للحكم / ٧٧ .

وسيظل أولادنا وأحفادنا يَردون منهلها العذب الصافى إلى أبد الآباد ، وكأنه لم يكن هناك استفتاء بهذا الشأن حصل على موافقة الأمة المصرية بنسبة تتجاوز كثيراً التسعين فى المائة .

ومع ذلك كله يعود كاتبنا فيشترط موافقة الجماهير الشعبية على تطبيق الشريعة الإسلامية[1] ، وهو شرط يتجاهل الاستفتاء الذى تمّ فى عهد الرئيس السادات وذكرناه لتوّنا . ونحن من جانبنا نرى أنه ينبغى التمهل الشديد فى هذا الصّدد وأن يُدْرَس الأمر من كل جوانبه على أيدى كبار العلماء والدارسين والمتنفّذين ، وبخاصة علماء الشريعة ورجال القانون بكل فئاتهم . على أن يُراعَى بعد ذلك كله ألا يبدأ تطبيق الشريعة بتنفيذ الحدود وعقوبات التعزير ، بل لا بد أن يسبق ذلك إصلاح الأوضاع المعوجّة التى لا يرضى عنها الله ورسوله . ذلك أن هذه الحدود وتلك العقوبات لم تُشْرَع للمحافظة على أوضاع الظلم والاستبداد والفساد والترف الفاجر والتنكيل بعباد الله واحتجان أموال الأمة فى أيدى طبقة صغيرة تعبث بالملايين والمليارات عبثًا مجنونًا ، على حين لا تجد سائر الأمة إلا الكفاف وتعيش حياة الشظف والحرمان ، بل شُرِعت للمحافظة على نظام سياسى واجتماعى واقتصادى وأخلاقى يقوم على احترام حق الشعب فى

---

(١) نفس المرجع والصفحة .

اختيار حاكمه ورجوع هذا الحاكم إلى الشعب فى القرارات المصيرية ، وكذلك على طهارة اليد والمكسب الحلال وتوفير العمل الكريم لكل يد قادرة على الإنتاج وتقريب الشُّقَّة بين طبقات الأمة المختلفة ... إلخ . وبغير هذا يكون الهرم مقلوباً وقائما على رأسه لا على قاعدته . والذين يفرحون بتقطيع الأيدى فى حد ذاته وشىّ ظهور المسلمين بالسياط ظانين أو موهمين الناس أن هذا هو غاية الشريعة وسبيل رضا الله سبحانه هم أبعد الناس عن الإسلام فهماً وروحاً وأنآهم عن الله سبحانه وتعالى ومرضاته . ولا بد أن يعرف الذين لا يعرفون أو الذين يتظاهرون بأنهم لا يعرفون أن الحدود إنما تسقط عند اختلال الأوضاع ، وإلا أضحت وسائل لخياطة الظلم والقهر والاستبداد وخرجت عن أن تكون شريعة إلهية إلى أن تكون شريعة لإبليس ، فالحدود « تُدْرَأ (كما قال سيد البشر) بالشبهات » . وأى شبهات أشد من شبهة الحاجة والحرمان واغتصاب حقوق الأمة كلها فى اختيار حاكمها وفى المعيشة الكريمة ؟ إن الله لم يبعث أنبياءه ورسله لإعنات الخلْق وإرهابهم وإذلالهم وضربهم وقطع أيديهم ورجمهم ، وإنما بعثهم بالأمن والكرامة والحرية والعدل والأخوة والحب ، ثم حدّد الوسائل والأسباب التى تؤدى إلى هذه الغايات ، وشرع معها العقوبات التى من شأنها أن تقمع كل من تسوّل له نفسه بالعبث بأمن الناس أو العدوان عليهم وهضم حقوقهم . فالعقوبات والحدود هى مجرد وسائل وليست هدفا

فى حد ذاتها على عكس ما يظنّ بعض المتدينين .

أما قول المؤلف إن الآيات التى تنص على أن « من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون / الظالمون / الفاسقون » [١] ليست خاصة بالحكم السياسى بل بالحكم بينّ الناس ، بمعنى القضاء بين المتخاصمين [٢] ، فالرد عليه سهل ، إذ إن من وظائف الحكم السياسى القضاء بين الناس عند تنازعهم وإعطاء كل ذى حق حقه . وعلى أية حال فإنه يقرّ بأن الآيات المذكورة خاصة بالحدود الشرعية فعلا [٣] ، وإن كان يعود فيقول إن الكفر المنصوص عليه فى أولى الآيات الثلاث ليس بالضرورة هو الكفر المخرج من الملة ، وهو على أية حال لا يَصْدُق (فى نظره) إلا على من جحد تطبيق أحكام الله ، أما من أقرّ بها ولكن لم يطبقها فهو ظالم وفاسق فقط [٤] . ولكن حتى لو كان الأمر أمر كفر بسيط لا يُخْرِج من الإسلام أو أمر فسوق وظلم ، فكيف يستخف المسلم بهذا أو بذاك ؟ ولماذا يحرص المؤلف على الوضع الذى يؤدى إلى عصيان الله بحجة أنه كفر مخفّف أو مجرد ظلم وفسق ،

---

(١) وهى الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ من سورة « المائدة » .
(٢) لتطبيق الشريعة لا للحكم / ١٨ ـ ٢٤ .
(٣) المرجع السابق / ٣٢ ـ ٣٣ .
(٤) نفس المرجع والموضع .

ولا يحرص بدلا من ذلك على التبرؤ مما يجلب غضب الله وسخطه ؟ أليس ذلك أمرا غريبا عجيبا ؟ (١)

كذلك يتباكى المؤلف على الحريات التى ستُهْدَر فى ظل الحكم الإسلامى لعدم سماحه بقيام أحزاب أو صحف معارضة(٢) . وإن الإنسان ليستغرب من هذه الدموع التمساحية ، فإن الدول الشيوعية (وهى الدول التى تَفْتِن كاتبنا فتنة شديدة ويرى النظامَ فيها هو النظام الأمثل) لا تعرف شيئا اسمه المعارضة بأى سبيل ، ولا تتكلم إلا لغة التنكيل والحديد والنار وخنق الحريات ودَوْس الكرامات . وعلى أية حال فقد قال هو بعظمة لسانه (كما سبقت الإشارة) إن البيعة والشورى أساسان من أسس الحكم الإسلامى . ولا شكّ أن الشورى تستلزم اختلاف الآراء والمواقف والاستماع إلى وجهات النظر الأخرى ... إلخ . وقد كان فى دولة المدينة حزب المنافقين وحزب اليهود ، ولم يمسهما أحد بسوء ما اقتصر الأمر على المخالفة فى الرأى أو الموقف ، بل لم يكن بمستطاع النبى عليه السلام أن يكون حاكما على المدينة لو لم يختره الأنصار فى بيعة العقبة (والمهاجرون قبلهم) بملء إرادتهم

---

(١) هل أنا فى حاجة إلى التذكير بما قلته قبل قليل من أن تطبيق الشريعة يعنى عندى إقامة العدل والحرية والأمن وتوفير المعيشة الكريمة للمواطنين أولا قبل المعاقبة بقطع يد السارق وجلد الزانى ... إلخ ؟

(٢) ص ٢٨ .

ليكون زعيما عليهم . ذلك أنه لم يكن معه لا سيف المعزّ ولا ذهبه ، بل كان مضطَهداً مطارَدا لا يملك لنفسه فضلا عن أن يملك لغيره شيئا . وها نحن أولاء نقولها عالية وصريحة : ليس من حق أحد أن يفرض الحكم الإسلامى على الناس قسراً إذا رفضوه ، وليس من حق المسلم أن يصادر الرأى الآخر مهما كانت درجة مخالفته لرأيه هو أو للرأى العام داخل الدولة التى يحكمها . وهناك الآن رأى فقهى قوى يقول بعدم قتل المرتدّ ما دام الأمر محصوراً داخل النطاق الفكرى ولم يتخذ شكل التمرد على نظام الدولة لحساب قوة أجنبية (١) . وقد قلنا قبل قليل إن تطبيق الشريعة لا بد أن يسبقه درس للأمر وتقليب له على وجوهه المختلفة واستماع لآراء كبار الإداريين ورجال الشرطة والعلماء من كل التخصصات ، وخاصة علماء الدين والقانون . ولا بد أن تثار هذه المسألة ويُوصَل فيها إلى حلّ يكفل للناس حريتهم وأمنهم وحقهم فى التعبير عما يؤمنون به دون التعرض لاضطهاد أو تضييق .

على أننى ، قبل أن أغادر هذه النقطة ، أجد لزامًا علىّ أن أنبّه إلى لون من التدليس ارتكبه المؤلف الأمين ، إذ ينسب إلى أبو الأعلى

(١) سبق أن درست هذه النقطة بشيء من التوسع فى كتابى « معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين » (مطبعة الفجر الجديد / ١٩٨٧م/ فصل « حرية الفكر » ص ٣٩ ـ ٤٨) ، وعدت إليها بمزيد من الاستفاضة فى كتاب لى تحت الطبع بعنوان « سورة المائدة ـ دراسة أسلوبية فقهية مقارنة » .

المودودى رحمه الله القول بأن « الحاكم (فى الإسلام) هو خليفة الله ، أى ظلّ الله فى الأرض » (١) ، وهو شىء لم يقله المودودى ولا خطر له ببال ولا حتى فى المنام ، بل كل ما قاله هو أن الإنسان المسلم الذى يتبّع شرع الله هو خليفته سبحانه . وهذا نص عبارته كما نقلها المؤلف نفسه : « لا مجال فى حظيرة الإسلام ودائرة نفوذه إلا لدولة يقوم فيها المرء بوظيفة خليفة الله تباركت أسماؤه ، ولا تتأتى هذه الخلافة بوجه صحيح إلا من وجهتين : إما أن يكون ذلك الخليفة رسولاً من الله أو رجلاً يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع والقانون من عند ربه »(٢)، أى أن الخلافة عند المودودى لا تعنى أكثر من تعمير الدنيا فى ظل شرع الله العادل . وواضح أن الرجل لم يتعرّض فى كلامه هنا للحكّام ، بل الحديث عن المسلم بإطلاق . فانظر الفرق بين ما قاله العالم الباكستانى وبين ما افتراه عليه الكاتب اليساوى !

ومما يلجأ إليه المؤلف أيضا للاعتراض به على الدعوة إلى تطبيق الشريعة محاولة إثارة الفتن والوقيعة بين عنصرى الأمة . إنه يذرف الدموع من أجل إخواننا الأقباط ، الذين يقول إنهم كانوا يعامَلون فى عهود التخلف المملوكية والعثمانية بوصفهم مواطنين من الدرجة الثانية خلافا لأحكام القرآن وأحاديث النبى عليه السلام ، وإن المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية سوف تثير هذه الذكريات الكريهة وأمثالها فى

(١) لتطبيق الشريعة لا للحكم / ١٧ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

نفوسهم ، ومن ثم تنجح الإمبريالية والصهيونية فيما أخفقت فيه الفتنة الطائفية ويكون من حق الأقباط المطالبة بإنشاء دولة مستقلة[١] .

وفي يقيني أن هذ الكلام هو من أعظم محركات الفتنة الطائفية . إن إخواننا الأقباط بوجه عام لا يقولون هذا الذي يقوله الكاتب ، الذي يتجاهل الآن ما كان يطنطن به من أن الجماهير هي صاحبة الكلمة العليا في الطريقة التي تُحْكَم بها وفي اختيار الشريعة التي تنظم لها أمور حياتها . فهو لو كان صادقًا فيما قال لما ردّد هذا الكلام ، لأنه إذا اختارت أغلبية الأمة شيئًا فهل يصحّ الاعتراض عليها بأن ذلك لن يعجب الأقلية؟ وهذا بافتراض أنه فعلا لن يعجب الأقلية ! وعلى كل حال أفلم يقل الكاتب نفسه إن الطريقة التي كان الأقباط يُعامَلون بها في عصور التخلف المملوكية والعثمانية هي طريقة منافية لشريعة الله كما وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف ؟ إذن فالحلّ (لو كان قد قال ما قال من قلبه وبغرض الإصلاح لا لبذر بذور الشقاق بين عنصري الأمة اللذين عاشا طيلة الأربعة عشر قرنا تحت راية الإسلام إخوة متحابين لم يقع بينهم ما عرفته أوربا من مذابح دينية أو مذهبية) هو في الرجوع إلى شرع الله كما ورد في القرآن

(١) المرجع السابق / ١٠ .

والسنة لا في إلغاء هذا الشرع[1]. وهذا لو كان كلامه فعلا عن المعاملة التي كان يعامل بها الأقباط في ذينك العصرين صحيحا، وهو ما لا أحب التعرض له هنا.

ومما له دلالته التي لا تخفى على أحد أن الكاتب لا يعجبه من حكام المسلمين في العصر الحاضر إلا حكام اليمن الجنوبي وأفغانستان الشيوعيون الذين ألقى بهم التاريخ على أكوام قمامته ونفاياته[2]، ويبدى غيظه الشديد ممن ينتقدون العلمانية، التي هي قرينة العقلانية في رأيه[3].

وبهذا ننتهي من عرض ما جاء في كتاب « لتطبيق الشريعة

(١) ولوئة من يسمون أنفسهم « اليسار الإسلامي » على الإخوة الأقباط ليس سببها أنهم يحبونهم، فهم كما يكرهون الإسلام يكرهون سائر الأديان، لكنهم يحاولون ضرب المسلمين بالنصارى، حتى إذا قضوا على الطرف الأكثر عددا استداروا إلى الطرف الأضعف فأخمدوا أنفاسه. والأقباط ليسوا سذجا حتى تجوز عليهم هذه الدعاوى اليسارية.

(٢) السابق / ١١٩ ـ ١٢٠. والكاتب يعتز بزيارته إلى أفغانستان أيام الحكم العميل الذي كانت تسانده دبابات المأسوف على طفولته الاتحاد السوفيتي وطائراته وأجهزة استخباراته، تلك الزيارة التي انهار عقبها ذلك الحكم الخائن، وتبعه انهيار الاتحاد السوفيتي نفسه. وكانت الحصافة تقتضي ألا يشير الكاتب إلى هذه الزيارة الشؤم. ولكن لله في عباده شؤونا، فاعتبروا يا أولي الأبصار (انظر حديثه عن زيارة الشؤم في كتابه « الأسس الفكرية لليسار الإسلامي » / ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٣) السابق / ١١٩.

لا للحكم » من أفكار وآراء ومناقشتها ، وننتقل من ثم إلى كتاب « الأسس الفكرية لليسار الإسلامى » .

وأول ما يطالعنا فى هذا الكتاب هو سقوط أحد الأقنعة التى كان يستتر خلفها المؤلف ، فبعد أن كان يقول فى الكتاب السابق إن الإسلام ليس عبادة فحسب بل يتضمن ، إلى جانب هذا ، البيعة والشورى والعدل الاجتماعى والحدود وتشريعات الأحوال الشخصية ، وبعد أن كان يدعو إلى تطبيق الشريعة (وإن كان قد وضع عدداً من المحاذير وأثار طائفة من المخاوف التى قصد من ورائها التثبيط والتيئيس كما رأينا) ، فإننا نفاجأ به هنا ينفى ، بجرة قلم من قلمه المبارك ، الإسلام من ميادين الحياة ، إذ يؤكد أنه ليس شيئا آخر غير العبادات والأخلاق ، مضيفا أن ميدانه الأصيل هو « المساجد والجوامع والتكايا والرُّبط والخانقاهات والزاويا والمصلَّيات والحُسَيْنِيَّات والخلاوى وحضرات الصوفية وحلقات الذكر ومجالس دلائل الخيرات »[1] . وواضح ما فى هذه العبارة من تهكم واحتقار ، إذ لا يصلح الإسلام فى نظره إلا للدراويش والتنابلة والراقصين فى حلقات الذكر الذين يسيل لعابهم على أشداقهم وقد غابوا عن الوعى أو انخرطوا فى نوبات عصبية من نوبات التطوح والصياح . إن غيره من أهل اليسار (الإسلامى طبعا ! خذ بالك) يقولون مثله إن ميدان الإسلام هو المسجد ، وهى عبارة

(١) الأسس الفكرية لليسار الإسلامى / ١٠ - ١١ .

خبيثة لا شك فى ذلك ، لكنها تخلو من هذا التهكم السافر الذى يسيل من عبارة كاتبنا حينما يذكر التكايا وحلقات الذكر ومجالس دلائل الخيرات ... إلخ .

ودليل الكاتب على هذه الشبهة المتهافتة هو قول الرسول عليه السلام : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » ، وهى كلمة حق أراد بها الكاتب باطلاً ، وأى باطل ! لقد قال الرسول ﷺ ذلك فى حادثة تأبير النخل ، وهى من أمور المعاش الزراعية التى تركها الدين هى وأمثالها من أساليب التجارة والصناعة والاختراع للناس يدبرونها بأنفسهم حسب ظروف العصر والبيئة ودرجة التقدم الحضارى التى بلغوها ، مكتفيا بغرس القيم التى تكفل لهم النجاح والفلاح كتقديس العمل وتجويده والإخلاص وعدم التوانى ، ولفْت أبصارهم إلى أن ذلك كله عبادة من العبادة يأخذون عليها من الله الأجر والمثوبة فيحوزون بذلك سعادة الدارين . ولم يقصد الرسول ، ولا يمكن أن يكون قد قصد قطّ ، أنه لا علاقة للدين بشؤون الحكم أو القضاء ، وإلا فما معنى النبوة والرسالة إذا كانت مجرد مواعظ يستمع إليها الناس أو لا يستمعون ويعملون بها أو يلقونها دُبْر آذانهم دون رقيب أو حسيب ؟ وما معنى أن يقول الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام : « فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيتَ

ويسلّموا تسليما »(١) ، « أفحُكْمَ الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ »(٢) ، «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم»(٣) ، « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »(٤) ، « والذين يظاهرون منكم من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا . ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا »(٥) ، « ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى، فاعتزلوا النساء فى المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطْهُرْن، فإذا تطهَّرْن فأتوهن من حيث أمركم الله »(٦) ، « كُتب عليكم القصاص فى القتلى »(٧) ، «الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ... * فإن طلقها فلا تحلّ له من بعْدُ حتى تنكح زوجا غيره ، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود

(١) النساء / ٦٥ .
(٢) المائدة / ٥٠ .
(٣) المائدة / ٣٨ .
(٤) النور / ٢ .
(٥) المجادلة / ٣ ـ ٤ .
(٦) البقرة / ٢٢٢ .
(٧) البقرة / ١٧٨ .

الله »[١] ، « وشاورهم في الأمر » [٢] ، « وأحل الله البيع وحرّم الربا ... * ... * ... * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تُبْتُم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون »[٣] ، « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » [٤] ، « اليوم أُحِلَّ لكم الطيبات ، وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌ لكم ، وطعامكم حلٌ لهم ، والمُحْصَنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن مُحْصِنين غير مسافحين ولا مُتخذي أخدان » [٥] ، « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم »[٦] ، « وآتوا النساء صَدُقاتهن نحْلة»[٧] ، « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما،

---

(١) البقرة / ٢٢٩ _ ٢٣٠ .
(٢) آل عمران / ١٥٩ .
(٣) البقرة / ٢٧٥ _ ٢٧٩ .
(٤) الحجرات / ٩ .
(٥) المائدة / ٥ .
(٦) النساء / ٣ .
(٧) النساء / ٤ .

وارزقوهم فيها واكسوهم»(١) ، « يوصيكم الله فى أولادكم : للذكر مثل حظ الأنثيين ... »(٢) ، « حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ... إلخ»(٣) ، وغير ذلك من الآيات التى تنص على حكم الله سبحانه فى شؤون الحياة المختلفة خارج دائرة العبادة بمعناها المباشر الذى يقصده الكاتب ؟ أو قد نزل كل ذلك (وهو مجرد عينة سجلتها مما خطر على بالى وأنا أسطر هذه الصفحات) تضييعًا للوقت ؟ إن هذا هو إذن العبث بعينه !

إن الشيخ عبد الكريم يردِّد هنا نغمة غريبة هى أنه يؤمن بتاريخية النصوص(٤) وربْطها بأسباب ورودها والزمن والمجتمع والبيئة التى انبعثت منها ، وكذلك الظروف الجغرافية ودرجة التحضر التى كان عليها المسلمون فى عصر النبى ومستواهم الثقافى ، وبخاصة أن النصوص ذاتها قد ذكرت صراحة (كما يقول) أنها موجهة إلى أمة أمية(٥) .

---

(١) النساء / ٥ . (٢) النساء / ١١ - ١٢ .

(٣) النساء / ٢٣ - ٢٤ .

(٤) سوف يقول الكاتب عكس هذا فى الصفحة الرابعة والثمانين من الكتاب الذى نحن بصدده واصفًا النصوص الدينية بـ « النصوص اللاتاريخية » . وسبحان مثبِّت العقل والدين !

(٥) الأسس الفكرية لليسار الإسلامى / ١١ . ولاحظ أن هذا هو نفسه ما يقوله د. نصر أبو زيد ، الذى يسمّى كاتبنا تصدّى العلماء للعبث الذى كان يمارسه مع النصوص القرآنية بـ « الهجمة الشرسة » (ص ٨٤ بالهامش) .

وكلامه عن البيئة التى انبعثت منها هذه النصوص معناه ، فيما هو بيّن ، أن هذه النصوص لم تنزل من السماء بل نبتت من الأرض . ولا شكّ أن كلام الكاتب عن انسجام النصوص مع المستوى الثقافى والحضارى للمسلمين فى عصر النبى ، وبخاصة حين يشير إلى أنهم أمّة أمّيّة ، يعزز هذا الذى ذكرنا . كما أن فيه احتقاراً لهذا الجيل من المسلمين ، جيل الرسول والصحابة ، وللنصوص التى كانت تلائمهم ولكنها لا تصلح لنا ولا تلبّى حاجات حياتنا ولا تنسجم مع أوضاعنا وظروفنا لأننا نفوق الرسول وصحابته حضارة وثقافة وبيئةً . ولقد حبّر الكاتب مجموعة من المقالات الصحفية (١) زعم فيها أن الشريعة الإسلامية ليست شيئا آخر تقريبا غير ما كان يعرفه العرب فى الجاهلية مع شىء من التحوير والتعديل فى بعض الأحيان . وسوف نناقش هذا الادعاء فيما بعد . على أننا لا بد أن نوضح هنا أن هذه الدعوى ليست مقصورة على المعاملات والعقوبات بل تشمل أيضا العبادات ، وهو ما يعنى أن الإسلام كله ، حتى الجانب العبادى منه ، ليس له من مصدر إلا الأرض ودنيا الناس ، ولا علاقة له بالسماء ، لأنه ببساطة لا يوجد شىء فى السماء !

أما مزعم الكاتب بـ « أن النصوص ذاتها ذكرت صراحة أنها تتوجه إلى أمة أمية » فهو مزعم غريب لأكثر من سبب : فالكاتب يصرّ

(١) جمعها بعد ذلك بين دفّتىْ كتاب عنوانه « الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية » .

دائما فى غير هذا الموضع على أن الأمية المذكورة فى القرآن لا تعنى الجهل بالقراءة والكتابة بل يُقْصَد بها الإشارة إلى الأمم الأخرى من غير اليهود، أى الأمم التى لم ينزل عليها كتاب سماوى[١]. ومقصده من هذا القول أن الرسول كان يستطيع القراءة والكتابة ، ومن ثم كان مطّلعا على التراث الدينى عند أهل الكتاب وأفاد منه فى القرآن الذى ألّفه وادّعى أنه نزل عليه من عند الله . فيا ترى ما الذى جعل كلمة « الأمّيّين » إذن فى قوله تعالى[٢] : « هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين * وآخرين منهم لـمّا يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم »[٣] تعنى الجهل والتخلف ؟ ما هذا الاضطراب وعدم الثبات على رأى واحد ؟

إن السرّ فى ذلك هو إرادة الإساءة والاتهام فى الحالتين : فإذا كان المراد هو الزعم بأن الرسول كان يقرأ ويكتب ويطّلع على الكتب

---

(١) انظر الحوار الذى أجراه معه أيمن شرف فى صحيفة « الدستور » (٢٨ يناير ١٩٩٨م / ص ١٦) بعنوان « من جماعة الإخوان المسلمين إلى حزب التجمع اليسارى » .
(٢) وهو النص الذى يشير إليه الكاتب بقوله إن « النصوص ذاتها ذكرت صراحة أنها تتوجه إلى أمة أمية » .
(٣) الجمعة / ٢ - ٣ .

السماوية ويسرق منها ويُدْخِل ما يسرقه فى قرآنه فعندئذ تُفَسَّر الأمية بأنها الانتساب إلى أية أمة من غير اليهود ، أما إذا كان المقصود التقليل من شأن الرسول والصحابة والادعاء بأنهم متخلفون حضارة وثقافة وأن ما كان يصلح لهم لم يعد يصلح لنا الآن لتفوقنا عليهم فعندئذ يكون معنى الأمية هو الجهل بالقراءة والكتابة . وهكذا ينبغى أن تكون النزعة العلمية التى يتشدق بها خليل عبد الكريم وأمثاله ، وإلا فلا ! وعلى كلٍّ فها نحن أولاء قد قرأنا النص القرآنى الذى يذكر أن الله سبحانه وتعالى قد بعث محمداً فى أمة أمية (أيا ما يكن معنى الأمية هنا) ، فهل من يدلنى على ما فى هاتين الآيتين من كلام يُفْهَم منه أن التشريعات الإسلامية لا تناسب إلا هؤلاء الأميين ولا تصلح لمن يأتى بعدهم ؟ لقد قيل فى الأمثال والحِكَم : « إذا كنتَ كَذُوباً فكن ذَكُورا » ، فعلى من يستشهد بهذا النص القرآنى الكريم أن يذكر ما يقوله أيضا هذا النصّ من أن رسالة النبى ليست مقصورة على أولئك الأميين بل هى لهم ولمن يأتى بعدهم ، وهذا معنى قوله سبحانه : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » . وبالمناسبة فالنص الكريم يقول أيضا إن الله هو الذى « بعث » محمداً بالآيات والتزكية والهداية لا إن هذه الآيات « انبعثت » من بيئة محمد على ما يدّعى الكاتب الأمين ! أقصد أن أقول : هذا ما تقوله النصوص لا ما ينسبه إليها الشيخ خليل

عبد الكريم . وهو بَعْدُ حرّ فى الإيمان بها أو الإعراض عنها ، ولكنه ليس حرًّا فى أن يقوِّلها ما لم تَقُلْه ثم يَطْلُع علينا وفى وجهه وعينيه براءة الأطفال وسعادتهم بالعبث الذى يصنعون !

أما قوله إن العبرة فى النصوص التشريعية بخصوص السبب لا بعموم اللفظ فهو قول لا يقوله من له أدنى مُسْكَة من منطق . ذلك أنه ليس لهذ القول من معنى إلا أن وجود الآيات التى من هذا النوع فى القرآن هو عبث محض ، إذ لن يكون لها حينئذ من حكمة ما دامت لا تمثل حُكْمًا يُتَّبَع بل مجرد سدّ خانة والسلام . تعالى الله عن ذلك العبث ! ثم إن معنى هذا أيضا هو أن القرآن الكريم والحديث النبوى كانا يذكران لكل حالة حكما مغايرًا لأمثالها من الحالات السابقة ، وهذا غير صحيح البتة . وفضلا عن ذلك فإن هذه التشريعات ما هى إلا قوانين ، والقانون (كما نعرف جميعا) يقوم على الاطراد سواء كان قانونا علميا أو قانونا تشريعيا . هذه هى طبيعة القوانين ، فما الذى يجعل هذه الطبيعة تتخلف فى حالة القوانين الشرعية الإسلامية بالذات ؟ والدول المتخلفة التى يسود أنظمتها الاضطراب والفوضى هى التى تكون قوانينها عرضة للتغيير كل حين مما يدل على التخبط والفشل وشيوع الفساد وعدم الاستقرار . لكن الأستاذ المحامى يتجاهل هذا كله وهو يخاطبنا كأنه يتحدث إلى أطفال صغار لا يدركون أو إلى جماعة من الجهلة أو البُلْه المتخلفين عقليا ! ولم لا ؟ أليس يكتب

عن الإسلام ؟ أليس المراد هو مهاجمة هذا الدين وكتابه ونبيه وشريعته ؟ إذن فكل شيء مباح ، والذى تكسب به الْعَبْ به ، وطُظْ فى المنطق والمنهج العلمى وأمانة القلم ! وما لنا نذهب بعيدا وها هى ذى النصوص التشريعية من قرآن وسنة بين أيدينا ؟ فليدلُّنا الكاتب المفضال على نصٍّ واحد منها يذكر صراحة أو ضمنا أو يُفْهَم منه ولو على سبيل الرمز والتلميح أن التشريعات المذكورة فى كتاب الله أو أحاديث رسول الله هى تشريعات وقتية لا تتمتع بصفة الدوام والاستمرار .

قد يقال إن هناك نسخا فى القرآن مما يدل على أن القوانين كانت تتغير فى الدولة الإسلامية على عهد الرسول . لكن رغم أن النسخ هو من القضايا الخلافية ، إذ يثبته قوم وينكره آخرون ، فإن الحكم الذى يقال إنه منسوخ يخلو تمامًا من أية إشارة إلى أنه سوف يُنسَخ ، بل كان يظل يُعْمَل به فى كل حالة مشابهة إلى أن يتم تغييره بقانون آخر يظل يُطبَّق هو أيضا بدوره فى الحالات والمواقف المماثلة ، وهو ما يعنى أن العبرة قبل النسخ وبعده هى بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . والأحكام التى تم نسخها (إذا سلمنا بوقوع النسخ) ليست كثيرة . وقد كان ذلك فى بداية عهد التشريع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى الدولة الإسلامية الناشئة ، ولم يقع فى أية حالة من هذه الحالات القليلة إلا مرة واحدة ، ثم استقرت الأمور وثبتت النصوص . والعقل يقول إن هذه النصوص قد نزلت من أجل العمل بها لا من

أجل تضييع الوقت فى التمعن فى جمالها وسواد عيونها !

والعجيب أن يأتى الكاتب بعد ذلك كله فيقول فى نفس الكتاب الذى نحن بصدده إن « النصوص الأصلية التى هى عماد الدين وسنامه هى القرآن والسنة ، وما عداها فهو مُنتَج بشرى معرَّض للخطأ والصواب ... فما وافقنا منها قبلناه وما لم (يوافقنا) نبذناه ، ولا تثريب علينا فى ذلك . نحن نرى أن شيخ الإسلام وحجة الإسلام ... وأمير المؤمنين فى الحديث والحافظ الكبير والإمام المجتهد ... إلخ ، كل هؤلاء لا عصمة لقولهم لدينا نحن أهل السنة والجماعة ، لأن العصمة للرسول وحده عليه الصلاة والسلام ... إن الإسلام لم يعرف له رموزا ، ورمزه الوحيد من البشر هو الرسول عليه السلام ، ولم يَرِدْ لا فى الكتاب ولا فى السنة أن له رموزا يتعين على المسلمين أن يذعنوا لأقوالهم . الذى نعلمه أن ذلك حق للرسول دون سواه : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شَجَر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلِّموا تسليمًا » ... إلخ »[1] . لكن هل ترك الكاتب فى القرآن والسنة شيئا لم يقل إنه لم يعد صالحا لنا لأننا ناس متحضرون ولسنا متخلفين كالعرب الذين كانوا يُحْكَمون بمقتضاه ؟ أرأى القارئ إلى هذا التخبط ؟ إن ذلك الاضطراب بين الفكرة ونقيضها ، وفى كتاب

(١) ص ١٨ ــ ١٩ .

واحد ، وفى هذه الصفحات القليلة منه ليدل على أن الأمر لا يعدو أن يكون نوبات لا ضابط لها ولا رابط ! ولا تمر إلا صفحات قليلة أخرى حتى نشاهد هذه النوبة فى أسوإ حالاتها ، ذلك أن الكاتب يدعو بكل قواه إلى اصطناع « منهج الشك وخلع أى هيمنة على العقل الإنسانى مهما كانت ، سواء من النصوص أو السنة والموابذة ... ، وخاصة أن العقل الإسلامى منذ ما يقرب أو يزيد على ثمانية قرون لا يعرف سوى الإذعان والتسليم والسمع والطاعة للنصوص وحراسها»[1]. والسبب ، كما يقول ، هو أنه قد « تغيّر الفضاء المعرفى تماما وتبدّل الأفق الثقافى بالكلية وتقهقرت المعارف الثيولوجية وكادت أن تختفى منذ عصر التنوير وحلت محلها سيادة العقل الذى لا يعترف بأى سلطة سواه »[2]. ولست أحسب القارئ الكريم محتاجاً إلى أن أشرح له ما الذى يقصده الكاتب بـ « النصوص » التى ينبغى أن تُنبَذ نبذا تامًا ونهائيا بحجة أنه لا صوت يعلو فوق صوت العقل . وفوق ذلك فهو يسخر من الإيمان بالجنة ، بل من الإيمان بالله ذاته ويسميه على سبيل التعمية (المفضوحة) بـ « القُوَى غير المنظورة » و « القُوَى الجبارة » و « القُوَى (فقط) »[3].

---

(١) ص ٢٦ .
(٢) ص ٢٩ .
(٣) ص ٢٧ _ ٢٨ .

وقد ورد هذا الكلام فى سياق هجوم الكاتب على العلماء الذين يتصدَّوْن للغزو الفكرى (ومنه الفكر الاستشراقى) ويحذّرون من مضاره وأخطاره ، وسخريته منهم ، مع أننا رأيناه هو نفسه قبل ذلك يهاجم المستشرقين مهاجمة عنيفة متهما إياهم بسوء النية والتربص بالإسلام والعمل على هدمه . ألم أقل إنها نوبات ؟

فإذا عُدْنا إلى دعواه بأن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ وجدناه يقول فى نفس الكتاب كلامًا يتناقض مع هذه الدعوى ، إذ يمدح الإمام أبا حنيفة النعمان لأنه « يُعْمِل عقله ويدرس ويمحّص ويناقش ويحاور ويقيس الأمور على أشباهها والمسائل على نظائرها والفروع على الأحوال » . وإننا لنتساءل : وما هذا القياس ؟ وعلام يقوم ؟ أليس أساسه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؟ فما قول القارئ الكريم فى هذا ؟ أما أنا فرأيى أن سيدنا الشيخ يريد الإساءة إلى الإمام مالك بالمقابلة بينه (هو ابن « المدينة المنورة » ذات المجتمع البدوى المتخلف المنغلق على نفسه والذى لا يعرف إلا الثقافة الشفوية المعتمدة على الذاكرة الحافظة والمردِّدة لما يُلْقَى عليها دون تفكر أو تدبر كما يزعم مولانا الشيخ) وبين أبى حنيفة (ابن الثقافة الفارسية الكتابية المنفتحة على ما عند الآخرين من أفكار وديانات ، ومن ثم كان الفرد هناك منفتح الذهن واسع الأفق لأنه وريث حضارة وثقافة عريقتين ، فهو لايذعن للفكرة التى تُلْقَى عليه بل يُعْمِل عقله ويدرس ويمحص

ويقيس الأمور على أشباهها ... إلخ ما قال شيخنا المفضال)[١] ، على أن ليس المقصود فى الحقيقة مالكا وأبا حنيفة بل العرب وبيئتهم البدوية الجاهلة المتخلفة والفُرْس أصحاب الحضارة العظيمة والثقافة العقلية الراقية فى نظر الكاتب ! ولكن لماذا هذه الرغبة فى الإساءة إلى العرب وبيئتهم وثقافتهم ؟ والجواب : لأنهم هم قوم محمد ، وبيئتهم هى البيئة التى ينتمى إليها محمد ، وثقافتهم هى الثقافة التى تلقاها محمد . هذا هو حلّ الشفرة دون لفّ أو دوران ! وحتى هنا لم يبرإ الكاتب من داء التخبط والتناقض ، فمالكٌ هذا الذى يجعله الكاتب هنا مثالاً على الانغلاق والتخلف والبداوة المتحجرة هو نفسه مالكٌ الذى وصفه قبل ذلك بالسماحة وسعة الصدر وتوسيع دائرة الحوار بحيث تسع الرأى والرأى المخالف[٢] . وإذا كان المؤلف قد أرجع سعة أفق

(١) ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) انظر ص ١٢٣ من كتابه « لتطبيق الشريعة لا للحكم » . وأرجح الظن أنه يشير إلى ما عرضه عليه أبو جعفر المنصور من رغبته فى تعميم كتابه « الموطأ » على الأمصار وحمل الناس على العمل به وترك ما عداه ، ورفْض مالك لهذا العرض مفضلا ترك الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم (انظر القاضى عياض بن موسى / ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك / تحقيق أحمد بكير محمود/ دار مكتبة الحياة / بيروت / ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م / ١ / ١٩٣ ، ود. حسين حامد حسّان / المدخل لدراسة الفقه الإسلامى / شركة الطوبجى للطباعة والنشر / ١٩٨١م / ٩٨) .

المذهب الحنفى إلى نشأته بالعراق للأسباب المارّ ذكرها، فماذا يقول فى المذهب الحنبلى الذى يُضرب به المثل فى التشدد والتمسك بحرفية النصّ، وقد نشأ هو أيضا بالعراق كمذهب أبى حنيفة ؟ وما قوله كذلك فى أن الإمام مالكا رضى الله عنه يصطنع القياس أيضا فى استنباط أحكامه بعد الأخذ بالقرآن والسنة وعمل أهل المدينة وقبل اعتماد المصالح المرسلة والاستحسان ؟[1] ترى هل هناك فرق بينه وبين أبى حنيفة، الذى كان فقهه يقوم على الأخذ بالكتاب والسنة وفتاوى الصحابة ثم بالقياس والاستحسان والعُرْف على هذا الترتيب؟[2] ألا يرى القارئ معى أن كاتبنا الألمعى يهرف بما لا يعرف ويُدْخِل نفسه فى مآزق ومتاعب ما كان أغناه عنها لو لزم

(١) انظر مثلا « الموسوعة العربية الميسرة » بإشراف محمد شفيق غربال / دار إحياء التراث العربى / ٢ / ١٦٣٠، وعبد العزيز بن صالح الحليفى / الاختلاف الفقهى في المذهب المالكى ـ مصطلحاته وأسبابه / المطبعة الأهلية / قطر / ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م / ١١٥. وهذه الأصول (كما يقول عبد العزيز الحليفي بحق) هى هى نفسها عند أكثر المجتهدين، وإن كان مالك يزيد عليهم عمل أهل المدينة ويتوسع فى المصالح المرسلة وسدّ الذرائع. وهو نفسه ما قاله د. محمد يوسف موسى، الذى نص على من خالفوا فى الأخذ بالقياس، وهم جماعة من الشيعة والظاهرية ليس إلا (انظر كتابه « تاريخ الفقه الإسلامى » / دار الكتب الحديثة / ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م / ١٩، ٢٤٤، وانظر أيضا د. حسين حامد حسّان / المدخل لدراسة الفقه الإسلامى / ١٦٧).

(٢) المرجع السابق / ١٠ / ٣٢.

حدوده ولم يتهجم على الإسلام ورجاله ؟

ورغم أنى لا أريد أن أزج بنفسى فى مقام المفاضلة بين الإمامين الجليلين أبى حنيفة النعمان ومالك بن أنس فإنى أرى أنه قد يحسن الإشارة إلى المناظرة التى وقعت بين الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة حول هذين العالمين العظيمين ، إذ كان رأى الشافعى والشيبانى أن مالكا أعلم من أبى حنيفة بالقرآن والسنة وأقاويل أصحاب رسول الله ﷺ . وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد قال الشافعى : « لم يبق إلا القياس ، والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء » ، أى أنه لا يمكن أن يقوم قياس ، فضلا عن أن يكون هذا القياس صحيحا، إلا إذا توفر أولا العلم بالنصوص القرآنية والحديثية وآراء الصحابة رضى الله عنهم. ومعنى ذلك أن وسائل القياس كانت فى يد مالك أمكن منها فى يد أبى حنيفة[١] . وقد وقف الشيخ أبو زهرة طويلا عند استعمال الإمام مالك للقياس وأعطى أمثلة عدة على ذلك موضحا أنه كان يُقيم القياس على النصوص التى يثبت فيها الحكم بطريق ظنى إما لأن دلالتها ظنية كألفاظ العموم ، وإما لأن طريق ثبوتها ظنى لأنها أحاديث آحاد[٢] .

---

(١) انظر أبو إسحاق الشيرازى / طبقات الفقهاء / تحقيق د. إحسان عباس/ ط٢ / دار الرائد العربى / بيروت / ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م / ٦٨ .

(٢) محمد أبو زهرة / مالك ـ حياته وعصره ، آراؤه وفقهه / دار الفكر العربى / ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

وبالنسبة لدعوى نفور مالك من استعمال الرأى يؤكد الدكتور على حسن عبد القادر أن النظر فى كتاب « الموطإ » يثبت خلاف ذلك ، « فإن مالكا قد استعمل فيه الرأى بكفاية لكى يسد به الحاجة التى تستدعيها الحياة العملية ولا تفى بها النصوص الموجودة ... ، واستعمل الرأى كثيرا حتى قيل فى سبيل الاتهام له إنه قد تعرّق (أى أصبح كفقهاء العراق) ... ومن هنا لا نرى فرقا كبيرا بينه وبين أبى حنيفة »[1] .

وحتى يدرك القارئ مدى ما فى كلام خليل عبد الكريم من تهويل غير علمى نشير إلى ما يؤكده العلماء الأثبات الذين أرّخوا للتشريع الإسلامى من أن الأخذ بالرأى وعدم الاقتصار على النصوص معروف منذ أيام الرسول الكريم والصحابة ولم يبدأ بأبى حنيفة . وهذا أمر طبيعى ، إذ النصوص متناهية ، بخلاف الوقائع التى لا تنتهى بل يجدّ منها فى كل عصر أشياء وأشياء ، فمن الطبيعى أن يقيس الفقيه ما لم يرد ذكره فى النصوص على ما جاء فيها[2] . كذلك فأبو حنيفة لم يكن يذهب إلى القياس والاستحسان إلا بعد الرجوع إلى القرآن

---

(١) د. على حسن عبد القادر / نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى / مطبعة العلوم / ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م / ١ / ٢٤٨ .

(٢) انظر فى ذلك مثلا د. على حسن عبد القادر / نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى / ٢١٤ ، ٢١٨ ، و د. محمد يوسف موسى / تاريخ الفقه الإسلامى / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

والسنة الثابتة لديه وبعد ألا يجد فيهما النّص على الحكم الذى يبحث عنه بل بعد ألا يجد فى المسألة موضوع البحث حكما أو رأيا مُجْمَعًا عليه من الفقهاء ومن لهم حق الإجماع ، وذلك على حسب ما قال هو نفسه وتلاميذه عن منهجه فى استنباط الأحكام(١) . أما الادعاء القائل بأنه لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا هى التى بنى عليها مذهبه فيفنّده د. على حسن عبد القادر بأن ذلك لا يستقيم مع ما عُرِف عن مسانيد أبى حنيفة الكثيرة(٢) .

أيا ما يكن الأمر فإن أبا حنيفة الفارسى الأصل ابن الحضارة والثقافة المتفتح العقل ... إلخ المدائح التى كالها الكاتب له كيلا على سبيل المكايدة للعرب والإسلام قد تبع هو وقومه جميعا دين محمد العربىُّ ابن البادية المتخلفة المنغلقة الأفق كما يصفها مولانا الشيخ ، ووقف حياته على خدمة شريعته واجدا فى ذلك شرفًا له ، وأى شرف! ثم إن أساتذته فى الفقه هم فى نهاية المطاف جماعة من الصحابة (أى من العرب البدو المتخلفين فى رأى الشيخ خليل) أخذ عنهم

---

(١) انظر د. محمد يوسف موسى / الفقه الإسلامى ـ مدخل لدراسته ، نظام المعاملات فيه / ط٣ / دار الكتب الحديثة / ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م / ١٣٠ ، ومحاضرات فى تاريخ الفقه الإسلامى / معهد الدراسات العربية العالية / ١٩٥٦م / ٦٥ ـ ٦٧ ، و د. حسين حامد حسان / المدخل لدراسة الفقه الإسلامى / ٩٣ ـ ٩٥ .

(٢) انظر كتابه « نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى » / ٢٢٢ .

التابعون فتابعو التابعين حتى أوصلوا عملهم إلى أبى حنيفة[1] . فماذا قائلٌ كاتبنا فى هذا ؟ على أنه هو نفسه قد قال فى موضع آخر كلاماً فى مالك بن أنس ومكة المكرمة والمدينة المنورة يهدم هذا الكلام هدماً ، وهو ما يدل على أنه لا يبالى بما يقول وأن الألفاظ عنده لا قيمة لها . ذلك أنه يؤكد أن الخمسة القرون الأولى من تاريخ الإسلام كانت قرون ازدهار فكرى وأدبى ، إذ ظهر أكابر الفقهاء والأدباء والعلماء ، كما كانت مكة والمدينة والفسطاط وبغداد والبصرة ... إلخ منارات علم وثقافة وفن وأدب تموج بالأعلام من كل هؤلاء[2] . وأمثال هذه التناقضات كثيرة فى كتابات الشيخ خليل عبد الكريم مما يجعلنا نقول إن الأمر لديه لا يخرج عن كونه حالاتٍ وأقنعة !

سَقَطَ إذن أول قناع من على وجه اليسار الإسلامى ، الذى ينطق باسمه مولانا الشيخ خليل عبد الكريم المشهود له بصدق الإيمان وحسن الإسلام من قِبل الصحفى الأمريكى إياه ، وانكشفت حقيقة موقف هذا اليسار من شريعة الإسلام . وفى موضع آخر من الكتاب يسقط قناع آخر ، إذ سيكون الهجوم لا على الجانب التشريعى وحده من دين محمد بل على الإسلام كله وما يدّعيه لنفسه من «ثبوتيات

(١) ومثل أبى حنيفة فى ذلك سائر أئمة الفقه . انظر مثلا د. محمد نبيل غنايم / فى التشريع الإسلامى / ط ٢ / دار الهداية / ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م / ٢٧ ، ٣٠ - ٣١ ، و عبد العزيز بن صالح الحليفى / الاختلاف الفقهى فى المذهب المالكى - مصطلحاته وأسبابه / ٢٥ .

(٢) انظر خليل عبد الكريم / هذا من تجليات الحقبة الثالثة / مجلة « القاهرة » (العدد ١٤٤) / نوفمبر ١٩٩٤م / ١٦ .

ويقينيات » جاءت العلوم التجريبية والمناهج الحديثة فى العلوم الإنسانية فكشفت حقيقتها وأثبتت أسطوريتها وجرّدتها من الهيبة الزائفة التى كانت تتمع بها ورسّمت مكانها سيادة العقل ، الذى يؤكد كاتبنا أنه هو المصدر الوحيد لأية معرفة ، ومن ثم فلا بد من استقلاله عن كل هيمنة أخرى[1] . والمقصود طبعا هيمنة الدين ، التى تستند إلى الوحى السماوى[2] لا إلى إعمال العقل واستخلاص النتائج من مقدماتها أو مما يجريه العلماء فى مختبراتهم من تجارب . وهو يتهم القرآن صراحة بأن البيئة التى انبثق عنها بيئة ساذجة متخلفة أشد ما يكون التخلف والسذاجة ، ومن ثم كان « من المستحيل عقلا أن تنبثق عنها نصوص تحمل نظريات علمية لأن فاقد الشىء لا يعطيه»[3] . يريد أن يقول إن القرآن هو من صنع محمد ، الذى لم تكن ثقافته أرقى من ثقافة بيئته العربية البدوية الجاهلة ، فكيف يمكن أن يأتى فى قرآنه ذاك بنظريات أو حقائق علمية لم تكتشف إلا فى العصور الحديثة ؟

وهو يمضى فيقول إن الادعاء العريض بوجود نظريات علمية فى القرآن يزايد عليها البعض ويوصلها إلى حد الإعجاز لم يدَّعه أحد من العلماء المسلمين القدامى أمثال خالد بن يزيد بن معاوية وأبى بكر الرازى والكندى وابن الهيثم وابن أبى أُصَيْبعة وابن النفيس ، وإن كل

(١) انظر « الأسس الفكرية لليسار الإسلامى » / ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٢) الذى يسميه الكاتب بـ « السلع الماورائية » سخرية واستخفافا / ص ١٣٦ .

(٣) المرجع السابق / ١٤٢ .

ما يفعله هؤلاء المدّعون أنهم ينتظرون حتى يتوصل عالم غربى إلى نظرية ما ، وعندها يملأون الدنيا صياحًا بأن القرآن كان متضمنا هذه النظرية من قبل[١] . ولقد فات كاتبنا العبقرى أن العبرة فى هذا المجال ليست بالنظريات بل بالحقائق العلمية التى يحتوى القرآن على عددٍ منها لم تكن للإنسانية به أية معرفة . بل إن قدامى العلماء المسلمين أنفسهم حينما وقفوا أمام النصوص الواردة بشأنها فى القرآن الكريم أساءوا فهمها وأوّلوها على نحو يبعدها عن دلالتها الأصلية استبعادًا منهم لما فيها من حقائق بسبب تخلف عصرهم عن دركها وفهمها ، إلى أن جاء العصر الحديث واكتشف العلم تلك الحقائق فعندئذ انجابت الغاشية وبان لكل ذى عينين أن القرآن الكريم قد أشار بكل جلاء وحسم إليها، لكن علماءنا القدامى رحمهم الله قد صرفوها عن وجهها . ومن ذلك مثلا قوله تعالى : «فمن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَه يشرحْ صدره للإسلام، ومن يُرِدْ أن يضلّه يجعل صدره ضيقا حَرَجا كأنما يصّعّد فى السماء»[٢] ، الذى فهم مفسرونا القدامى ما فيه من إشارة إلى التصعيد فى السماء على أن المقصود بها استحالة إيمان من يريد الله إضلاله كاستحالة من يبغى التصعيد فى السماء ، إذ كانوا يحسبونه شيئا مستحيلا . ثم جاء العصر الحديث ودرس العلماء تأثيرات الصعود إلى الطبقات العليا من الغلاف الجوى على الصّدر وعملية التنفس وثبت أنها هى نفسها ما قاله القرآن فى هذه الآية التى ليس فيها أى

(١) نفس المرجع والصفحة .
(٢) الأنعام / ١٢٥ .

كلام عن استحالة التصعيد فى السماء البتة بل عن الضيق والحرج اللذين يشعر بهما المصَّعِّد فيها . وكقوله سبحانه أيضا : « والله خلق كل دابّة من ماء »[1] ، الذى فهمه أولئك المفسرون على أساس أن الكلام فيه على التعميم ، إذ كانوا يظنون أن مواد الخلق الأولى بالنسبة للكائنات الحية أربعة لا واحدة ، وهى الماء والهواء والنار والتراب ، وأن الآية قد عمّمت الماء فذكرته وأهملت سائر العناصر . ومرة أخرى جاء العلم الحديث فاكتشف أن كل الكائنات الحية مخلوقة من ماء . ومثل ذلك أيضا قوله عز شأنه عن النحل إنه « يَخْرج من بطونها شراب مختلف ألوانه »[2] ، فجاء المفسرون القدامى وقالوا إن النحل تجمع العسل بفمها من مواضعه على أوراق الأشجار ثم تمجّه مرة أخرى من ذلك الفم دون أن يكون للبطن دخل فى ذلك ، وأوّلوا الآية بحيث تدل على هذا المعنى . ويدخل فى هذا كذلك قوله جلّ من قائل إن الحِلْىَ لا تُستخرج من البحر فقط بل من النهر والبحر كليهما ، وذلك فى الآية الثانية عشرة من سورة « فاطر » ، ونصها : « وما يستوى البحران[3] : هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابه ، وهذا ملحٌ أُجاجٌ . ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حِلْيَةً تلبسونها » . وواضحٌ تقرير

(١) النور / ٤٥ .

(٢) النحل / ٦٩ .

(٣) المقصود بـ « البحرين » هنا : البحر المِلْح (وهو ما تسميه الآن بـ « البحر ») ، والبحر العذْب (وهو النهر) كما هو واضح من بقية الآية الكريمة .

الآية أن كلاً من النهر والبحر يُستَخرَج منه الحلىّ ، لكن مفسرينا القدماء ، عافاهم الله ، خضوعاً منهم لثقافة بيئتهم (وهى بيئة متحضرة أشد التحضر بمقياس عصرها على عكس بيئة مكة التى نزل فيها هذا النص وأمثاله والتى لم يكن لها أى نصيب يذكر من ثقافة العلوم الطبيعية) ، فهموا أن المقصود هو استخراج الحلىّ من البحار المالحة فقط ، وكل ما هنالك أن القرآن قد غلّبها وألحق بها الأنهار أيضا . ثم ثبت لنا فى العصر الحديث أن كثيرا من الحلىّ والمعادن النفيسة تستخرج من الأنهار العذبة . والعجيب أن هذه الأنهار كلها توجد خارج نطاق الشرق الأوسط بمسافات رهيبة[١] بحيث لا يمكن لأى متنطع الادعاء بأن محمداً قد بلغته على نحو أو على آخر هذه المعلومة دون أبناء قومه ... وهكذا . ونكتفى بهذه الأمثلة الأربعة[٢] ، وفى القرآن غيرها كثير .

ومولانا الشيخ يسخر من الاعتقاد بوجود إله يسيطر على مقاليد

---

(١) فى بريطانيا وتشيكوسلوفاكيا واليابان وبورما وسيام وسيلان وروسيا والبرازيل . وقد تابع بعض مترجمى القرآن من المستشرقين (مثل رودويل الإنجليزى ورودى بارت الألمانى) علماءنا القدماء فترجموا هذه الآية بما يفيد أن الحلىّ إنما تستخرج من البحار فقط .

(٢) أحيل القارئ الكريم إلى كتابى « مصدر القرآن ــ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى » / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م / ٢٧٣ ــ ٢٩٢ حيث يجد بالتفصيل مناقشة هذه القضية وشرح هذه الآيات وما قاله علماؤنا القدامى بشأنها .

الكون وينبغى الانقياد لأمره للفوز بنعيم الجنة ، قائلاً إن تلك الثقافة الثيولوجية[١] التى كانت تسود القرون الوسطى وتدور حول الغيبيات والعوالم اللامرئية والكائنات غير المنظورة وتسليم كافة المقاليد إليها وحتمية الانقياد لأوامرها الصارمة بغية الفوز بـ « الخلاص » و « الخلافة فى الأرض » على الأرض وبـ « ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر » فى العالم الآخر ، هى ثقافة لا تصلح لعصرنا الحديث ، عصر التنوير الذى حلت محلها فيه سيادة العقل والذى لا يعترف بأية سلطة سواها[٢] .

وهو يرفض رفضا قاطعًا ردّ الانتصار الذى أحرزناه فى معركة رمضان المجيدة على اليهود إلى الله سبحانه ، الذى يسميه تهوينًا كعادته فى هذ الكتاب بـ « قوى غير منظورة » بصيغة التنكير الاحتقارية[٣] . وهو فى هذا السياق يلجأ إلى التلميح واللمز لا الكلام المباشر المستقيم، والإقبال على الدين عنده ليس نتيجة الإيمان القلبى النابع من اقتناع

---

(١) يقصد « دينية » أو « لاهوتية » تشدقا بالألفاظ الأجنبية ، رغم أنه ، فيما هو واضح ، لا يعرف لغة أجنبية . وهذه إحدى عُدَدِ جهازه الإجلابى الذى يستخدمه لإرهاب القارئ وإيهامه بأنه أمام عالمٍ نحرير قد أحاط بأطراف الثقافة بتخصصاتها المختلفة ويصدر عن نزعة علمية وثيقة فلا سبيل من ثمّ للشك فيما يقول .

(٢) الأسس الفكرية لليسار الإسلامى / ٢٨ - ٢٩ .

(٣) ص ١١٦ ، ١٦٥ .

العقل ، بل هو نتيجةٌ للملل والسأم الناتجين من التخمة الماديّة واللذين يدفعان بصاحبهما إلى الغيبيات ، أو نتيجةٌ للفقر والجوع اللذين يسوقان المبتلَى بهما إلى التوجه لـ « كائنات علوية وقوى غير منظورة »[(١)] يطلب منها عبثا العون والمساعدة متوقعا ظهور المهدى المنتظَر الذى سيملأُ الأرض عدلا ورخاء كما مُلئت جَوْراً وشدة[(٢)] . وفى ضوء هذا نستطيع أن نفهم سخطه المحتدم وتهكمه السخيف على الفتوح الإسلامية وانحيازه إلى أعداء الإسلام آنئذ ، الذين يقول عنهم إنهم « كانوا يدافعون عن وطنهم ومقدساتهم ضد الذين اقتحموها عليهم عَنْوَةً بمقولة إنهم يريدون أن يخرجوهم من عبادة العِبَاد إلى عبادة الله ، مع أنهم لم يشتكوا إليهم من ذلك ولم يستعينوا بهم »[(٣)] .

---

(١) بصيغة التنكير الاحتقارية كما أشرنا من قبل .

(٢) ص ١٩٦ . وليلاحظ القارئ الكريم أن الكاتب قد سبق أن ذكر أن « الملأ » (وهم المتخمون ماديا) دائما ما يرفضون دعوة الأنبياء ، وأن الفقراء الذين يؤمنون بها إنما تدفعهم إلى ذلك روح ثورية ينتهى أمرها إلى الانتصار وتحقيق قيم العدالة الاجتماعية التى أتى بها الدين . وواضح التناقض البارز فى أفكار الكاتب هنا وهناك ، ولكن لا ينبغى أن نأخذه على محمل الجدّ ، فهى حالات ونوبات متباينة ! هذا كل ما هنالك .

(٣) خليل عبد الكريم / شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة ـ السفر الأول ـ محمد والصحابة / سينا للنشر (القاهرة) والانتشار العربى (بيروت) / ١٩٩٧م / ١٧٣ .

وهكذا يسقط قناع آخر من على وجه « اليسار الإسلامى » بارك الله فيه ، فلا إله إذن ولا جنّة ولا نار ، والذين يؤمنون بهذا هم مجموعة من السذّج البُلْه الذين يسيّرهم ملل الترف وسأمه أو جُوع الفقر وإحباطه . ثم ها هو ذا القناع الثالث يسقط أيضا فى حملة كاتبنا على العبادات ، التى سبق أن قال إنها هى مجال الدين وهدفه : فهو يتهكم مثلا بصلاة الاستسقاء وصلاة الكسوف والخسوف ، كما يسخر من نهى الرسول عن الصلاة عند طلوع الشمس ، مؤكدا أن هذا وأمثاله ليس إلا نتاج مجتمع بدوى قَبَلِىّ متخلف ، ومن ثم لا يصلح لمجتمعنا الزراعى المتحضر[1].

وهو يفسّر مثلا صلاة الكسوف والخسوف على أساس أن الرسول والصحابة كانوا ينظرون إلى هاتين الظاهرتين الجويتين بوصفهما « من علامات غضب الله ، وخاصة أن قوم عاد وثمود عاشوا فى جزيرة العرب ، وهلاكهم جاء على أيدى ظواهر جوية خوارق نتيجة انتقام السماء منهم » ، فهذه الصلاة إذن هى « من آثار المعتقدات القبلية » كما قال ، أى أنها خرافة من الخرافات التى ورثها الإسلام وحافظ عليها[2] . وهذا كله خبط عشوائى فيه من سوء النية

(١) المرجع السابق / ١٧٠ - ١٧١ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .

ما يعادل ما فيه من جهل ، فليس في هاتين الصلاتين ما يشير إلى شيء من هذه الاعتقادات ، وكل ما ورد عن النبي ﷺ في ذلك قوله: « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك (أي الكسوف والخسوف) فادعوا الله وكبروا وتصدقوا وصلوا »(١) . وهو كلام ساطع الدلالة تماما على أن الأمر لا يعدو في نظر الرسول عليه السلام أن يكون ظاهرة طبيعية لها قوانينها التي تخضع لها وليست لها أية علاقة بما يقع في المجتمع من أحداث . ولو كان الرسول يلعب على أوتار الخرافات والشعبذات أو على الأقل يؤمن بها لانتهز فرصة كسوف الشمس يوم موت ابنه إبراهيم وأكد ما ظنه بعض الصحابة من أن ذلك مشاركة من السماء للرسول في أحزانه (٢) . ثم ها هي ذي قصة عاد وثمود في القرآن الكريم ، فهل يجد فيها أحد أي حديث عن الكسوف والخسوف ؟

لقد كان هلاك عاد بريح صرصر عاتية ، وأما ثمود فقد دمرتهم الرجفة كما هو معروف لكل من يتلو آيات القرآن الكريم . فلو كان تفسير شيخنا العلامة صحيحاً لشرّع الإسلام صلاة العاصفة وصلاة

---

(١) انظر السيد سابق / فقه السنة / دار الكتاب العربي / بيروت / ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م / ١ / ٢١٥ .

(٢) ولقد رأينا ، في الكسوف الذي حدث مؤخرا ، كيف أن أتباع الديانات الأخرى جميعا قد فزعوا إلى الصلاة رغم عدم معرفتهم بعاد وثمود وما جرى لهما . بل رأينا كثيرا منهم يعزو هذه الظاهرة إلى الأرواح الشريرة ويظن أنها نذير بنهاية العالم . وهذا هو الفرق بين خرافة الجهل في أديان القوم واستقامة أمور الإسلام مع العلم ومنطقه وقوانينه !

الزلزلة ! أليس كذلك يا مولانا ؟ إن الملاحَظ فى الإسلام هو حرصه على ربط أتباعه بربهم فى جميع الظروف والمناسبات واهتبال كل سانحة لتحبيبهم فى عمل الخير . وهذا موجود فى توجيه الرسول الكريم للمسلمين عند مشاهدتهم ظاهرتى الكسوف والخسوف ، إذ أمرهم بالدعاء والاستغفار والصلاة والتصدق على المحتاجين .

وعلى نفس الشاكلة نرى الشيخ خليل يضيق صدرا بفريضة الزكاة ويتجهّم لها وينفّر منها قائلا إنها « أوساخ المسلمين » ، وهى تسمية وردت على لسان الرسول ﷺ فعلا ، ولكن كان القصد من ورائها تنفير من لا يستحق الزكاة من أن يمد يده مزاحمًا أصحاب الحق فيها المحتاجين إليها . ولا يمكن أن يقصد الرسول عليه السلام التحقير من شأنها أو تبغيض الناس فى إخراجها كما يحاول الكاتب الأمين أن يوحى إلى القراء الكرام ، بل المراد هو الإشارة إلى أنها طهارة لأموال مخرجيها وقلوبهم ، فالماء عندما يطهّر شيئًا لا يعود نظيفا طاهرا كما كان ، وهذا معنى أنها أوساخ المسلمين . ولقد تطلعت نفوس اثنين من بنى عبد المطلب إلى أن يستعملهما النبى على الزكاة حتى يأخذا سهم العاملين عليها فينتفعوا به فى إصلاح شؤونهما ، لكنه عندما كلّماه فى ذلك رفض قائلا : « إنما هى أوساخ الناس ، وإنها لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمد » ، ثم استعملهما فى مهمة أخرى بعيدة عن الصدقات[1] . فهذا هو السياق الذى وردت فيه كلمة الرسول ،

---

(١) انظر الحديث فى « صحيح مسلم » / عيسى البابى الحلبى / ١ / ٤٣٣ ، وهو موجود فى غيره من كتب الأحاديث .

إلا أن الشيخ اليسارى الإسلامى تجاهل ذلك وعمّم الكلام تعبيرا عن كراهيته لهذا الركن الإسلامى الركين الذى قال عنه القرآن الكريم إنه « حقّ معلوم * للسائل والمحروم » وأنه كفيل بتطهير من يؤديه ومضاعفة أجره عند الله سبحانه ، وصوّره أجمل تصوير فى آيات متعددة منه . ومن بغض كاتبنا لهذه الفريضة العظيمة نراه يدّعى أنه لو « أُنشئت لها مؤسسة » لِجَمْعِها من مظانّها وتوزيعها على مستحقيها «لتحولت نسبة كبيرة من المجتمع إلى متسولين وتنابلة وكسالى» [١] ، مع أن القرآن الكريم قد أمر بإقامة هذه المؤسسة وأنشأها الرسول فعلاً ، وذلك عندما نصت آية الزكاة فيه على « العاملين عليها » [٢] ، كما حارب أبو بكر رضى الله عنه مانعيها حربا عوانا حتى خضعوا وعادوا إلى بذلها لأصحاب الحق فيها . إن الزكاة هى الركن الثالث من أركان الإسلام ، ولكن الكاتب لا يطيق أن يسمع شيئا عنها وكأنها رجس من عمل الشيطان، وما ذاك إلا لمقته لكل ما يتصل بالإسلام ، فنراه يقلب الأمر رأسا على عقب زاعماً أنها ستكون سببا فى انتشار التسوّل والتنبلة ، مع أنها على العكس من ذلك قد شُرِعَتْ للقضاء على الفقر ومساعدة العَجَزَة الذين انقطعت بهم الدنيا ولم يعد لهم من مخرج مما هم فيه إلا بأن يتضافر معهم إخوانهم القادرون فيعطوهم نسبة من أموالهم التى أفاء الله عليهم حقًا لهم كما أكدّ القرآن والحديث لا

---

(١) انظر ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٢) التوبة / ٦٠ .

تفضلاً عليهم من جانب مخرجيها ولا إذلالاً لهم على أيديهم ، وإلاَّ فكيف يحُلّ هؤلاء المساكين مشكلتهم ؟ فليدلّنا الشيخ خليل على الجواب .

إن الزكاة لا تُعْطَى للقادر الذى يجد فرصة للعمل والكسب لكنه يركن إلى الكسل ويمدّ يده للسؤال ، فكيف يمكن بالله أن تكون سببًا فى انتشار الكسل والتنبلة كما يدّعى الشيخ المفضال ؟ إن شِنْشِنَةَ اليساريين هى الهجوم على الزكاة ، ودعواهم السخيفة التى تدلّ على انتكاس الضمير وجمود المشاعر وتحجر القلب هي أنهم يفضّلون أن يشقى المحتاج بحاجته شقاءً يدفعه إلى الثورة التى لا تُبْقِى ولا تذر . فأى قسوة تلك يا ربى ؟ إن هذا لأكبر دليل على تجرد القوم من صفة الإنسانية ! ترى هل يرضى الواحد منهم ذلك لنفسه ولأسرته لو تعرض للفقر وعجز عن تدبير رزقه ورزق أولاده؟ بالطبع كلاَّ وألف كلا ، فتهافتهم على المال مشهور ، وتكالبهم على الالتفاف حول من يسمونهم هم أنفسهم بـ «الرجعيين» من زعماء الخليج معروف للقاصى والدانى !

وفى موضع آخر من الكتاب نسمع كاتبنا «يرقّع بالصوت الحيّانى» الذى يبلغ عنّان السماء مولولاً على الأموال التى يهدرها المسلمون المتخلفون على الحجّ ، وهو عمل لا ينفع ولا يشفع ولا معنى له فى نظره ، ويحرمون مصر منها رغم احتياجها إلى من يسدّد عنها ديونها[1] .

---

(١) ص ١١٦ ـ ١١٩ .

وهى مغالطةٌ جدُّ سخيفة ، فالذين أوقعوا مصر فى الديون ليسوا هم الحجّاج ، الذين يقرّ هو نفسه بأن أغلبيتهم من الأميين أصحاب الدخول المحدودة ، فما دخل هؤلاء بديون مصر ، تلك الديون التى يعرف خليل عبد الكريم قبل كثيرين غيره مَن المتسببون فيها ، وبأى الطرق أوقعوا مصر فى شباكها ؟ فانظر بالله إلى ذلك الرجل الذى يدّعى الرأفة بالطبقات الضعيفة وفى ذات الوقت يريدها أن تتحمل أوزار المترفين المجرمين الذين سرقوا البلاد وجرّوها إلى المأزق العسر الذى هى فيه ! ثم إن الرحلات السياحية لا تكفّ يوما عن الانطلاق من مصر إلى جميع بلاد العالم ، ومنها رحلات من أجل المتع الجنسية الحرام ، فما السرّ يا ترى فى أن يخْرَس الكاتب عنها جميعا ولا يركبه العفريت إلا بسبب رحلة الحجّ التى لم يوجبها الإسلام إلا على القادر مع تأكيده فى ذات الوقت أنها لو تمّت بمال حرام حُرِم صاحبها من الأجر حرمانا؟

وأستميح القارئ الكريم عذرا فى أن أنقل له هذه الفقرات التى سوّدها قلم الكاتب كى يلمس بنفسه الكمّ الهائل من الضغن المخزون فى قلبه تجاه الإسلام وكل ما يمت للإسلام بصلة . يقول مولانا الشيخ الذى شهد له الصحفى الأمريكى بصحة الإيمان وحسن الإسلام :

« فى كل عام يخرج ما لا يقل عن ١٠٠ ألف لأداء الحج ،

ومثلهم للقيام بالعمرة ، ومتوسط تكاليف رحلة الواحد منهم خمسة آلاف جنيه كحد أدنى ، أى أن مصر المديونة تُخْرِج من ماليتها العليلة عشرة مليارات من الجنيهات سنويا ، وهو ما يوازى ربع ديونها العالمية .

والوفاء بهذين الطقسين (يقصد الحج والعمرة) يحقق أهدافا متنوعة لمختلف الطوائف التى تؤديها : فهناك بينهم نسبة واضحة من تجار الصنف (المخدرات) ومستوردى البضائع المغشوشة واللصوص والنشالين والقوادين والشواذ ومؤجرى الشقق المفروشة وأصحاب الملاهى الليلية ، وبائعى الخمور والمرابين ومستحلّى عرق العاملين لديهم والفاسدين ... إلخ[1] . هؤلاء يجدون فى القيام بهما ، وخاصة الحجّ ، طريقة مضمونة للحصول على وثيقة غفران للذنوب والموبقات التى كانوا يرتكبونها باعتبار أنهم يعودون بعدها كما ولدتهم أمهاتهم . وهناك من يحقق بحيازة لقب « الحاج » تشريفا ومكانة بين أهل وطنه كان يفتقدها ويتحرق شوقا إليها . ومنهم من يجد فى اللقب على بديل عن لقب آخر أخفق فى الحصول عليه : المحامى ، الدكتور ، المهندس ،

(١) لا أعرف سببا معقولا يسوّغ انتقاد سيدنا الشيخ لهذه الطوائف وحرصها على الحجّ من أجل الغايات الوضيعة التى يذكرها . أليسوا يشبهون اليساريين الذين يتظاهرون بالإسلام ويلطمون خدودهم إذا كشف أحد نفاقهم رغم وضوح كراهيتهم لدين محمد وضوحًا يفقأ عين كل مكابر لئيم ؟

اللواء ، الأستاذ ... إلخ ، ونظرا لرتبته الدينية فإن له الغلبة والتفوق .

أما المأزومون والمُحبَطون والمهمَشون فعندما يمسكون « شباك النبى » عليه الصلاة والسلام ويجلسون ويمشون فى الأماكن والطرق التى سار فيها هو وصحابته رضوان الله عنهم يشعرون أنهم فكّوا عن نفوسهم أزماتهم وإحباطهم وهامشيتهم ويعودون والسعادة تملأ أعطافهم .

ولكن الأمر ذا الدلالة البالغة أن الإحصائيات تقطع بأن ٦٠ ٪ من الحجاج هم من الأميين أصحاب الدخول المحدودة . وقد تبدو للوهلة الأولى أنها مفارقة ، ولكن هؤلاء المضيَّق عليهم فى الرزق والمعدومى التعليم يذهبون إلى الأراضى المقدسة وبأيديهم شهادة ضمان مؤكدة بدخول الجنة حيث النعيم المقيم وما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر من اللذائذ والشهوات والأفراح ، وبالتالى فلا قيمة للمتاعب التى تحاصرهم فى حياتهم الدنيا الفانية ، إذ إنها مهما بلغت فإن دقيقة واحدة فى الفردوس تمحوها محوا[1] . وعلى حين يزداد عدد الحجاج والعُمّار طرديا مع تفاقم الأزمات وانتشار الأمية واشتداد النوازل

(١) وذلك على عكس الكاتب الذى لا يبالى إلا بالحياة الدنيا ولا يعير الآخرة أدنى اهتمام بل يسخر منها ومما وعد المتقون فيها من نعيم مقيم على حسب ما جاء فى القرآن الكريم وأحاديث النبى عليه السلام كما هو واضح من كلامه هنا .

فإن الاستنارة تسير عكسيا » . وهو بعد قليل يختم كلامه بما يتوقعه من إقبال « القاعدة الجماهيرية المريضة » (في المشمش طبعا وعندما يرى الشيخ خليل حلمة أذنه) على دعاة التنوير واستجابتهم لندائهم التنويرى « الكفيل وحده (أى دون حجّ أو صلاة أو زكاة أو صيام أو إيمان بالله أو بالبعث ... إلخ هذا الهراء فى نظره) بانتشالها من الوهدة التى تردّت فيها والتى جعلتها تبحث عن الخلاص فى الغيبيات والماورائيات »[1] . وتعقيبى على هذه السمادير هى : « غطّ نفسك جيّدا ياشيخ خليل ، فأمامك ليل طويل قبل أن يطلع صباح التنوير! » .

أما بالنسبة للصيام فقد كتب مؤلفنا فى الصفحة العاشرة من صحيفة « الأهالى » بتاريخ ٧ فبراير ١٩٩٦م مقالا بعنوان : « مجرد اجتهاد : الصيام فريضة المجتمع المُعَسْكَر » جاء فيه ما نصّه : « عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة تغيرت الصورة جذريا ولم يعد المسلمون مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس ، بل شرعوا فى إنشاء دولة هى حصرًا « دولة قريش » أخذت تطلق السرايا وتشن الغزوات للسيطرة على جزيرة العرب ، وذلك عبر أَسْلَمَة القبائل حيث جاءت الأوامر حاسمة قاطعة كحد السيف : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مَرْصَد » .... من أجل هذا

---

(١) ص ١١٨ ـ ١١٩ .

كان مجتمع يثرب بمثابة معسكر حرب تخرج منه كل شهر ونصف غزوةٌ ... أو سريّةٌ أو بَعْثٌ أو فرقة لأداء مهمة خاصة ... . والمجتمع الـمُعَسْكَر له موجباته الخاصة ... منها أن يتمرن أفراده المدنيون على تحمل آلام الجوع والعطش إذا ما أحاط بهم عدو ... ، فإن الصوم بحالته التى تراها اليوم كان جزءاً من خطة رسمها رسول الله ﷺ لتأهيل مجتمع المدينة عامة ، وجنود الغزوات والسرايا والبعوث وفرق المهمات الخاصة ، لما قد يستقبلهم من أهوال وبلايا » .

وواضحٌ مدى التَغَشْمُر الذى أتاه الكاتب فى هذه الدعوى العجيبة التى ليس لها من معنى سوى أنه لا يؤمن بفريضة الصيام ولا بالوحى الذى أنزلها ولا بالرسول الذى بلّغها . ولسنا نتدخل فى حرية الكاتب ، فنحن نؤمن بأن من حق كل إنسان أن يعتقد بما يشاء وأن يكفر بما يشاء ، لكننا نلفت نظر القارئ الكريم إلى الحقائق التالية التى تبرهن بأقوى برهان أن تلك الدعوى لا تستند إلا إلى المغالطة والتدليس والجهل :

أولا : الدولة التى أقيمت فى المدينة لم تكن « دولة قريش » ، وإنما كان القرشيون مجرد جزء منها ، وهو بالتأكيد جزء صغير بالمقارنة بأهل المدينة الأصليين من الأوس والخزرج واليهود وكذلك

المهاجرين المسلمين من غير قريش [1]. أما على الجانب الآخر فقد كان معسكر الأعداء (كله فى البداية ثم معظمه بعد ذلك وقيادته) من القرشيين ، وهو ما يهدم دعوى الكاتب هدما تاما . ولو كان الرسول عليه السلام يريدها دولة قرشية لما هاجر من مكة موطن قريش أو لما عاد إلى المدينة على الأقل بعد فتح مكة ودخول من لم يكن قد دخل من قريش قبل ذلك فى الإسلام . ولقد ظن الأنصار أنه بعد الفتح سيبقى فى مسقط رأسه ولن يبالى بهم وبمدينتهم بنفس المقدار الذى كان قبلا ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أكد لهم أنه معهم إلى آخر العمر وأنه يؤْثِرهم على الناس أجمعين قائلا لهم : « معاذ الله ! المحيا محياكم ، والممات مماتكم » . وفى مناسبة أخرى شبيهة نجده يقول : « لو سلك الناس شِعْبًا وسلكت الأنصار شِعْبًا لسلكْتُ شِعْب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ! » . كما كان عليه السلام حريصا على أن يؤكد أنه لا فضل للقرشى على غير القرشى ، لأن الناس فى ظل الإسلام سواسية كأسنان المشط . وكان ﷺ يعدّ العصبية القبلية من نعرات الجاهلية التى جاء الإسلام ليقضى

---

(١) كان عدد المهاجرين الذين اشتركوا فى غزوة بدر ٨٦ ، على حين كان عدد الأنصار ٢٣١ . وإذا كان لنا أن نستأنس بهذين الرقمين فمعنى ذلك أن المهاجرين كانوا ربع الأنصار تقريبا (الأنصار وحدهم دون اليهود بل ودون المنافقين أيضا) (انظر فى ذلك « سيرة ابن هشام » / تقديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد / مكتبة الكليات الأزهرية / ٢ / ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٥٠) .

عليها . ونحن جميعا نعرف أنه قد آخى بين المهاجرين والأنصار أول مقدمه المدينة جاعلا الرباط الذى يربط بينهم هو رباط الإسلام دون تمييز بين قرشى وأوسى وخزرجى ... إلخ . وينبغى ألا ننسى أن الاسم الذى عُرف به من انتقلوا من مسلمى مكة إلى المدينة هو «المهاجرون»، والاسم الذى عُرف به أهل المدينة من المسلمين هو « الأنصار » ، وهاتان التسميتان من شأنهما أن تطمسا التوجهات القبلية طمسا تاما . كذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستشير كبار القوم من هؤلاء وأولئك ، ويقرب إليه هؤلاء وأولئك ، ويحب هؤلاء وأولئك ، ولا يفرق بينهم فى شىء ، أى شىء . ثم أين الآيات أو الأحاديث التى يُفْهَم منها، ولو على سبيل التوهم البعيد ، أنه عليه السلام كان يهدف إلى إقامة دولة قرشية ؟ لقد كان المهاجر القرشى يقاتل ، مع الأنصارى جنبا إلى جنب ، أهله وعشيرته من قريش ، وعندما دخلت قريش فى الإسلام عام الفتح لم ينقلب الرسول والمهاجرون القرشيون على أهل المدينة ولا صنع ذلك أحد من الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول، بل لم يفكروا مجرد تفكير أن يعودوا إلى مكة من حيث جاءوا أو حتى يسمُّوا دولتهم بـ « الدولة القرشية » أو أنْفُسَهم بـ « الحكام أو الخلفاء القرشيين » .

ثانيا : أتحدى أى إنسان أن يأتى بنص من القرآن أو من الأحاديث يمكن أن يُفْهَم منه ، ولو بالتأويل المتمحّل ، أن الصوم قد

شُرع من أجل تهيئة المسلمين عسكريا للغزو . إن هناك مثلا ربطا بين الصوم وكسر الشهوة الجنسية فى قول الرسول عليه السلام : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وِجَاء » ،كما أن هناك ربطا فى عدد من الآيات القرآنية وأحاديث النبى ﷺ بين الصوم وبعض الكفارات كما فى حالة المـُحْصَرِ المريض الذى لا يمكنه حلق رأسه ، والحِنْثِ فى اليمين ، والظِّهارِ فى حالة الرغبة فى استئناف الحياة الزوجية ، لكن ليس هناك أى نص فى القرآن الكريم أو الحديث الشريف يربط بين مشروعية الصيام والاستعداد للحرب على أى وضع ، بل العكس هو الصحيح ، فقد أمر رسول الله عليه السلام أتباعه فى سفرهم لفتح مكة أن يفطروا قائلا لهم : « تَقَوَّوْا لعدوكم » ، ثم أفطر معهم ، وفى غزوة أخرى قام المفطرون وحدهم بأعمال المعسكر لأن الصائمين كانوا مُجْهَدين بسبب الجوع والعطش والحرّ فقال الرسول ﷺ قولته ذات المغزى : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر » . وبالمناسبة فليس هذا التخفيف فى أثناء الغزو خاصا بالصيام وحده ، بل هو أمر ملحوظ فى الصلاة أيضا (صلاة الخوف) ، وكذلك فى الحج إذا أُحْصِر المسلم ، كما أن الحدود لا تقام على الجنود فى الغزوات .

ثالثا : لقد كان الرسول ﷺ يصوم عاشوراء فى الجاهلية ، ولم تكن هناك دولة عسكرية أو غير عسكرية أو حروب تحتاج إلى

الاستعداد لها بالصوم . وعندما هاجر إلى المدينة ورأى اليهود يصومونه قال إن المسلمين أحق بصيامه منهم .

رابعًا : أن الإذن بالقتال قد نزل بعد بيعة العَقَبة الثانية ، على حين لم يُشْرَع الصيام فى رمضان إلا بعد الهجرة بعامين . ولو كان الصيام قد فُرِض على المسلمين من أجل تهيئتهم عسكريا ، أفما كان ينبغى أن يقترن نزول الإذن بالقتال وفرض صوم رمضان معا ؟

خامسا : لو كان المقصود بالصيام تهيئة المسلمين للحروب التى كان عليهم أن يخوضوها فلِمَ فُرِض على النساء أيضا ، والغزو غير واجب عليهن ، ولم يَكُنّ يشاركن فيه ، اللهم إلا بسقى العطشى ومداواة الجرحى إن فَعَلْن ؟ ولم فُرِض على العميان والعرجان والشيوخ والمتفرغين للتفقه فى الدين الذين لم يكونوا يخرجون للغزو والقتال ؟

سادسا : لو كان الصيام قد شُرِع لتهيئة المسلمين لمقاتلة سائر العرب لانصب الاهتمام فيه على الامتناع عن الطعام والشراب والجماع . بيد أن الأحاديث النبوية تتضافر على إبراز أهمية الجانب الأخلاقى والنفسى فيه بحيث إن المسلم قد يصوم طوال رمضان عن شهوات البطن والفرج ثم لا يُحْسَب له هذا الصيام بسبب عدم امتناعه عن الغيبة والنميمة وقول الزور ... إلخ .

سابعاً : لو كان الصيام قد فُرِض لتهيئة المسلمين للحرب لما فُرِضت كفارة على من لا يستطيعون أداءه ، إذ إن الحكمة من وراء فرضه قد تعطلت بالنسبة للعاجزين عنه وانتهى الأمر . ثم إن هؤلاء على أية حال لا يصلحون للقتال ، فما معنى فرض الكفارة عليهم ؟ وعلى أية حال فَلِمَ لَمْ يوجَّه مال الكفارة إلى شراء السلاح للجيش والإنفاق على الجنود بدلا من إعطائه للمساكين ؟

ثامنا : لو كان المقصود بالصيام تهيئة المسلمين عسكريا لتُوُخِّيَتْ فيه المشقة بكل سبيل وَرُوعِيَ فيه مثلا أن يكون فى فصل الحر دائما وأن يؤخَّر الفطر ويعجَّل السحور وأن يصوم من أكل أو شرب ناسيا يوما آخر بدل اليوم الذى أفطره لكونه لم تتحق فيه الحكمة من تهيئة الفرد لتحمل مشاق الحروب والغزوات . أما قول المؤلف ذى النزعة العلمية جدا إن الرسول اختار رمضان شهراً للصوم لأنه شهر القيظ اللاهب بقصد تعويد أتباعه على تحمل المصاعب والشدائد فى كل الظروف والأحوال حتى يكونوا دائما على مستوى الحروب والمعارك التى كان عليهم أن يخوضوها باستمرار بغية إقامة الدولة القرشية التى كانت هى، ولا شيء غيرها ، الهمَّ الشاغل الأوحد فى حياته ، فهو قول يبعث على الضحك بل على القهقهة حتى الصباح . ذلك أن رمضان شهر قمرى ، أى يتغير ميعاده كل عام : فتارة يأتى فى أول الصيف أو فى أوسطه أو فى آخره ، وتارة فى الخريف ، وثالثة فى الشتاء ، وتارة رابعة

فى الربيع، كل ذلك على نفس الوضع المذكور توًا [١] . ولا يقول بغير هذا إلا من كان حاصلا على شهادة «أمريكانى» بحسن الإسلام.

تاسعا : لو كان الصيام قد فرض على المسلمين لتهيئتهم لحرب العرب لكانت النتيجة الطبيعية لدخول العرب جميعا فى الإسلام فى أواخر حياة الرسول عليه السلام هى إلغاء هذا الفرض ، إذ قد تمت الغاية منه ولم تعد ثمة حاجة إليه .

عاشرا : وعلى أية حال فقد نص القرآن والحديث على الحكمة من فرض الصوم : ففى القرآن : « يا أيها الذين آمنوا ، كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »[٢] ، وفى الحديث : « كلُّ عملِ ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به » . ومن الواضح أن الغاية من فرض الصيام هى مساعدة المسلم على إرضاء ربه والتخلق بفضيلة التقوى .

حادى عشر : يقول الكاتب إن المسلمين قد شرعوا فى إنشاء دولة (هى دولة قريش كما سلف القول) لإدخال سائر العرب

---

(١) بل لقد كانت بداية أول رمضان صامه الرسول والصحابة موافقة للثامن من مارس كما حسبها المستشرق الألمانى د. جاكوب (انظر د. على عبد الواحد وافى / غرائب النظم والتقاليد والعادات/ مكتبة نهضة مصر/ ١ / ٧٧) ، أى فى فصل الشتاء . وأين الشتاء من القيظ اللاهب ؟ فانظر كيف يأبى الله إلا أن يُخزى سيدنا الشيخ فى كل ما يقول !

(٢) البقرة / ١٨٣ .

قسراً فى الإسلام . وقد استشهد بالآية الكريمة التى تقول : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مَرْصَدٍ » (١) ، فما رأيه إذا قلنا له إن سورة « التوبة » ، التى منها هذه الآية ، لم تنزل إلا فى أواخر السنة التاسعة من الهجرة ، أى أن هناك مدى زمنيا بين فرضية الصوم ونزول الآية المذكورة التى امتلخها الكاتب من سياقها لغرض فى نفسه يبلغ سبعة أعوام ؟ إن هذه الآيات وما قبلها وما بعدها لا تتحدث عن إدخال أحد فى الإسلام قسرا، وإنما تتحدث عن المشركين الذين كان بينهم وبين المسلمين عهود فخاسوا بها وقتلوا بعض من كانوا فى حِلْف الرسول عليه السلام وأصحابه . إن مثل هذا الغدر جزاؤه القتل ، ومع ذلك فإن القرآن قد أعطاهم فرصة عظيمة حين قال لهم إن حياتهم مَصُونة مأمونة إن هم دخلوا الإسلام . فأين الدولة التى تعامل أعداءها الغدارين بهذه الرحمة وهذا التسامح ؟ أما المشركون الذين لم يخونوا أو يغدروا فهؤلاء لم يكن أحد ليَمَسَّهم بسوء . فأين الإجبار على الدخول فى الإسلام هنا ؟ لقد شُرِع القتال كما قلنا بعد بيعة العقبة الثانية ، ولم يرد فيه أى شىء يدل على أن الهدف منه هو إكراه أحد على اعتناق الدين الجديد ، بل كانت الحكمة من الإذن به واضحة فى الآيات التى نزلت بذلك غاية الوضوح ، ألا وهى ردّ الظلم الذى طالما أوقعه المشركون بالرسول وصحابته واحتمله هؤلاء سنين عددا ، وهو ظلم بَشِع شَمِل مصادرة

---

(١) التوبة / ٥ .

البيوت والأموال والقتل بُغْيَةَ فَتْنِ المسلمين عن دينهم وإرجاعهم كفارا. قال تعالى : « أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربُّنا الله ... » [1] . فهل يرى القارئ الكريم في هذا النص شيئا مما يدعيه الكاتب ؟ لقد كان على المسلمين أن يخوضوا ما خاضوا من حروب دفاعا عن كيانهم ووجودهم ودينهم وكرامتهم ودولتهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، وكان الشرك هو البادئ بالعدوان . وحتى اليهود ، الذين احترم الإسلام وجودهم وعقيدتهم ، لم يحفظوا للرسول وأتباعه هذه اليد وبدأوهم بالمؤامرات والعدوان ووضعوا أيديهم في أيدى المشركين لاستئصال شأفة الإسلام .

ثاني عشر : ولقد شُرِع الصوم فى كل الأديان تقريبا [2] ، فلماذا لا يعزى تشريعه إلى أسوإ البواعث إلا إذا كان الكلام عن الصوم الإسلامى ؟ أىُّ حقد ذلك يا إلهى ؟ ثم هل نحن بحاجة إلى أن نقول إن الإسلام لم يأت للعرب وحدهم ، وإنما للعالمين جميعا كما تبين الآيات القرآنية منذ العهد المكى وكذلك الأحاديث المشرفة ؟

من هذا كله يتجلى لكل ذى بصر أن جزْم الشيخ خليل فى

(١) الحج / ٣٩ ـ ٤٠ .
(٢) انظر مثلا د. على عبد الواحد وافى / غرائب النظم والتقاليد والعادات/ ٥٩/١ ، حيث يذكر أن هذه الشعيرة معروفة فى كل الأديان تقريبا : السماوى منها والأرضى ، عند البدائيين وغيرهم : الطوطميين والمجوس والوثنيين والصابئة والمانوية والبوذية والبرهمية وعبدة الكواكب والحيوان واليهود والنصارى والمسلمين ... إلخ .

مقالته تلك العصماء بأن « الصوم إنما شُرِع ليوائم مجتمع يثرب المعسكَر الذى كان شغله الشاغل إخضاع شبه الجزيرة العربية لسطوة دولته والذى كان مهدَّدا فى الوقت ذاته من داخله ومن جيرانه من العرب والدول والدويلات المحيطة به ، وأن هذه هى العلة الوحيدة فى تقنينه ومناط التكليف به » هو كلام فارغ من المضمون عارٍ عن الصحة جملة وتفصيلاً !

وهكذا يتكشف لنا أن الكاتب حين حصر الإسلام فى المساجد قائلا إن مجاله هو العقائد والعبادات لم يكن يقول ما فى قلبه بل كان يضع على وجهه قناعًا يوهم به قراءه المساكين أنه لا يعادى دين محمد، حتى إذا حان الحين ألقى بالقناع وظهر وجهه عندئذ على حقيقته سافرا . ذلك أنه لم يترك عبادة من العبادات إلا حاول تحطيمها والتبغيض فيها وإلصاق كل سوء بها والربط بينها وبين الغباء والجهل والتخلف والمصائب الاقتصادية والاجتماعية . أى أن العبادات فى زعمه أساس كل شؤم . ومن قَبْلُ قد رأيناه يجهد جهده فى هدم العقيدة هدمًا شاملا لا يبقى منها على شىء ولا يذر . إنه مغرم غراما عنيفًا بالهدم والتحطيم لكل ما هو إسلامى . أعوذ بالله من هذا حقداً !

ومع كل هذا الهجوم المسعور على الإسلام وعقائده وعباداته وشرائعه ومجتمعه ورجاله نراه يغضب أشد الغضب من بن بيلا الرئيسى الجزائرى الأسبق لرأىٍ أبداه فى الثورة البلشفية مُفَاده أن هذه

الثورة لم تستمر أكثر من أسبوع وأن تجربة لينين قد انحرفت بالشيوعية عن مسارها وأن الحزب الشيوعى السوفييتى قضى على جاذبية الثورة. ولا يجد خليل عبد الكريم ما يصف به هذه التصريحات التى أدلى بها بن بيلا إلا بأنها « مقولات قوالت » [١]، فى الوقت الذى يحاول هو فيه أن يثبت أن تشريعات الإسلام لم تطبّق إلا فى الفترة المبكرة جدا من تاريخ الإسلام ثم أُهْمِل العمل بها تماما [٢].

وهو يغتاظ أشد الغيظ من المستشرقين الذين دخلوا الإسلام مثل موريس بوكاى وروجيه جارودى وألفرد هوفمان واصماً إياهم بالفجاجة والضمور الفكرى والهزال والتهافت، على عكس ما يكيله من مديح لأمثال لويس ماسينيون وجِبْ وهنرى كوربان وبروكلمان وفيشر وما ينظم فى كتاباتهم وآرائهم المعادية للإسلام من عقود غَزَل ولهان[٣]. وهو برهان آخر يوضح طبيعة مشاعره نحو الإسلام. وقد أشرت فى فصل سابق إلى الهجوم الذى صَبَّه من قبل على رأس المستشرقين، والآن قد سقط ذلك القناع وبان الشيخ على ما هو عليه!

كذلك كان الشيخ قبلاً يعزو انتشار العنف بين الجماعات

---

(١) ص ٨٦.

(٢) ص ٨٧ وما بعدها.

(٣) انظر ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

الإسلامية المعاصرة إلى الظلم الهائل الذى وقع عليهم من قِبَل عبد الناصر والتعذيب الرهيب اللاإنسانى الذى تعرضوا له فى سجونه ، وقد كان هذا قناعا آخر حان أوان إسقاطه عندما أكد أن العنف الذى ترتكبه الجماعات الإسلامية السياسية مرجعه إلى تغير لغة الخطاب فى عهد النبى من دعوة بالحسنى فى مكة إلـى لجـوء للسيف فى المدينة قائلا : « إن اختلاف طور الدعوة إلى الله عن طور الدولة وتحوّل الإسلام من دين فى مكة إلى دولة فى يثرب / المدينة وانقلاب لهجة الخطاب فى النصوص وتباين الأفعال فى الحقبتين ، كل ذلك صوّرته السُّنَّة بشقّيْها القولى والعملى أدق تصوير وأبرزته بكيفية محسوسة وهيئة ملموسة حتى إننى لطول قراءاتى فى السنة وللسيرة أتعجب من الذين يسألون بسذاجة شديدة يحسُدون عليها : كيف ترتكب جماعات العنف فى تيار الإسلام السياسى كل هذه الأعمال ؟ »[1] . وخليل عبد الكريم إنما يجرى فى رِكاب المستشرقين والمبشرين الذين يتهمونه ﷺ بتغير أسلوبه فى الدعوة ما بين مكة والمدينة بل يفترون عليه كذبا أن ما كان يتميز به من صدق وأمانة فى النصف الأول من تاريخ الدعوة قد اطّرحه فى النصف الثانى منه . وقد عرضتُ هذه المسألة عرضا مستفيضا فى الفصل الأول من كتابى « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى » ورأيتُ بطلان تلك الفرية الأثيمة

(١) ص ١٠٣ .

التى التقفها منهم خليل عبد الكريم وأخذ يردّدها كالببغاوات» .

وأختم هذا الفصل بفضح لون آخر من جهل الشيخ العبقرى بالإسلام العظيم وكتابه الكريم ، إذ يقول فى ثقة أحسده عليها إن القرآن يسمّى الطبقة المسحوقة المحرومة التى تهبّ مستجيبة لدعوة الأنبياء بـ « الأراذل » ، وذلك فى مقابل طبقة « الملإ » [1]. وهذا جهل فاضح مُخْزٍ ، إذ لم يحدث أن وصفهم القرآن قط بـ « الأراذل » ، وإنما تلك تسمية الكفار المستكبرين لهم إهانةً واحتقارا أوردها الكتاب الكريم على سبيل التنديد بها وبقائليها ، فجاء كاتبنا العبقرى فادّعى أنها تسمية القرآن لهم . وبالمناسبة لم ترد هذه التسمية إلا على لسان الملإ الكافرين من قوم نوح[2] .

---

(١) ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) هود / ٢٧ . وقد وردت مرة أخرى فى سورة « الشعراء » (الآية ١١١) مجموعةً هذه المرة جمعا سالما (هكذا : « الأرذلين ») .

التطاول على الصحابة ورميهم بالشَّبَق والزنا

فى كتابه « مجتمع يثرب ـ العلاقة بين الرجل والمرأة فى العهدين المحمدى والخليفى » يستفرغ خليل عبد الكريم كل وسعه فى محاولة تلطيخ سمعة الصحابة رجالاً ونساء باتهامهم بالشبق الجنسى وبالزنا ، الذى يتوقّحُ فيلْمِز الرسولَ ﷺ من طَرْفٍ خفىٍّ بأنه كان يسهّل أمره ويخترع الوحى من أجل ذلك(١) .

وهو يبدأ كلامه فى ذلك الكتاب بالتمحك بعلم الاجتماع وتسريب بعض الأفكار الماركسية الفَطيرة فى خلال ذلك ، تلك الأفكار التى ثبت فشلها وانتهى أمرها إلى صفائح قمامة الفكر البشرى ،

---

(١) وبالمناسبة فإنه يُروَى عن أحد الشعراء الصعاليك ، ويُدْعَى الأقرع بن حاجز الدبلومى الفرانكوفيلى ، أنه (فى مجالس الشُّرْب التى تضمه هو وأمثاله من السفهاء المنحطين من مدمنى « منقوع البراطيش ») يحلو له التظرف بالثناء على سعة أفق محمد لعدم تطليقه عائشة رغم ما فعلته فى حادثة الإفك ! ومن الواضح أن الأقرع بن حاجز لا يقول هذا وهو فى وعيه ، وإلا لعرف أن هناك فرقا هائلا كبُعد السماء عن الأرض بين الرسول وزوجاته الطاهِراتِ النبيلات وبينه هو وأمثاله ونسوتهن ! وهذا الأقرع بن حاجز لا يصدق فيه إلا قول أنيس منصور عن سلمان رشدى إنه يستحق الضرب بالجزم من كل المقاييس ! وقد اخترت له أنيس منصور بالذات لأنه ، فيما علمت ، قد سبق أن صك الأقرع بن حاجز فى عينيه وأنفه وفمه وأوقفه عند حده حين بدا له أن يتطاول عليه ، فانسحب من الميدان كالكلب الأجرب الذليل منكَّس الرأس واضعًا ذيله بين رجليه !

وبخاصة بعد انهيار المأسوف على طفولتها « الكتلة الشيوعية » وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى ، الذى فكّك الله أوصاله وعظامه . وكان أحرى بيساريينا لو كانوا يعقلون أن يفيقوا من غاشية الحقد الأسود الذى يرين على قلوبهم تجاه الإسلام ونبيه ويعرفوا أن ما يرددونه من أفكار كارل ماركس وتلامذته إنما هى طفوليات عفا عليها الزمن ، وأن محمدا إنما هو جدير بالاحترام والتبجيل إن لم يكن لنبوّته فلنبله وعظمته وسموّ أخلاقه وإنسانيته . ولكن من الواضح أن الضغن الذى فى قلوب الرفاق ضِغْنٌ سافل دنىء غير قابل للشفاء ، وأنهم ليسوا أهلا لتقدير العظمة والنبل قدرهما . وعلم الاجتماع العبكريمى يقول إن « تغيير أحوال أى مجتمع لا يتم بتأثير النصوص مهما كان شأوها من البلاغة والإعجاز ، ولكن بتغيير ظروفه المادية » ، ثم تأتى النصوص بعد ذلك إن أتت ، على أن يقرّ فى الذهن أنها لن تكون لها بعد ذلك كله نتيجة ملموسة[1] . ويمضى الكاتب أو علم اجتماعه (سيّان) فيؤكد أن المجتمعات البدائية (وهو يقصد هنا العرب ، وبالذات مجتمع

---

(١) خليل عبد الكريم / مجتمع يثرب ـ العلاقة بين الرجل والمرأة فى العهد المحمدى والخليفى / سينا للنشر (القاهرة) والانتشار العربى (بيروت) / ١٩٩٧م / ٧ . ولا أظن إلا أن مراد الكاتب هنا واضح تمام الوضوح ، فهو يريد أن يقول إن القرآن والأحاديث لم يستطيعا أن يغيرا شيئا فى المجتمع العربى لأن الظروف المادية لم تتغير فى عصر الرسول عنها فى العصر الجاهلى .

المدينة المنوّرة ⁽¹⁾) هى مجتمعات لا تعرف الأنشطة الرياضية أو الفنية أو الأدبية ، ومن ثم فليس أمام أهلها من سبيل لشغل أوقات فراغهم وتصريف طاقاتهم سوى الجنس ، وأن المرأة فى تلك المجتمعات قد استطابت مع طول العهد سيادة الرجل عليها وامتطاءه لها[2] ، فهى تتحرق تحرّقا فظيعا إلى ممارسة الجنس غير مبالية بحلال أو حرام أو سرٍّ أو علَن ، وبخاصة إذا أضفنا عامـل الطقس الحار الذى يزيد شهوات الجسد اشتعالا[3] .

وبعد عدة فقرات تفيض بالحذلقة الأسلوبية السمجة التى تبعث على الغثيان يأخذ الكاتب فى ذكر بعض الوقائع التى تدل فى نظره السليم جدا على شيوع الانحلال الجنسى فى مجتمع المدينة على عهد رسول الله والخلفاء الراشدين ، وهو المجتمع الذى تتطلع إليه أنظار المسلمين مع ذلك بوصفه المجتمع النموذجى الجدير بالاحتذاء [4] .

---

(١) التى يصر على تسميتها دائما بـ « يثرب » محادّةً للرسول عليه السلام، إذ كان صلوات الله عليه وسلم قد أمر المسلمين بالكف عن تسميتها بهذا الاسم واستخدام اسم « المدينة » بدلا منه .

(٢) ليعذرنى القارئ إذا استخدمت شيئًا (شيئا بسيطا جدا) من ألفاظ الكاتب كى أعطيه فكرة عن الرجل الذى أحدّثه عنه وعن نزعاته الفكرية واتجاهاته النفسية .

(٣) المرجع السابق / ٨ ـ ٩ .

(٤) السابق / ١١ ـ ١٢ .

ومما يدل على الهوس الجنسى عند أفراد ذلك المجتمع قبل الإسلام وبعده فى نظر الكاتب كثرة الألفاظ التى تدل على ممارسة الجنس كـ « المباضعة والملامسة والمضاجعة والمقارفة والمفاخذة والمباطنة والرَّفَث واللمس والركوب والاعتلاء والامتطاء والبصبصة » ... إلخ.

ولأن محمدا[١] كان يعرف طبيعة المجتمع العربى فى مكة والمدينة وغيرهما ويدرك أنه مجتمع ملتهب بالشهوة الجنسية فقد أخذ يشجع أفراده على الزواج المبكر ويسهل عليهم تكاليفه ، كما قرأ عليهم قرآنا[٢] يغلظ عقوبة الزنا بجعلها الرَّجْم للمُحْصَن[٣] والجلد لغير المحصن مثلما هو الحال فى التوارة ، وأصدر أحاديث[٤] تبشّعه ،

---

(١) أصبح الكاتب فى كتابه هذا يطلق على الرسول دائماً اسم « محمد » مجردا من الصلاة عليه بعد أن كان فى كتابه عن دولة قريش يتبعه بالصلاة والتسليم . كذلك كان يمدح عمر فى ذلك الكتاب بما هو أهله ويثنى على عدله ، أما هنا فإنه يسفر عن وجهه الحقيقى ويفترى عليه دون وازع . ولست أظن أن ذلك يدل على تغير فى فكره ونظرته ، بل هى سياسة الخطوة خطوة .

(٢) هذا هو التعبير الذى يلجأ إليه الكاتب تهربا من القول بنزول الوحى عليه. وهو يريد به الإيحاء بأن الرسول عليه السلام هو الذى كان يأتى بالقرآن من عنده ويقرؤه على المسلمين .

(٣) يقصد ما رُوِىَ عن عمر من أنه كانت هناك آية فى القرآن تقول برجم الشيخ والشيخة إذا زنيا ثم نسخت وبقى حكمها رغم ذلك .

(٤) هذه عبارة الكاتب (ص ١٩) .

وبخاصة مع المُغيبات ، أى النسوة اللاتى كان أزواجهن يغيبون فى الغزو أو التجسس أو الاشتراك فى التصفيات الجسدية لبعض الأعداء ... إلخ ، إذ كانت هؤلاء الزوجات يتشوقن إلى الوطء والمفاخذة (١) ، وكان هناك شبان ورجال يبقون فى المدينة لا يشاركون فى الغزو وليس عندهم ما يشغل فراغهم ، فكان هؤلاء النسوة يجدن عندهم تلبية حاجتهن . ولأن محمدا كان حريصا على ألا ينصرف أزواجهن عن الغزو حتى لا تفسد خطته التى كان قد رسمها بإحكام لإقامة الدولة القرشية والسيطرة على شبه الجزيرة العربية وإخضاعها لزعامته ، فقد رأيناه يشدد فى هذه المسألة حتى يطمئن جنوده إلى سلامة بيوتهم وإناثهم أثناء غيابهم (٢) .

كذلك يدعى الكاتب أن الاهتمام بدراسة تعاليم الإسلام كان محصورا فى أضيق نطاق متصور ، إذ كان عدد الذين يقومون بذلك ضئيلا للغاية ، كما أن نشاطهم لم يتعدَّ حدود المسجد . وقد ترتب على هذا أن كثرت حوادث الاغتصاب والزنا والدخول على المُغيبات

---

(١) مرة أخرى هذه لغة الكاتب الفاضل (ص ٢٠) .

(٢) السابق / ١٧ - ٢٠ . وهو بعد قليل سوف يدعى أن الرسول كان يغطى على هؤلاء المغيبات وما يفعله مع هؤلاء الشبان والرجال أثناء غياب أزواجهن . والمشاكل كلها عند محمد (كما ترى) ليست مسألة عفة وطهر بل مسألة طموح شخصى إلى إخضاع الجزيرة العربية . هذه إذن ليست نبوة بل أطماعا سياسية وشهوة إلى السلطة !

والجماع فى نهار رمضان وفى الحجّ وفى أثناء حيض الزوجة واستحاضتها ، كما كثرت التصرفات التى تفتقر إلى الحد الأدنى من الشعور الإنسانى السوىّ (فى رأى كاتبنا المهذّب الرهيف الحسّ) مثل مجامعة رجل لزوجته فى ليلة وفاة زوجته الأخرى ، وفضح زوجة لزوجها العِنّين على رؤوس الأشهاد ، واعتراف أخرى بأنها رأت زوجها فى الحلم يركبها ويدعكها[١] ، ومراودة رجل لبغىٍّ سابقة تابت وأنابت ، وغير ذلك[٢] . ثم يدخل الكاتب بعد ذلك فى سرد هذه الحوادث والتصرفات مستخرجًا منها الدليل القاطع فى رأيه على أن المجتمع الإسلامى فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين كان مجتمعًا إباحيًا كلّ رجاله ونسائه (كلهم وكلهن بلا استثناء) لا يستطيعون التماسك أمام الشَّبَق الجنسى القاهر .

ونشرع فى مناقشة سخافات الكاتب وتطاولاته فنجده يصف مجتمع المدينة فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين بأنه مجتمع بدائى وأن العلاقة بين الجنسين فيه لم تكن علاقة بين رجل وامرأة بل بين فَحْلٍ وموطوءة[٣] . ومعنى ذلك أن مسلمى مكة والمدينة فى ذلك

---

(١) هذه ألفاظ الكاتب الذى يكاد التسنيم المليل أن يجرح ذوقه الشديد الرهافة ، ولا وجود لشىء منها فى النصوص التى يوردها .

(٢) ص ٢١ ـ ٢٧ .

(٣) تجد ذلك فى ص ٧ ـ ١٣ (وهى صفحات المقدمة) ثم فى مواضع متعددة من الكتاب .

العصر كانوا أدنأ من الحيوانات ، إذ لم يكونوا يعرفون الحبّ ولا كان أى من الجنسين ينظر إلى الآخر إلا على أنه وسيلة لإطفاء حرقات الغريزة الجسدية ليس غير . وهذا الكلام بطبيعة الحال (مادام الكاتب المهذب جدا قد عمّم كلامه ولم يستثن أحدا من أفراد ذلك المجتمع) ينسحب على رسول الله وكل الصحابة الكرام بما فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبو عبيدة وسعد والزبير وزوجاتهم . ولا شك أن هذه الصورة التى يرسمها للمدينة وأهلها صورة غريبة مشوهة تدعو إلى العجب ! إن مثل تلك الصورة لا وجود لها إلا فى بعض الأذهان المخبولة الموبوءة . ولست أظن أن تمحُّكه بعلم الاجتماع يجوز على أحد من العقلاء ، فالحبّ مطلب إنسانى عام لا يفترق به مجتمع عن مجتمع ، إذ لا دخل للبدائية ولا للتحضر فيه ، بل إنه لَيُشَاهَد حتى فى دنيا الحيوانات والطيور . ولست مستطيعا أبدا أن أنسى كيف رفض أحد عصفورَى الكناريا اللذين كنت اشتريتهما لطفلىّ فى الثمانينات أن يأكل ، وهو بداخل القفص وأمامه الطعام والشراب ، بعدما نجحت رفيقته فى الإفلات من بين السلوك إلى فضاء الردهة التى كنا قد وضعنا القفص فيها (عند مغادرتنا القاهرة لعدة أيام) حيث ماتت بعد فترة ، فحزن عليها وظل مضربا عن الطعام حتى بعد أن عُدْنا وأخرجناه وظل كذلك إلى أن هزل وخارت قواه ففارق الحياة على أثرها مما كان له أثره الشديد الإيلام على نفوسنا أنا وزوجتى والطفلين ، اللذين بكيا بكاء شديدا عندما استوعبا ما وقع . فكيف يفترى هذا الكاتب الحقود

على المسلمين والمسلمات الأوائل خلوّ نفوسهم من الحب والمودة والتعاطف ؟ وماذا نفعل فى قصائد النسيب الكثيرة فى الجاهلية والإسلام الممتلئة باللوعة والبكاء من أجل الحبيبة التى حرم منها حبيبها الشاعر؟ وماذا نفعل فى قصص الحب الملتاع وعشاقها المعاميد فى ذينك العصرين الذين سارت بذكرهم الركبان ؟

إن خيال الكاتب الجانح يسوّل له أن المسلمين الأوائل لم يكن لهم ما يشغلهم إلا الجنس ، وكأنهم كانوا يعيشون فى جنة وفيرة الثمار جارية الأنهار وارفة الظلال ، فلا حاجة بهم من ثم إلى عمل أو كدّ أو كفاح فى سبيل لقمة العيش ، أو كأنهم لم يكن يحيط بهم الأعداء المتربصون من كل جانب فلا غزوات ولا حروب ، أو كأنهم لم يكن عليهم أن يحفظوا القرآن ويدرسوا الإسلام ويصلّوا ويصوموا ويحجّوا ! أين مثل ذلك المجتمع يا ترى إلا فى الخيالات المريضة ؟ إن الكاتب يجترئ على حقائق الحياة والتاريخ والاجتماع فيزعم دون أن يطرف له جفن أن المجتمعات البدائية (يقصد مجتمع المدينة كما أوضحنا) ليس لها معرفة من أى لون بالأنشطة الرياضية والفنية والأدبية مع أن العرب كانوا يعرفون ، حتى فى جاهليتهم ، سباق الخيل والرمى ورحلات الصيد والغزوات وحكاية القصص وإلقاء الخطب والمنافرات والحروب وقرض الشعر (الذى كانوا يعتقدون أنهم يتفوقون فيه بل يتميزون به على سائر الأمم) وغير ذلك .

وحتى لو قلنا إن المجتمع المدنى كان يخلو من كل نشاط أدبى

أو فنى أو رياضى فيبقى من المضحك ما زعمه المؤلف من أن ذلك ، مع حرارة الجوّ ، يؤدى إلى كثرة ممارسة الجنس التى تؤدى بدورها إلى كثرة الإنجاب[١] . ذلك أن حرارة الجوّ مما يزهّد الناس فى ممارسة الجنس لا العكس ، إذ الإنسان حينئذ « لا يطيق هدومه » كما يقال فى اللهجة الدارجة ، فكيف يكون الاحتكاك بجسد بشرى درجة حرارته سبع وثلاثون من الأشياء التى تزداد بهجة فى مثل تلك الظروف ؟[٢] ثم إن القول بأن كثرة ممارسة الجنس تؤدى إلى كثرة الأولاد هو كلام عامىّ وجاهل ، إذ هو يفترض أن المرأة تحمل وتنجب عند كل اتصال جنسى . فهل من عاقل يقول هذا ؟ إن المرأة إذا حملت فإنها لا تحمل مرة أخرى إلا بعد أن تلد وتجتاز فترة النّفاس ، وذلك بعد نحو من عشرة شهور فى معتاد الأمر ، وعملية الحمل ، كما هو معروف ، لا تحتاج أكثر من اتصال جنسى واحد ما دامت الشروط اللازمة متوفرة . لكن الكاتب يردّد كلام العوامّ رغم ضجيجه الصاخب حول تمسكه بالنظرة العلمية الصارمة . فأين العلم بالله هنا ؟ ثم إن انخفاض معدلات المواليد فى البلاد الباردة وارتفاعها فى البلاد

---

(١) ص ٨ ـ ٩ .

(٢) وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإنا نحيل القارئ الكريم إلى الكاريكاتير المنشور بـ « الأهرام » السادس من أغسطس ١٩٩٨م (ص١٥) بعنوان « الحر الشديد » ، وفيه نرى زوجة جالسة فى سريرها وقد أقبل عليها زوجها يغازلها فتصدّه فى ضيق قائلة : « حرارة حبّ إيه فى الجو ده ؟ هى ناقصاك ؟ » . هذا ، ولا أظن أن عاقلاً يمكن أن يتهم الأستاذ ماهر داود (صاحب الكاريكاتير) بأنه قد أراد الدفاع عن سكان المدينة المنوّرة !

الحارة حاليًا لا علاقة له بالطقس كما يحاول أن يوهم خليل عبد الكريم قراءه ، بل يرجع إلى ارتفاع مستوى الثقافة والمعيشة الآن فى البلاد الغربية بوجه عام ، وهو ما يستتبع (حسبما لاحظت الدراسات الاجتماعية) العزوف عن كثرة الإنجاب باستخدام وسائل منع الحمل التى لم يكن لها وجود قبل العصر الحديث[١] والتى يستخدمها أيضًا أصحاب المستوى المادى والثقافى المرتفع فى كثير من البلاد المتخلفة التى يتصادف وقوعها فى عصرنا الحاضر ضمن نطاق الطقس الحارّ . والدليل على ذلك أن معدلات المواليد فى الأحياء الراقية فى مدننا المصرية مثلا أقل كثيرا من مثيلاتها فى الأحياء الشعبية وفى بيئات الفلاحين . أم هناك من يمارى فى هذا ؟

كذلك لا يسع الإنسانَ إلا أن يَفْغَر فاه دهشًا من الدعوى العريضة الأخرى التى لا سند لها من الواقع والتى يزعم فيها الكاتب ذو النزعة العلمية الصارمة غاية الصرامة أن المجتمعات المتقدمة لا تُقْبِل على الجنس بهذه اللهفة التى تُسيطر على المجتمع البدائى (كمجتمع المدينة) . ذلك أن القاصى والدانى يعرفان أن الغرب الذى يُضرب به المثل الآن فى التقدم الحضارى يعانى من انفجار الغريزة الجنسية بكل ألوانها المختلفة من الزنا واللواط والاغتصاب والسحاق وتبادل الزوجات ، واستخدام الحيوانات والعرائس المطّاطية وتماثيل عضو الذكورة والكتب والقصص والمجلات وعروض الأفلام والصور والإعلانات ، وعلب الليل والإستربتيز وبيوت الدعارة التى لا تكتفى بالغرفات البعيدة عن الأنظار

(١) أما قبل ذلك فكانت الأسرة الغربية كبيرة العدد بسبب كثرة الإنجاب .

بل تعرض العاهرات خلف الواجهات الزجاجية فى الشوارع العامة ، وإعلان المومسات عن أنفسهن فى بطاقات يلصقنها فى المحلات أو ينشرنها فى المطبوعات . ودعك من البوى فرند والجرل فرند، وتبادل القبلات والأحضان والتجميش على محطات الحافلة وفى الحدائق العامة والأسواق ، وأندية العراة ، وبدعة الميلى جيب والمينى مينى التى كانت منتشرة قبل سنوات قلائل ، والحرص على كشف الصدور والأثداء والظهور والآباط والأفخاذ والسيقان فى خطوط الموضة الخاصة بالمرأة ، وعمليات شد الوجه ، وحبوب الفياجرا ، وعصابات خطف الأولاد والفتيات للفسوق بهم وربما قتلهم بعد ذلك ، وتقنين الشذوذ ومباركته والعمل على نشره فى بلاد العالم من خلال المؤتمرات الدولية وغيرها ! ودعنا كذلك من فضائح ديانا وتشارلز ومونيكا وكلنتون وهيلارى ، وهى مجرد مثال ، وإلا فالقائمة طويلة ، وكلها فضائح تزكم الأنوف! صح النوم يا شيخ خليل ، فقد ارتفعت الشمس وأصبح الوقت ضحى ! ثم هل يا ترى قد غاب عنك ما تعج به قصص رفاقك التقدميين ورواياتهم من مناظر ووقائع وتفاصيل جنسية مقززة ؟ إنهم ، بحمد الله ، يعيشون فى مجتمع متحضر لا مجتمع بدائى كمجتمع المدينة ، ومع ذلك فهم مغرمون بإثارة الشهوات فى أعمالهم ووصف العورات والشذوذات ! (1) يا رجل ، عيب ! لقد تجاوزت

---

(1) فى رواية « مليم الأكبر » مثلا تدعو « جماعة القلعة » اليسارية إلى معاشرة الأخوات والأمهات ، فضلاً عن التصرفات الجنسية المنحرفة والشاذة التى يأتيها أبطالها ! وثمة رواية أخرى لا يجد مؤلفها مكانا لعبث الصبى بمكان حساس فى جسم الصبية فى لعبة « العريس والعروسة » إلا المصلّى الموجود على شط الترعة! ورواية ثالثة يحرص فيها صاحبها على التلبث =

السبعين ، ولا يليق بمن في مثل سنك أن يتهجم بكل هذا الكمّ الهائل من الحقد الضارى على المجتمع الذى كان يشرفه بمجرد العيش فيه رسول الله ﷺ وتحيط به هذه الكوكبة النيرة من صحابته الأطهار الأبرار رجالا ونساء . إننا لا ننكر أنه ما من مجتمع يخلو من الانحرافات والمعاصى ، بيد أن ثمة فرقا بين مجتمع وغيره ، والمجتمع الإسلامى فى عهد النبى وخلفائه الأربعة هو أشرف وأفضل وأطهر من أى مجتمع آخر رغم كل ما ذكرته عنه وجهدت جهدك فى تكبيره وتضخيمه ، على حين أنه فى الواقع لا يعدو أن يكون حالات فردية قليلة جدًا لا تمثل نسبة تذكر بالقياس إلى عدد الناس فى ذلك الوقت.

لقد ذكرت أنت نفسك أن عدد الصحابة الذين استمعوا من رسول الله ﷺ ورووا عنه مائة ألف وأربعة عشر ألفا [1] ، فكم يا ترى

= عند عملية اللواط التى يمارسها « فحل » بشرىّ يعلّق خصيصا لاعتلاء قصّاده من الوزراء وكبار الصحفيين وأمثالهم وما يصاحبها من أصوات التأوّه الصادرة من المركوبين ! ثم قصة رابعة « يبدع » فيها كاتبها أيما إبداع فى تسجيل تفصيلات الاستمناء الذى يقوم به البطل ابتداء من الصابونة وانتهاء بوصف رائحة المنىّ التى تشبه رائحة البيض! وخاصة ليس فيها شىء يذكر غير اللقاءات التى تتم بين بطليها، وهما طالب وطالبة لا يكادان يفعلان شيئا إلا أن تخلع البنت للولد ملابسها ليعبث بجسدها على هواه ! وثمة كاتب شيخ عجوز لم يستطع أن يتذكر من طفولته وصباه تقريبا إلا وقائع الشذوذ الجنسي التى كان له نوع اتصال ببعضها . وقد نشر ذلك فى مجلة أسبوعية عدت ما كتبه فتحا فى كتابة السيرة الذاتية ! وهناك ذلك الشيوعى الذى أصدر فى الفترة الأخيرة كتابا يحكى فيه ذكرياته وتجاربه فى السجن ، ومنها اتصالات اللواط بينه وبين أحد أصدقائه من أمثاله من الشيوعيين ، تلك الاتصالات التى يحاول عبثا أن يضفى عليها غلالة من الشاعرية والرومانسية والتى يشنّ على أمثاله من الرفاق الحمر هجوما عنيفا لتظاهرهم فى مجالسهم العامة بالنفور منها رغم ممارستهم الدائمة لها وعملهم على تعميمها بين الجماهير مثلما يفعل هو تماما ! ... و ... و ... والقائمة طويلة ، وهذه عينة ليس إلا .

(1) مجتمع يثرب / ٢٢ .

يبلغ عددهم إذا أضفنا إلى هؤلاء من لم يستمع منه أو يرو عنه ؟ ومع هذا فإن الأمثلة التى أخذت تتقممها من هنا وههنا بتلذذ غريب ومريب هى أمثلة معدودة ، وبعضها تكرره بطريقة توحى أنها أمثلة أخرى ، وكثير منها لا عيب فيه إلا فى العقول والنفوس غير السوية التى لا تجد فى الورد عيبا فتقول له : « يا أحمر الخدين » ! ولا بد هنا أن نوضح للقارئ أن الأمثلة التى ساقها الشيخ خليل ليست مقصورة على مجتمع المدينة بل مأخوذة منه ومن أرجاء الجزيرة الأخرى ، وهذا كله من شأنه أن يهبط بنسبة الذنوب الجنسية فى المجتمع العربى آنذاك (لا مجتمع المدينة فحسب) إلى درجة الصفر تقريبا حتى مع عمل حساب الحالات التى يفترض وقوعها لكن لم تسجلها كتب التاريخ والسيرة والتفسير والحديث أو التى سجلتها لكن الشيخ خليل لم يصل إليها .

أما ألفاظ الجنس التى تقول ، أيها الشيخ المحترم ، إنها كانت كثيرة عندهم وتدل فى عقلك على أنهم محمومون بحمى الجنس والتى تفرط فى استخدامها بطول الكتاب دونما أدنى داع ، وهو ما يحتاج إلى دراسة نفسية لمعرفة دلالته ، فإنها فى الغالب لا تكاد تغادر بطون المعاجم ، والمعاجم (كما هو معروف) خزائن يحفظ فيها كل شىء سواء كان الناس يستعملونه على نطاق واسع أو لا يتلفظونه إلا كل حين وحين أو لم ينطقوا به إلا مرة واحدة . وليس من المعقول أن كل واحد أو واحدة من أهل المدينة كان يظل يتطوح طوال نهاره وليله

مرددا كالمجاذيب : « فاخذَ يفاخذُ ، وَطِئَ يطأ ، عافَس يُعافِس ، دَعَكَ يَدْعَكُ ، اعتلى يَعْتَلِي ، رَكِبَ يركب ... » كما تحاول أن تلقى فى رُوع القراء المساكين إلا إذا تصورناهم جميعا وقد ركبهم عفريت ! إنك أنت الذى تفعل ذلك فى كتابك ، بل إنك لَتُحَرِّف الألفاظ العادية فى الروايات والأحاديث فتستبدل بها كلمات مثل « الامتطاء والمباطنة والوثوب » مما يحتاج كما قلت إلى دراسة نفسية .

وعلى أية حال فهذه الألفاظ الكثيرة إنما تدل على غرام العرب آنذاك بالدقة المتناهية ، إذ كانوا يعبرون عن كل وضع وعن كل حالة بكلمة خاصة ، علاوة على أن كثيرا منها هو من باب المجاز والكناية والتلميح الراقى مما لا يفهمه الجهلاء الهجّامون على التعرض لما لا يحسنون . وهذا الأمر غير خاص بألفاظ الجنس بل يعمّ كل شىء كانوا يفعلونه أو يرونّه أو يشمونه أو يلمسونه : فللسيف عندهم عشرات الأسماء فيما يقولون ،وقل مثل ذلك أو قريبا منه فى الخمر والمطر والسحاب والألوان والأصوات ... إلخ ، وهذا كله من غنى اللغة العربية وعبقريتها، أما الذين لا يعرفون هذه اللغة رغم تحذلقهم بتصيد الألفاظ المعجمية ثم تطاولهم السمج عقب ذلك بشرحها للقراء فهؤلاء يقولون : « عدس » ! وعلى أية حال إذا كان كاتبنا الألمعىُّ فريدُ عصره يرى فى كثرة الألفاظ الدالة على الجماع دليلاً على ما يقول ، فماذا هو قائل فى احتواء لغتنا على عشرات الأسماء الدالة

على الحبّ ودرجاته وألوانه المتباينة كالمحبّة والهوى والشغف والحنين والفتون والتعلق والميل والصبوة والجوى والدّنف والهيام والولّه والولَع والخلّة والشوق والكلَف والخلابة والصبابة والتتيُّم والتدله والغرام والوجد والعشق والودّ ... وهلم جرًا ؟ أليس ذلك برهانا على أن العرب والمسلمين القدماء كانوا يعانون الحبّ ويذوقون مباهجه ولواعجه على عكس ما يدّعى سيدنا الشيخ عليهم ؟

وقد رأينا الكاتب ينكر حقائق التاريخ نكرانا وقحًا لم يأته أحد من قبل فيدعى بكل برود أن دعوة الإسلام ، رغم كل مزاعم الإعجاز للنصوص التى أتت بها كما يقول ، لم تستطع أن تصنع شيئا أمام تيار الجنس والزنا الكاسح فى مجتمع المدينة (والمجتمع العربى بوجه عام) ، لأن النصوص مهما قيل فى إعجازها لا تؤتى ثمرتها إلا إذا تغيرت عوامل الإنتاج وأساليبه [1] . وهذه من دعاوى الشيوعية ، التى لا تعترف إلا بشىء واحد هو العامل الاقتصادى ، وكأن البشر لا يعملون إلا من أجل المال ، والمال وحده ، فلا حبّ ولا غيرة من الرجل على زوجته وأمه وبنته وأخته ولا جهاد فى سبيل الله والوطن ولا تطلع إلى ثقافة ولا تذوق لمنظر جميل ... إلخ . أليس هذا عجيبا ؟ إن على الباحث الذى يتمسك بالمنهج العلمى أن ينحّى نفسه وأشباهه وميولهم

---

(١) ص ٧ ، ٩ ، ٢١ - ٢٢ مثلا .

عن مجال بحثه حتى لا يتأثر بشىء من ذلك . وإذا كان الشيوعيون لا يرون فى الدنيا شيئا غير الفلوس ، إذ هى فى نظرهم المادىّ الشديد الضيّق محرّكة التاريخ ، ولا شىء يتم إلا بها ، فهناك بشر كثيرون تحركهم دوافع أخرى أيضا أرقى من الفلوس ، وينبغى على الشيوعيين أن يضعوا هذا فى الاعتبار عند دراستهم المجتمعات الإنسانية ، وبخاصة بعد أن ثبت فشل نظريات كارل ماركس منذ البداية وانهار الاتحاد السوفييتى بعد سبعين عاما فقط من قيام الثورة الشيوعية الكبرى فى روسيا (وهذه الفترة فى تاريخ الدول تقابل مرحلة الرضاعة فى عمر الكائن البشرى ، أى أن الاتحاد السوفييتى قد مات وقُبِر قبل أن يتم فطامه) ، بيد أن الشيوعيين للأسف لم يتغيروا ، ولا أظنهم سيتغيرون .

ونعود إلى دعوى الشيخ بأن جهود الرسول عليه السلام لم تؤدِّ إلى شىء يذكر ، ومعنى ذلك أن الأمور ظلت فى عهده ﷺ وما بعده لقرون كما كانت فى الجاهلية لم يتغير منها شىء ، إذ إن وسائل الإنتاج وعوامله بقيت كما هى . أى أن العرب وغير العرب ممن انضموا تحت راية الإسلام قد استمروا على وثنيتهم أو مجوسيتهم أو يهوديتهم أو نصرانيتهم ، ومَضَوْا يشربون الخمر مثلما كانوا يشربونها من قبل ، ولم يكونوا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون حج الإسلام ، ومن كانوا يئدون البنات منهم لم يتوقفوا عن وأد بناتهم ، ومن كانوا يُقرِضون بالربا لم يكفّوا عن الإقراض بالربا ، ومن كانوا

يأكلون الخنزير لم يقلعوا عن أكله ... إلخ ... إلخ . ويبنى على هذا أن كل ما أتتنا به كتب التاريخ والسيرة وما نقرؤه فى القرآن المجيد وأحاديث النبى الكريم عن التغيرات المذهلة التى أحدثتها دعوة محمد ﷺ والأخلاق العظيمة التى ارتفع بأتباعه إلى أوجها وجعل منهم بها خير أمة أُخْرِجَتْ للناس هو كذب فى كذب علينا أن نلقى به دُبْر آذاننا ونبلع فى صمت ما يقول كاتبنا الصادق جدا والموضوعى جدا والعلمى النزعة جدا ! فلينظر القارئ وليحكم بنفسه ، وسأسكت أنا ، فقد غلب حمارى ! ويسمونه بعد هذا كله بـ « الكاتب والمفكر الإسلامى » ! صدق من قال إن الليالى حبالى يلدْن كل عجيبة ! ترى بالله ماذا كان محمد يفعل طوال الثلاث والعشرين سنة التى قضاها فى مكة والمدينة بعد أن أعلن للناس أنه جاءهم برسالة من السماء ؟ أتراه كان يقشّر بصلا ؟ (١) أم تُرَى يمكن لمن عنده ذرة من عقل أن يصدّق أن مثل هؤلاء الناس الذين استبد بكاتبنا الأمين العفّ اللسان هوَس تلطيخ صورتهم ورميهم بكل نقيصة وادعاء الفواحش عليهم كان يمكنهم ، لو أنهم كانوا كما يدعى عليهم ، أن يفتحوا للدين الجديد (دين التوحيد والطهارة والعفة والاستقامة والأمانة رغم أنف كل ملحد مارق) قلوب العرب والفرس وأهل الشام

(١) ولقد سبق أن رأينا الشيخ خليل يعترف بأن الرسول عليه السلام قد نجح فى تغيير أوضاع المجتمع العربى بعد كفاح شاق استمر ثلاثا وعشرين سنة . وقد أرجع ذلك إلى أنه هو وأصحابه كانوا يبدأون دائما بأنفسهم فى أى شىء يدعون الناس إليه (انظر كتابه « لتطبيق الشريعة لا للحكم » / ٧٤، ٧٨) . فلينظر القارىء إلى هذا التناقض العجيب وليفسّره كما يحلو له .

والمصريين والأفارقة والأندلسيين والأتراك وغيرهم ويقيموا بعد ذلك هذه الحضارة العجيبة التي استمرت إلى مشارف العصر الحديث مزدهرة غلابة ؟ إن أغيظ ما يغيظ البساريين هو أن اسم محمد لا يزال يتردد فى كل لحظة من ليل ونهار فى أركان المعمورة على ملايين الألسنة التى تجد فى ذكر اسمه ترطيبا وأمنا وسكينة ، على حين لم يعش الاتحاد السوفييتي وتوابعه أكثر من بضع عشرات من الأعوام انتثر بعدها وأصبح من مخلفات التاريخ ، وكان فى طليعة الثائرين عليه الشغيلة والكادحون وصغار الفلاحين بعد أن لم تعد صدورهم قادرة على حبس بخار السخط والغضب المتجمع فيها من جراء الكبول التى كانت تخنق رقابهم خنقا ، مثبتين بذلك أن كل ما كان الفارغون والفارغات من ذيول الشيوعيين فى بلاد المسلمين يلوكونه بألسنتهم الكاذبة عن حتمية قيام الدولة الشيوعية وحتمية انتصارها إلى الأبد على أعدائها ما هو إلا فقاقيع هواء !

ونأتى إلى الحالات التى أوردها المؤلف فى كتابه فرحًا بها أشد الفرح كأنه وقع على كنز فهو يفرك يديه سرورا وحبورا ، وسوف نحلل معظمها معا لنرى إلى أى حد يمكن أن تدل على ما يذهب إليه كاتبنا الأمين . ومرة أخرى نقول إن المجتمع الذى لا يقع أفراده فى أى خطإ ولا يزلون هو مجتمع لا وجود له فى دنيا البشر ، ولكن المجتمعات رغم ذلك درجات . وسيلاحظ القارئ أننى آخذ الرواية التى

يوردها الشيخ خليل على علاتها دون التثبت من مدى أمانته فى نقلها أو تلاعبه بها ولا مدى صدق رواة الرواية أنفسهم أو كذبهم ، وذلك حتى يتبين القارئ أن كل ما صدّعنا به مولانا الشيخ هو ، حتى على أسوإ الفروض ، مجرد زوبعة فى فنجان !

فأما الحالة الأولى فقد جاء فيها أن امرأة وقع عليها رجل فى سواد الصبح وهى فى طريقها إلى المسجد ، فاستغاثت بأحد المارة ففرّ المعتدى ، ثم مرّ عليها ناس فاستغاثت بهم ، فأدركوا الذى استغاثت به ، ولم يستطيعوا الإمساك بالآخر ، وأتوا به رسول الله وهو يحلف لهم أنه هو المستغاث به لا المجرم . لكن رسول الله أمر برجمه ، وعندئذ استيقظ ضمير الجانى فاعترف وبرّئ الذى أغاثها [(١)] .

وأول ما يلفت النظر فى هذا الكلام هو أن النبى ، رغم إنكار الرجل الذى استغاثت به السيدة ، قد أمر بإقامة حدّ الرجم عليه ، وهذا فى واقع الأمر شيء غريب ، إذ أتى النبىّ عليه السلام ذات مرة رجلٌ يقرّ من تلقاء نفسه بالزنا ويريده أن يحدّه حتى يطهّره من الإثم الذى انغمس فيه ، فأخذ النبى يقول له : لعلك قبّلت أو غمزت أو نظرت . وفى حالة مشابهة قال للمعترف بعد أن أعرض عنه أكثر من مرة : « أبك جنون ؟ »[(٢)] ، فما الذى جعل النبى يخالف سنته هنا ويأمر

(١) ص ٢٩ .

(٢) انظر : صحيح البخارى بحاشية السندى « / مكتبة زهران / ٤ / ١٧٨ ، وصحيح مسلم / ٢ / ٤٩ _ ٥٠ .

برجم الرجل رغم إنكاره ورغم عدم وجود أربعة من الشهود يؤكدون تأكيدا قاطعا أنهم رأوه يزنى ؟ إن هذه وحدها قمينة أن تجعلنا نتوقف عن قبول هذه الرواية التى يشمّر لها الكاتب أكمامه فرحاً[1] . ومع ذلك فلنتجاهل ما قلناه ، فماذا نجد أيضا ؟ نجد أن المرأة لم تُطِقْ أن يهجم عليها الرجل فاستغاثت ، فهل هذا صنيع امرأة شَبِقَة كما يدّعى كاتبنا المهذب عليها وعلى أمثالها من نساء المدينة ونساء العرب جميعا؟ ولنلاحظ أن المرأة إنما تركت فراشها وبيتها وهبّت فى أخريات الليل تلبى داعى ربها ، فهل هذا تصرف الشبقات الزانيات ؟ لعنة الله على كل أفاك أثيم ! ثم ما دلالة إسراع الرجل الآخر إلى إغاثتها بدلاً من أن ينتهز هذه الفرصة فيشارك المعتدى عدوانه ؟ أهذا صنيع رجل محموم

---

(١) ولقد راجعت بنفسى الحديث كاملاً فى « كتاب السُّنن الصغير » للبيهقى ، وهو المصدر الذى نقل عنه الشيخ خليل هذه الرواية ، فوجدت أن مولانا الشيخ خليل عبد الكريم قد حذف منه اتهام المرأة للرجل أمام الرسول عليه السلام بأنه هو الذى اغتصبها ، وقول الشهود إنهم أدركوه وهو يشتدّ (أى : وهو يجرى) ، وما جاء فى الرواية الأخرى لنفس الحديث من أن كل ما فعله الرسول ﷺ هو أنه « أمر به » ، وهى عبارة عامة . ويغلب على ظنى أن المقصود أمره عليه السلم بحبسه حتى يتبين الحقيقة ، وهو ما يتسق مع تصرفات رسول الله (بوصفه قاضيا) فى مثل هذا الموقف . علاوة على أن الحديث يبدأ هكذا : « زعم أن امرأة وقع عليها رجل فى سواد الصبح ... إلخ » ، فالمسألة إذن لا تعدو أن تكون زعما (انظر الحديث رقم ٣٦١٨ / ١٥٢٩ من كتاب البيهقى المذكور).

بحمّى الجنس كما يتهمه كاتبنا الأمين هو وأمثالَه من رجال المدينة ورجال العرب جميعا ؟ ثم لو كان مجتمع المدينة لا يبالى فى أمور الجنس بحلال أو حرام كما يقول الكاتب كذبا ، فلماذا جاء الفاعل الأصلى وقدّم نفسه للرجم ؟ أليس ذلك دليلاً على أن محمدا قد نجح فى غرس الخوف من الله فى القلوب حتى لقد فضّل هذا المعتدى أن يُرْجَم على أن يعاقَب بدلا منه رجل لم يقترف ذنبا ؟ فأين إذن دعوى الكاتب بأن الإسلام ونبيه لم يستطيعا أن يغيّرا شيئا فى نفوس العرب وأخلاقهم لأن وسائل الإنتاج وظروفه لم تتغير ؟ إنى والله لا أدرى ما دخل وسائل الإنتاج فى مسائل الخوف من الله أو الاجتراء على محارمه . إن هذا وذاك موجودان فى المجتمعات الرعوية والزراعية والتجارية والصناعية جميعا ، وفى كلّ الطبقات والجماعات والبيئات .

وفى حالة أخرى نقرأ أن رجلا من الأنصار وآخر من ثقيف قد آخى بينهما رسول الله عليه السلام ، فخرج الثقفى مع رسول الله فى إحدى الغزوات ، وكان الأنصارى يتعاهد حاجات أهل أخيه الثقفى فى غيابه ، فتصادف أن ذهب هناك ذات يوم فرأى الزوجة وقد اغتسلت ونشرت شعرها فدخل دون استئذان وأراد أن يلثمها ، لكنها وضعت كفها على فمها فقبّل ظاهر كفها ثم أدبر مستحييا نادما ، فقالت : « خُنْتَ أمانتك ، وعصيتَ ربّك ولم تُصِبْ حاجتك ! »[1] .

---

(1) ص ٣٠ - ٣١

هذه هى القصة كما ساقها خليل عبد الكريم ، وهى تتحدث عن لحظة ضعف مرّت برجل مسلم فى ظروفٍ صعبة ليست من صنعه ولا من صنع زوجة أخيه الثقفى ، لحظة ضعف سرعان ما مرّت وانقشعت وانتبه الرجل من غاشية الشيطان التى ألمت به فولّى نادما . وذنبه ، كما هو واضح ، ليس هو الزنا بل محاولة تقبيل المرأة . والمرأة من جهتها صدّته لتوّها وقرّعته تقريعا عنيفا . وهذا كله ، فضلا عما سأضيفه بعد قليل ، يكذّب كل من يفترى على صحابة رسول الله ويزعم أن دعوته ﷺ لم تؤثر فيهم تأثيرا ذا بال ، وإلاّ فإذا لم تكن هذه الحساسية الأخلاقية التى بَدَهَتنا بها المرأة ، والتى إن كانت قد غَفَت فى نفس الرجل للحظة فإنها سرعان ما عادت عنيفة كما كانت ، هى الدليل على أن دعوة الإسلام قد أثمرت أطيب الثمرات فى المجتمع العربى ، فأين الدليل يا ترى ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك بقية الرواية التى حذفها مولانا الشيخ كانت دليلا آخر يخرق عين كل مدّع مريب، إذ هى تقول إن الزوجة عندما عاد زوجها أخبرته بما وقع من صاحبه فذهب يبحث عنه فى الجبال التى خرج إليها سائحا فوجده ساجدا يبتهل إلى ربه فى ألم قائلا : «ربّ ، ذنبى ! ذنبى ! قد خنتُ أخى!» ، فأخذه إلى رسول الله يسألانه المشورة ، فنزل عليه ﷺ قوله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم

يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونِعْمَ أجر العاملين ! »[1] . إن الشيخ خليل قد ثبّت مصوّرته على لحظة الضعف ولم يشأ أن يحولها عنها حتى لا يرى القارئ ما قبلها من قيام الأنصارى بما يحتاج بيتُ أخيه فى غيابه ولا ما بعدها من الندم والفزع اللذين أصاباه وجعلاه يسيح فى الجبال ولا يكف عن السجود والابتهال لعل الله أن يكفّر عنه ما ألم به من لحظة الضعف الطارئة . ورغم أن الرواية لم تتكلم عن زنا ولا اغتصاب فإن أمانة كاتبنا الفاضل ، وهو رجل قانون ، تأبى عليه إلا أن يقول إن الأنصارى قد « اقتحم على المرأة منزلها ناويا اغتصابها » . والحمد لله أنه قال إنها « كانت عفيفة فصدّته ووبخته » فكذّب نفسه بنفسه فى دعواه أن كل نساء المدينة الثيّبات والأبكار من كل الطبقات عاليها وسافلها كن زانيات ، وهو أمر طبيعى جدا فى نظره لأن الفتاة فى ذلك المجتمع كانت (كما يقول) تشبّ على ما ترى بعينها أمها وزوجات أبيها وعماتها وخالاتها يفعلنه من اقتراف الفاحشة وخيانة أزواجهن[2] . يقول المؤلف هذا بكل بجاحة ، وكلامه بالتأكيد يطول زوجات الرسول أيضا ، لأنه ما من واحدة من أمهات المؤمنين إلا وكانت أمًّا أو عمة أو خالة لفتاة أو أكثر . إن هذا الحكم إنما يصدق

---

(١) آل عمران / ١٣٥ ـ ١٣٦ . والقصة موجودة مثلاً فى تفسير « غريب القرآن ورغائب الفرقان » للنيسابورى (على هامش تفسير الطبرى / دار الحديث / القاهرة / ٤ / ٧٧) .

(٢) انظر مثلا ص ٧٢ ـ ٧٤ .

على نساء المجتمع الشيوعى الذى لا يؤمن بربّ ولا يعتقد فى جنة ولا نار ولا يصيخ السمع لدعوة كريمة كدعوة محمد ﷺ .

والآن إلى عجيبة العجائب : لقد دخل خليل عبد الكريم عالم الاكتشافات العلمية الخطيرة وأصبح رأسه برأس ابن الهيثم وابن النفيس وكوبرنيكوس ونيوتن وجاليليو وبيكون وغير هؤلاء من المكتشفين العلميين العظام الذين خطا العلم بفضل جهودهم خطواته الجبارة حتى وصل رواد الفضاء فى عصرنا إلى القمر واستنسخ العلماءُ النعاجَ استنساخا . أتدرون ماذا اكتشف ؟ لقد اكتشف ، بسلامته ، أن «نسوان»[1] المدينة كن يحتلمن وأن تلك المسألة لا يرقى إليها شك[2] . أرأيتم اكتشافا سوف يقلب التاريخ رأسا على عقب كهذا الاكتشاف ؟ « نسوان » المدينة يحتلمن ! أى والله ! لكنْ يا شيخنا

(١) وهذه هى اللفظة التى يكثر من استعمالها فى كتبه عند حديثه عن الصحابيات الكريمات . وأذكر أن الشيخ أبو زهرة ، طيّب الله ثراه ونوّر قبره ، قد استعمل هذه الكلمة فى الستينات فهاجت إحدى الصحفيات وماجت وعدّت ذلك قلة لباقة . والآن لا نسمع واحدة من تابعات الصحفية المذكورة تستنكر ذلك من الشيخ خليل . فسبحان الذى جعلها مُرّةً من فم الشيخ أبو زهرة وحلوة كالشهد من فم الشيخ خليل ! أما السرّ فى ذلك فهو أن الشيخ خليل يتعمد إيذاء الصحابيات ، وكله فى سبيل تشويه الإسلام يهون !

(٢) ص ٣٥ .

ماذا فى ذلك ؟ وهل قال أحد إنهن لا يحتلمن ؟ ولماذا لا يحتلمن ؟ فليحتلمن ، فما الذى يشغلك فى هذا ؟ أنظن أنك جئت بالذئب من ذيله ؟ ألم أقل لك من قبل : « صحّ النوم ، فقد ارتفعت الشمس وأصبح الوقت ضحى » ؟ على أن فضيلة الشيخ لا يكتفى بذلك بل يمضى فيؤكد أن هذا الاحتلام دليل على شدة الشَّبَق حتى إن النساء اللائى لا يستطعن أن يُرْوين غُلّتهن فى الواقع يرَيْنَ أنفسهن فى المنام وقد تفخّذهن أزواجهن (وهذا أيضا نص ألفاظه). ومرة أخرى نسأل المؤلف : ماذا فى أن ترى المرأة زوجها يجامعها فى المنام ؟ هل نصدر قانونا يحرّم على النساء أن يَرَيْن أزواجهن فى أحضانهن فى الأحلام إرضاء لك ؟ ما الذى يزعجك فى هذا يا أيها الشيخ ؟ إن المسألة تحتاج إلى دراسة نفسية ! والحمد لله أن الرواية قد قالت إن المرأة التى سألت الرسول عن حكم الماء الذى ينزل منها وهى نائمة قد حلمت بزوجها ، فهذا دليل على أنها امرأة شريفة عفيفة ، لا كما يحب أن يوهم الكاتب به قراءه من أنها وأمثالها (١) مهووسات بالجنس، إذا لم

---

(١) ليس هناك بالمناسبة إلا هذه المرة ، فهى مثال فريد . وقد كان تعليق أم سلمة عليها : « فضحتِ النساء عند رسول الله ﷺ » (ص ٣٤) .

يشبعنه في الواقع أشبعنه في الأحلام (١) ، مع أنه لو كان مجتمع المدينة إباحيا كما يصوّره الكاتب المفضال لما عزّ على هذه المرأة أن تجد بين رجاله من تزني معه ، ولما كانت هناك حاجة إلى الأحلام والاحتلام أو لحلمت على الأقل برجل آخر غير زوجها (٢) .

على أن اكتشافات المؤلف تتوالى ليكون هو أيضاً أول من يعرف أن تفضيل المرأة للشاب على الشيخ العجوز الفاني رغم فقر الأول وغنى الثاني « مؤشر واضح على قوة نزعة التماسّ بين الذكر والأنثى لديهن (أي لدى مسلمات عصر النبوة ، وعلى رأسهن نساء المدينة) وهيمنته على وجدانهن وأنه الهاجس الوحيد الذي يتركز في بؤرة الشعور »(٣) . ما أعظم هذا العلم الذي يجود به الله على الأستاذ ! يا فعلاً كنا وكان الناس معنا يجهلون أن الشاب أفضل عند المرأة من العجوز الذي ولّت أيامه ، إلى أن جاءنا الأستاذ فعدل هذا الوضع كما عدل كارل ماركس مثلث هيجل فأوقفه على قدميه بعد أن كان

(١) ص ٣٥ .

(٢) الكاتب يقول ، بخصوص احتلام أحد الصحابة ليلة بدر ، إن « العادة لها سلطانها » (ص ٣٦) ، مع بُعْد الاحتلام عن العادة (السرية) بُعْد المشرقين . وهذه إحدى بركات النزعة العلمية الموضوعية الحنجورية عند المؤلف !

(٣) ص ٣٧ .

هيجل قد أقامه على رأسه ! أم ترانا ينبغى أن نقول إن النساء جمعاوات يفضّلن الشيوخ على الشبان فهنّ لذلك عفيفات شريفات إلا نساء المدينة اللاتى شذذن عن بنات جنسهن وجلّبن على رؤوسهن ورؤوس أهليهن العار بإيثارهن الشباب المقبل على الشيخوخة المولّية ؟ والله إنى لفى حيرة من أمر المؤلف : امرأة تقدّم لها خاطبان ففضّلت الشاب على الشيخ ، فأى شيء يضايق كاتبنا فى هذا ؟ أهو الذى تقدم إليه الخاطبان أم المرأة ؟ أنت حرّ يا شيخ فى أن تختار ما تشاء ، والمرأة حرة أيضا فى أن تختار ما تشاء[(١)] ، وأرحنا بالله عليك من هذا السخف الذى تصدّع به رؤوسنا !

لكن من الجلىّ أن الكاتب مغرم بالتدخل فيما لا يعنيه ، فقد اشتكت إحدى النساء إلى النبى ﷺ من أن زوجها الجديد (الذى عقد عليها بعد أن طُلّقت من زوجها الأول الطلقة الثالثة) عاجز عن القيام بواجباته الزوجية تجاهها ، تلمّح بذلك إلى رغبتها فى العودة إلى زوجها الأول ، فقال لها الرسول : « لا ، حتى تذوقى عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتك »[(٢)] . فهل يجد أحد على هذه المرأة من بأس إذا هى أرادت أن ترجع إلى زوجها الأول الذى كان من الواضح أنها لا تزال تحبه رغم

---

(١) ألم يسمع الشيخ أغنية ليلى نظمى : « ما اخدش العجوز أنا » ؟

(١) ص ٣٨ ـ ٣٩ .

الطلقات الثلاث ، وبخاصة أن زوجها الجديد لا يستطيع أن يأتى النساء؟[1] لكن للكاتب رأيا آخر ، فهو يثور عليها ويتهمها بأنها ... وأنها ... ، إذ يقول لا فُضّ فوه : « ولكن ماذا تفعل المرأة فى مجتمع يثرب إذا تزوجت من رجل لم يستطع إرواء ظمئها ؟ إنها تشهّر به وتعلن ذلك للقاصى والدانى وللبعيد والقريب حتى تعلم القرية (يثرب) كلها بعُنّته ، وتلجأ لمحمد طالبة منه أن يخلصها من هذه المصيبة، ولا تقول ذلك بصورة ملفوفة بأن تلمّح . لا ، بل إنها تصيح مصرّحة بذلك بأعلى صوتها وبطريقة خادشة تُفْزِع حتى الرجال من الكهول »[2].

والحق أن كل ما قاله الكاتب تدليس فى تدليس ، والقصة كلها من أولها إلى آخرها تهدم دعاواه عن المجتمع الإسلامي على عصر الرسول هدماً لا يُبقى فيها حجرا على حجر : فالمرأة لم تشهّر بزوجها قط ولم تعلن عجزه للقاصى والدانى ، وإنما ذهبت إلى محكمة الرسول عليه السلام (ولم يكن عنده إلا عائشة وأبو بكر[3]) ليقضى فى هذه المسألة ، إذ لم تكن تدرى ماذا تفعل ، ولا تريد أن تتصرف

(١) قال عنه الكاتب إنه عِنّين .

(٢) ص ٣٨ .

(٣) وأغلب الظن أنها انتحت به جانبا ، بيد أن الكلام مهما كان هامسا لا بد أن يصل إلى مسامع عائشة التى روت الواقعة ، إذ كان ذلك (فيما =

من دماغها . وهذا منتهى العفة والالتزام بالقانون ، وهو من جهة أخرى دليل على أن المرأة قد بلغت من الحقوق مبلغا عظيما ، فها هى ذى تمارس بملء حريتها حقها فى أن تبقى مع زوجها أو تفارقه ، وإن كان القانون يوجب عليها أن تستمر مع الزوج فى حالتنا هذه إلى أن يتصل بها ولو مرة واحدة تُضْحِى بعدها حرة فى أن تطلب فراقه . أليست هذه الحقوق هى ما ينادى به التقدميون ؟ فكيف انقلب تطبيقها هنا مذمّة ؟ ألأنّ التى تطالب بها صحابية كريمة من أتباع محمد ؟ لو كانت هذه المرأة منحلة الخلق والسلوك كما يريد منا الكاتب المخلص أن نعتقد ، أفكانت ستعنّى نفسها بالذهاب إلى الرسول لرفع قضيتها إليه مع أنه كان فى إمكانها (حسب افتراءات الكاتب على المجتمع الذى تنتسب إليه) أن تروِى ظمأ شهوتها فى الحرام مع زوجها الأول الذى كانت لا تزال متعلقة به ؟

ومن التدليس أيضا ما يزعمه الكاتب من أن المرأة لم تقل ما

= هو واضح) فى حجرة عائشة . أما الشخص الثالث الذى ذكرته الرواية فكان بالباب يريد الدخول على رسول الله فى أمر من الأمور ، ولم يكن الرسول قد أذن له بعد لأنه لم يكن قد فرغ من مناقشة قضية المرأة الشاكية . لكنه تناهى إليه ما سمع فطلب من أبى بكر أن يأمرها لتسكت . وهذا دليل آخر على أنه كان مجتمعا حييا لا فاجرا كبعض القوم المنافقين .

أرادت أن تقوله عن زوجها بصورة تلميحية ملفوفة بل صاحت به مصرّحة بأعلى صوتها(١). ذلك أن المرأة لم تصـرّح بل لمّحت ، إذ قالت: «إنما عنده مثل الهُدْبة» ، وليس بعد هذا تلطف فى الإشارة إلى عجز الزوج(٢). وحتى لو كانت صرّحت فليس عليها من حرج ، إذ القضاء إنما يقيم أحكامه على أساسٍ واضح جليّ لا يعتريه لَبْس ، ولكنْ تلميح المرأة كان كافيا ، ولهذا لم يطالبها الرسول بتوضيح ، وذلك على عكس موقفه من الرجل الذى أتاه معترفا بالزنا يريد أن يُرْجَم حتى يَطْهُر ويلقى ربه نقيا ، فقد راجعه الرسول قائلا : « لعلك قبّلت أو لمست أو نظرت !» ، إذ إن العقوبة غليظة ، وليس لها إذا وقعت مِنْ تَدارُك ، فلا بد إذن من استعمال غاية الحذر والتأكد من أن المتهم يعنى فعلا ما يقول وليس به أى أثر للجنون . وأخيراً فالمرأة لم تَصِحْ بأعلى صوتها ، وإنما كانت تخاطب الرسول ﷺ فى حجرة عائشة كما سبق القول . كذلك فقد قال كاتبنا فى موضع آخر إنها « لا تطيق الصبر على المجامعة والمفاخذة ولا تضع فى اعتبارها أن تظل

---

(١) ص ٣٨ .

(٢) عجيب أن يتحدث الأستاذ الشيخ عن التلميح والكناية ، وكتابه كله يفيض بالألفاظ العارية الغليظة دون أية محاولة للتلطيف ، وذلك بغية تلطيخ مجتمع الإسلام فى عهد سيّد الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعا .

معه ولو لمدة يسيرة عسى أن تكون عُنّته أمرا عارضا »(١) . ولا يخفى ما في العبارة الأخيرة من تدخل سمج لم يطلبه منه أحد ، فكان أولى به أن يُبْقى رأيه لنفسه لأنه ليس هو صاحب المشكلة بل المرأة ، وعندما يعرض له مثل ذلك فليتخذ القرار الذى يراه صائبا . هذا ، ولم تكن المرأة « تعدد » فى شوارع المدينة وقد نكشت شعرها وأخذت تلطم خدودها ، وصوتها يبلغ عنان السماء كما يوحى كلام الأستاذ الأمين جدا ! ألم ترى كاتبنا يظن أنه يتكلم عن إحدى نساء حوش بردق ؟(٢) صحّ النوم يا سيدنا الشيخ مرة ثالثة ! إن الكاتب لا يستطيع أن يملك بغضه للصحابة الكرام فهو يعمل دائما على تدنيس سمعتهم ، وهيهات ، إذ أين الثُّريّا من الثَّرى ؟ وأين التِّبر من التراب ؟(٣)

---

(١) ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) أستميح القارئ الكريم عذرا فى أن أسوق له تعليق الكاتب على هذه القصة . قال صاحب الحياء الجمّ واللفظ العفيف الرهيف إن « نسوان ذلك المجتمع ... كانت الواحدة منهن تملأ الدنيا صخبا لأنها اكتشفت أن زوجها عنّين لا طاقة له على ركوبها » (ص ١١) . يا سلام على الحياء والرقة !

(٣) فأما التبر فمعروف ، وأما التراب فهو ما سمعناه عن تلك التقدمية التى كانت متزوجة من تقدمى مثلها يكره الإسلام ويكيد له فى كتاباته ، ثم حدث أن أصيب بمرض يحتاج إلى الابتعاد تماما عن بذل أى مجهود ويستلزم عملية جراحية عاجلة ، لكن الزوجة الوفية لم تبال بشىء من هذا وأصرت على أن يباشرها زوجها على سرير المرض بالمستشفى (فى بلاد بره البعيدة) حتى كاد المسكين أن يضيع فيها . وانتهى أمرها معه بحصولها على ما طلبته من طلاق فتركته وأخذت تدور كعادتها على حل شعرها فى المنتديات قائلة إنها لم تتزوجه لتشتغل له ممرضة ! وتوتة توتة فرغت الحدوتة ، وهى (كما ترى) بالزفت ملتوتة !

ومن أفاكيه كاتبنا ، وكلّ ما يكتبه أفاكيه ، ارتداؤه جُبّة الواعظ وعمامته واتخاذه سَمْت الدعاة الأخلاقيين الغيورين على الدين عند حكايته قصة الصحابى الذى كان قد ظاهر من زوجته طوال شهر رمضان رغبة منه فى ألا يشغله عن العبادة فيه شىء من أمور الدنيا ، لكنه ضَعُف فى منتصف الشهر وجامعها ، فعندئذ ثار مولانا الشيخ قائلا إنه « فى ليلة النصف بدل أن يحييها بالصلاة والدعاء والذكر والتهجد ... إلخ وثب على امرأته فوطئها غير عابئ لا باليمين ، بيمين الظهار الذى قطعه على نفسه ، ولا بالنص الذى يمنع ملامسة النساء أثناء الظهار ، لأن نزعة التواصل مع الجنس الآخر[1] غلابة قهارة تكتسح فى طريقها العقود والمواثيق والأيمان بل والنصوص نفسها »[2] . ووجه الفكاهة فى الأمر أن شيخنا المبجّل لا يعترف بصيام ولا صلاة ولا حج كما رأينا . وبالنسبة للصوم بالذات فقد مرّت بنا دعواه أنه من اختراع محمد ، فرضه على أتباعه لتحويلهم إلى مجتمع عسكرى يتخذه وسيلة لقسر العرب على الدخول فى الإسلام ظاهراً وخضوعهم لسلطانه فى حقيقة الأمر[3] .

---

(١) يقصد : فى المجتمع الإسلامى على عصر الرسول لا فى أى مجتمع .

(٢) ص ٤٤ .

(٣) وعلى ذلك فمن العجيب المضحك أن يقول شيخنا الفائق الورع إن « الصائم يكون فى حالة روحية سامية لأن الصيام لله، وهو الذى يجزى به كما أخبر محمد ، ومن ثم لا يفكر الصائم حتى فى مقدمات الجماع مثل التقبيل لأن مثل تلك الأفعال تنافى روحانية الصيام » (ص ٥١) .

ومن ناحية أخرى ما الذى يعيب الصحابى فى ألا يستطيع تجنب زوجته إلى آخر الشهر الكريم ؟ إنه لم يزن بل عاشر زوجته ، أما الظهار فله كفارته ، وقد أداها الرجل . ولا شك أنه لم يحسن التصرف عندما ظاهر من زوجته طوال رمضان ، فإن الإسلام لا يتجهم للغريزة الجنسية كما تفعل بعض الأديان التى تتنكر لصوت الفطرة ، اللهم إلا إذا أراد صاحبها إشباعها فى الحرام ، فعندئذ تكون له وقفة صارمة . كما أن الصيام لا يتطلب من المسلم ألا يقرب زوجته بإطلاق بل أثناء النهار فقط . ومعاشرة الزوجة ليلا لا تقلل من أجر الصائم البتة ولا تنال من قيمة صومه بأى حال ، بل بالعكس قد وضّح الرسول عليه ﷺ أن الرجل إذا أتى زوجته كان له بذلك أجر ، وهو ما فات الصحابى الكريم . أما طنطنة شيخنا الهمام الغيور فهى طنطنة فارغة من كلّ وجه ! ثم إن فى كلام كاتبنا تحريفًا مسيئا لا يَخْفَى على فطنة القارئ ، فهو يقول إن الرجل « وثب على امرأته » ، وليس فى المسألة وثب ولا قفز ، فنحن لسنا فى « جَحْشة الجرْن » ! ثم إن تهويله الأمر بقوله إن الصحابى المذكور لم يعبأ لا بيمين الظهار ولا بالنص الذى يمنع ملامسة النساء أثناء الظهار ، وكأنه قد أخطأ مرتين ، هو تهويل أجوف : فالحنث فى يمين الظهار هو نفسه مخالفة النص المذكور دون أدنى فرق ! وبالمناسبة فالظهار فى الإسلام حرام ، أى أن الكاتب النحرير قد قلب المسألة حين ساءه أشد الإساءة أن يرجع الصحابى عن ظهاره

قبل انقضاء رمضان وحمل عليه حملة شعواء من أجل ذلك مع أنه قد كفّر عما فعل . وقد شدّد الإسلام فى كفارة الظّهار تبغيضا للمسلمين فى إتيانه[١] .

ومن ليِّ سيدنا الشيخ للنصوص أنه يسوق رواية تتحدث عن دخول رجل على امرأة أبيه (مجرد دخول) مما أغضب أُبَيَّ بن كعب فقال : « لو كنت أنا لضربته بالسيف » ، ثم يعقب قائلا : « واضح من سياق الحديث أن الرجل كان يدخل على زوجة أبيه دخولا مريبا ، وكانت تسعد بذلك ، بل ربما كانت تسعى إليه وتشجعه ، وأن الريبة هى التى دفعت الشاكى إلى تقديم شكواه إلى محمد . وهناك ملحظ على درجة كبيرة من الأهمية ، وهو أن الخبر لا يُفْهَم منه أن الأب متوفى . لعله كان مسافرا فى تجارة أو سريّة فانتهز الابن فرصة غيابه واتصل بزوجته . إلى هذا الحدّ بلغ طغيان وازع الاتصال بالآخر : نكاح أرملة الأب أو مخادنة زوجته عندما يولى ظهره ويغيب عن بيته »[٢] . وكل ما قاله خليل عبد الكريم هو خبط عشواء ، إذ من المحتمل جدا ، بل هذا ما أرجحه ، أن يكون التكير فى كلام أُبَيّ سببه أن زوجة الأب لم تكن قد حُرِّمَتْ على الابن حينئذ ، فأغضب

(١) انظر حكم الظهار وكفارته فى « فقه السيرة » للسيد سابق / ٢ / ٢١٢ .

(٢) ص ٤٨ .

أيًا هذا التساهل . وقد رجّحْتُ هذا لأنه لو كان فى الأمر شىء مريب بالشكل الذى يصوّره خليل عبد الكريم لما سكت الرسول ولتقصّاه حتى يقضى فيه بشىء . ولكن انظر إلى الدقة التعبيرية عند رجل القانون حيث يضخّم الأمر أوّلاً فيسميه « اتصالا » ثم يترقىْ من ذلك (بل بالحرى يتدنّى) فيسميه « نكاحًا » و « مخادنة » (يعنى « زنا » من أبشع ما يكون الزنا) ثم يزيد فيجعله ظاهرة عامة فى المجتمع النبوى . وهكذا تكون الأمانة العلمية ، وإلا فلا !

كذلك فكاتبنا العليم بالشريعة لا يعجبه أن يتصل أحد الصحابة بزوجته وهى مستحاضة ، فينخرط فى الإنكار والزراية عليه ممطرا إيانا بمعلومات يظن أنها تهوّل المسألة ، إذ يذكر أن الزوجة هى حمنة (أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين) وأن الزوج هو إما مصعب بن عمير (المقرئ المشهور الذى أرسله رسول الله ﷺ بعد بيعة العقبة ليعلّم أهل يثرب القرآن) وإما طلحة بن عبيد الله (أحد العشرة المبشّرين بالجنة)(١) . على أن المسألة كلها ليست إلا سخفا من سخف الكاتب ليس له موضع إلا تحت الحذاء ، فليس فى الاتصال بالزوجة أثناء الاستحاضة من حرج ، إذ الاستحاضة هى نزول الدم فى غير أوقات الحيض ، وبعض النساء يُسْتَحَضْن دائما ، فماذا

(١) ص ٤٩ .

يفعلن هن وأزواجهن إذن ؟ أيَحْرِمهم الإسلام من ممارسة حقهم الطبيعي ؟ كلا ، فليس في اتصال الزوج بزوجته أثناء استحاضتها من شيء في حكم الإسلام[١] . إن تضييع الوقت في الخوض في هذه الأشياء لهو سماجة باردة !

ويتوقح الكاتب عندما يتعرض لأم هانئ بنت عم الرسول عليه السلام (وأخت على بن أبي طالب) وللرسول نفسه ﷺ فيسوق رواية تقول إنها « خرجت متبرجة قد بدا قُرْطاها » ، أي أن التبرج هو بدوّ القرطين في أذنيها ، لكن المؤلف المهذب يعلق قائلا : « ما الذى يدعو أم هانئ وهي مَنْ هي إلى التبرج ؟ إنها بلا شك ضواغط مجتمع يثرب ! »[٢] . ومعروف ماذا يقصد خليل عبد الكريم بـ « ضواغط مجتمع يثرب » ! إنه الشبق الجنسي وتهالك النساء على الرجال وإرضاء الشهوة من أي سبيل ! أرأيت أيها القارئ إلام وصلت الوقاحة؟ بيد أنه لا يكتفى بهذا الحدّ من التطاول الوقح بل يأبى إلا أن يمسّ الرسول ﷺ أيضا فيقول إن عمر قد قال لأم هانئ لما رأى قرطيها ظاهرين : « اعملى ، فإن محمداً لا يغنى عنك شيئا » ، فشكت ذلك

---

(١) انظر مثلا السيد سابق / فقه السنة / ٨٦ ـ ٨٩ . وواضح أن الشيخ خليل عبد الكريم لا يدرك الفرق بين الحيض والاستحاضة !

(٢) ص ٥٤ .

لرسول الله ، الذى أكدّ أن شفاعته ستنال كل المسلمين ، فكيف لا تنال أهل بيته ؟ وعندئذ يعلق المؤلف المتطاول قائلاً فى تهكم : « أى أن تبرج أم هانئ مغفور لها بالشفاعة المحمدية » . ولستُ أقصد أنه ينكر الشفاعة ، فالأمر أطمّ من هذا كثيرا . إنه يلمز الرسول بأنه لا يبالى بتبرج أم هانئ لأن شفاعته كفيلة بإصلاح كل شيء ! لقد اتضح المراد بالتبرج فى القصة كما بيّنا وأنه لا يعدو ظهور قُرْطَىْ أم هانئ ، لكن الكاتب يلعب على هذه الكلمة يريد أن يوهم القارئ أن تلك السيدة الجليلة قد خرجت إلى الشارع وقد وضعت المكياج على « سِنْجة عشرة » ولبست فستانا فوق الركبة لا أكمام له يُظْهِر صدرها وظهرها ، وكانت تمضغ اللادن وتتعرض للرجال ! أليس هذا هو ما يفهمه أبناء عصرنا من كلمة « تبرج » ؟

وانظر ، أيها القارئ العزيز ، هذه أيضا . قال المؤلف الهجّام : « عن ابن عباس قال : تزوج رجل من الأنصار امرأة من بَلْعَجْلان(١) فدخل بها فبات عندها ، فلما أصبح قال : ما وجدتُها عذراء ! فرفع شأنها إلى النبى ﷺ فدعا الجارية (٢) فسألها فقالت : بلى ، كنتُ عذراء . فأمر بهما فتلاعنا وأعطاها المهر » . ثم بعد أن ساق القصة

(١) أى من بنى العجلان .

(٢) معنى « الجارية » هنا : « الشابة الحديثة السنّ » ، والمقصود الزوجة التى تدور عليها القصة .

أضاف قائلا : « حتى الجارية ، أى الشابة الحديثة السنّ التى بالكاد تخطّت مرحلة الطفولة ، لم تصبر عن التماسّ بالذّكَر ، ولا يهم أن بكارتها ستزول . إلى هذه الدرجة بلغ هذا الأمر فى ذلك المجتمع»(١). أرأيت أيها القارئ كيف لا ينقطع سيلان قيح الحقد والكذب على الشرفاء من قلب ذلك الرجل ؟ لقد أقسمت الفتاة فى عملية اللّعان عدة مراتٍ أنها صادقة ، واستنزلت لعنة الله على نفسها إن كانت من الكاذبين ، لكن القانونى الضليع يرفض هذا كله ويجزم بأنها زانية ! كيف ؟ لا أدرى ، ولا إخال أحداً من عقلاء البشر يدرى ! وأنا لا أظن إلا أنها قد صدقت فى مقالها ، وإلا لجاءنا مثلا حديث آخر عنها بأنه قد ظهر من سلوكها بعد ذلك ما يؤكد اتهام زوجها لها . ولست مع ذلك أشكك فى كلام زوجها ، فهو لم ير منها دماً عند دخوله بها فقال ما قال . ومعروف أن بعض أغشية البكارة هى من النوع المطاطىّ الذى لا ينزل منه دم(٢). وعلى هذا فكلاهما صادق : فهو قد شهد بما رأى ، وهى قد أقسمت على ما تعرفه من عذريتها وعفتها(٣).

(١) ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) أو يكون غشاء بكارتها قد تمزق فى طفولتها من جراء حركة عنيفة مثلا وهى لا تدرى . ألا لعنة الله على كل حاقد جهول !

(٣) وقد جاء فى كتاب « أنت وهى والجنس » للدكتور رفعت كمال تحت عنوان « بعد مرور عدة أشهر من الزواج قد تظل الزوجة عذراء . لماذا؟ » : « قد يحدث ذلك فى بعض الأحيان ، ويكون ذلك راجعا إلى=

والسّمج الرّذل هو من يأتى بعد أربعة عشر قرنا ويتهم واحدة من المسلمات بشيء ليس له أدنى دليل عليه سوى الوقاحة المتهجمة ! أيرضى مثل هذا الشخص أن تُتّهم بنته أو أخته بمثل ذلك رغم أن أخته أو بنته لا يمكن أن يرتفع رأسها إلى موطئ قدم صحابية من صحابة رسول الله ؟ إن الإنسان الكريم لا يُقْدِم على اتهام خلق الله جزافا بل يتوقّى الخوض فى مثل هذه الموضوعات ، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالشرفاء والشريفات ، ولكن ما للهجّامين وما للشرف والكرامة ؟

ويمضى كاتبنا الموضوعى الحريص على التثبت من كل ما ينطق به فوه فيَقْرِف واحدا من كبار صحابة رسول الله العظام ، وهو

= الزوج أو الزوجة أو الاثنين معا : أما الزوج فإنه قد يصاب بالحالة النفسية التى تمنع حدوث الانتصاب ، أما الزوجة فإن خوفها الشديد من الألم بسبب هذه المعلومات الخاطئة التى سمعتها يؤدى إلى حدوث انقباض فى عضلات المهبل والفخذين ، وهكذا يصبح من المستحيل على الزوج أن يفض غشاء البكارة . وفى حالة أخرى قد تكون طبيعة غشاء البكارة سببا فى عدم نجاح الزوج فى أن يفضه ، والسبب أنه من النوع المطاطى ، وهنا يحتاج الأمر إلى تدخل الطبيب للقيام جراحيا بهذه المهمة . وفى حالات أخرى تتجمع كل هذه الظروف لتجعل الزوجة عذراء بالرغم من مرور فترة طويلة بعد الزواج » (دار يوسف كمال للطباعة / القاهرة/ ٨٥ ـ ٨٦) .

المغيرة بن شعبة ، رضى الله عنه، بالزنا دون أى سند شرعى أو قانونى، ثم لا يقف عند هذا الحدّ بل يدّعى على عمر أنه ضغط على أحد الشهود حتى غير شهادته فلم يكتمل نصاب الشهادة فى جريمة الزنا ، وهو أربعة شهود ، ومن ثم لم يوقّع عليه الحدّ . وهكذا فى جملة واحدة يتهم الكاتب الهمام اثنين من صحابة رسول الله فى نزق طائش، وهو رجل القانون الذى ينبغى عليه أن يدقق فى كل كلمة يحكم بها . وملخص القصة أنه كان للمغيرة جار لم يكن بينه وبينه مودة هو أبو بكرة ، وكان لكل منهما مشربة (أى حجرة علوية) تواجه مشربة الآخر . وذات يوم اجتمع عند أبى بكرة بعض أصدقائه ، وهم زياد ابن أبيه ونافع بن كلوة وشبل بن معبد ، وهبت الريح ففتحت الكُوَّة التى فى مشربة المغيرة المقابلة لهم فرأوه وهو بين رِجلَى امرأة ، فقال لهم أبو بكرة : قوموا انظروا . ثم طلب منهم أن يشهدوا فسألوه عن المرأة فقال إنها أم جميل[1] ، فكان جوابهم أنهم لم يروا وجهها . ومع هذا فقد ذهب بعضهم إلى عمر واتهم المغيرة بالزنا بأم جميل ، فأحضره عمر وأحضر الشهود أيضا وواجهه بما يقولون ، فأجاب قائلا : سَلْهم كيف رأونى : مستقبِلَهم أو مستدبِرَهم ؟

(١) امرأة من أهل الكوفة كان قد مات عنها زوجها ، وكانت تشبه زوجة المغيرة .

وكيف رأوا المرأة وعرفوها ؟ فإن كانوا مستقبِليَّ فكيف لم أستتر ؟ وإن كانوا مستدبِريَّ فبأى شىء استحلوا النظر إلىَّ فى منزلى على امرأتى ؟ لم أقسم أن التى كانت معه هى زوجته ، وكان بينها وبين أم جميل شبه . فدعا عمر بالشهود ، فشهد ثلاثة منهم بأنهم رأوه مع أم جميل ، وإن لم تأت شهاداتهم متطابقة بل كان بينها تناقض ، إذ قال واحد إنه رآهما من ظهرهما ، وقال كل من الاثنين الآخرين إنهما كانا يواجهانه . ثم دعا بالرابع (وهو زياد) قائلا فى رواية : « أرى رجلا أرجو ألا يفضح الله به رجلا من أصحاب رسول الله »[1] ، وفى رواية أخرى : « أرى غلاما كيِّسا لا يقول إلا حقا ، ولم يكن ليكتمنى شيئا » ، فشهد بأنه لم ير زنًا وأنه لا يستطيع أن يحقق

---

(١) هذه العبارة ، لو صحّ صدورها عن عمر ، هى مجرد تعبير عن أمنية جاشت بها نفسه ، ولا أظنه قالها بمسمع من زياد بل قالها وقد رآه مقبلا للشهادة . وأنا أخالف فى ذلك الشيخ عبد المتعال الصعيدى ، الذى يرى أن عمر قد « لوّح لزياد بمخالفة الثلاثة فى الشهادة » ، ودافع عن تصرف الفاروق بأن الشارع إنما وضع الحدود للزجر والتخويف أكثر منها للتنفيذ ... إلخ ، رغم أنى ، لو ثبت أن عمر قد قالها لزياد فعلا بهذا القصد ، لم أكن لأنكر عليه رضى الله عنه للأسباب التى ذكرها فضيلة الشيخ رحمه الله (انظر كتابه « القضايا الكبرى فى الإسلام » / ط ٢ / مكتبة الآداب / ١٩٦٠م / ١٢٧) .

شخصية المرأة . فعفا عمر عن المغيرة ، وجلد الثلاثة الأوائل حد القذف [1] .

هذه هي القصة ، وهي ، كما يرى القارئ ، قضية قد حُكم فيها منذ أربعة عشر قرنا ، وأقصى ما يمكن أن يقال إن المغيرة قد بُرئ لأن الأمر تحيط به الشبهات من كل جانب : فأبو بكرة كان يكره المغيرة ، أي أنه كان خصماً له ، ومن ثم فشهادته لا تُقبَل في حقه . ثم إنه ما كان ينبغي أن يتطالّ إلى ما كان يحدث في بيت جاره ، بل كان عليه أن يغلق كوّته وينصرف إلى حاله . والإسلام يؤثر الستر في أمور الزنا ، والواقعة (حتى بفرض أنها زنا) حدثت في بيت المغيرة ، وللبيوت حرماتها . والشبهات في الحدود ، كما هو معروف ، تُفسَّر في صالح المتهم . وعلى كل حال فإن نصاب الشهادة لم يكتمل كما ذكرنا آنفا . ولقد رأينا رسول الله ، عندما كان يأتيه الرجل معترفاً على

(١) انظر تاريخ الطبري / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / ط ٤ / دار المعارف / ١٩٦٣م / ٤ / ٧٠ ـ ٧٢ ، وابن كثير الدمشقي / البداية والنهاية / مطبعة السعادة / القاهرة / ٧ / ٨١ ـ ٨٢ ، وأبو الفدا / كتاب المختصر في أخبار البشر / دار الفكر ودار النجار / بيروت / ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م / ٢ / ٧١ ـ ٧٢ ، و « أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر » لعلي وناجي الطنطاوي/ دار الفكر/ دمشق / ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م/ ٢٢٥ ـ ٢٢٧ ، و « القضايا الكبرى في الإسلام » لعبد المتعال الصعيدي / ١٢٢ ـ ١٢٩ .

نفسه بالزنا بكامل إرادته ووعيه ، يراجعه فى ذلك مراتٍ ويصرف وجهه عنه لعله يعود من حيث أتى ويتوب إلى الله إن كان قد زنى فعلا . وعلى ذلك فحتّى لو كان عمر قد أحبّ ألا تكتمل الشهادة على يد زياد ، لقد كان بذلك يجرى على سنّة الإسلام . ومشهورة قصته ، رضى الله عنه ، التى يذكرون فيها أنه سمع نفرا يشربون الخمر فى بيت أحدهم فتسوّر عليهم وفاجأهم وهم متلبسون بشربها وتوعّدهم بالعقاب ، فأخبروه أنهم إذا كانوا أخطأوا خطأ واحدا بشربهم للخمر فإنه هو قد أخطأ فى حقهم عدة أخطاء ، إذ تجسس عليهم فى بيتهم وتسوّر دارهم عليهم ... إلخ ، فحينئذ لم ير رضى الله عنه أن يمضى فى الأمر أكثر من ذلك . ثم هل كانت زوجة المغيرة ستصمت بعد هذه الفضيحة المدوية التى وقعت فى بيتها وطعن زوجها بها كرامتها فى الصميم ؟

على أن هناك رواية أخرى تقول إن المغيرة ، بسبب تأيُّم تلك المرأة، كان يتعاهدها لعلها تكون بحاجة إلى شىء يقضيه لها [1] ، لكن أهل البصرة ارتابوا فى الأمر فترصّدوا له حتى إذا دخل عليها انتظروا قليلا ثم هجموا على البيت فوجدوه فوقها يزنى بها ورأوا « المِرْوَد فى المُكْحُلة» (وهو التعبير الذى يراد به التأكد التام من رؤية فعل الزنا دون أدنى لبس) ... إلخ القصة [2] ، وهذه هى الرواية التى

---

(١) وكان عمر نفسه يفعل ذلك فى المدينة مع أمثالها هن وأولادهن.

(٢) انظر تاريخ الطبرى / ٤ / ٦٩ _ ٧٠ ، و « فتوح البلدان » للبلاذرى / ط ١ / شركة طبع الكتب العربية / ٣٥٢ _ ٣٥٣ . ويجدها القارئ فى ص ٥٧ _ ٥٨ من كتاب « مجتمع يثرب » لخليل عبد الكريم .

أمسك بها خليل عبد الكريم بأظافره وأسنانه كأنه وقع على قطعة من العظم متجاهلا الرواية الأخرى ، وهى الرواية التى تدخل العقل . فليس من المعقول أن يُقْدِم المغيرة على مثل هذه الجريمة وهو الوالى الذى ترقبه العيون ويطوى له بعض القوم صدورهم على البغضاء ويتمنون أن يعثروا له على غلطة يشنعون بها عليه ويسقطونه من حالق. وفى عهد من ؟ فى عهد عمر ، الذى لا يمكن أن يتسامح مع انفراد المغيرة بأم جميل فى بيتها ، بله أن يُضْبَط معها وهما عريانان حتى لو لم يثبت عليهما ارتكاب الفاحشة . كذلك فهو ، رضى الله عنه ، لا يمكن أن يكون (كما يزعم الكاتب المهذب الأمين) قد « مارس نفوذه كخليفة لدى الشاهد الرابع زياد ، وأوحى له بالعبارات التى قالها إن[1] المغيرة من صحب محمد وإنه سوف يُرْجَم إذا شهد بذات شهادة الثلاثة الذين سبقوه ، فوعاها زياد جيدا ، خاصة وأنه كان عاملا لعمر على بعض صدقات البصرة ، أى كان موظفا لدى عمر ، فشهد (زياد) شهادة مائعة ، فأفلت المغيرة من الرجم وأُقيم الحدّ على الشهود الثلاثة »[2] . وهو يضيف بعد سطور قوله إن عمر ، بدلا من

---

(١) كذا تركيب الجملة عند مولانا الشيخ .

(٢) مجتمع يثرب / ٥٩ . وانظر التكييف الفقهى الرائع لهذه القضية عند عبد المتعال الصعيدى فى كتابه السالف الذكر ، وهو قريب مما قلته لكنه أكثر تفصيلاً .

أن يعزّر المغيرة على الأقل لدخوله بيت مسلم فى غيابه[١] والخلوة بزوجته والتعرى معها والالتصاق بها ، والاستمتاع بها « قد كافأه ، إذ نقله من ولاية البصرة إلى ولاية الكوفة » [٢]. وقد سبق أن قلتُ إن عمر لا يمكن أن يكون قد لقّن زيادا شيئا ، بل كانت الكلمة التى قالها ، لو صحّ صدورها عنه ، مجرد تعبير عن أمنية جاشت بها نفسه حين رأى زيادا يتقدم للشهادة . ولو كان قد أراد تبرئة المغيرة من التهمة والحدّ بأى ثمن فما الذى منعه من أن يرتّب الأمر منذ البداية بدلا من الانتظار إلى الوقت الضائع القاتل ؟ لقد كان عمر أحزم مما يتصور الحاقدون ! ولو كان ، رضى الله عنه ، أراد بكلمته تلك (إن كان فعلا قالها) أن يلقن زيادا تغيير شهادته لما سكت الشهود الثلاثة الآخرون ولحاجّوه فيها وفضحوه بها بين الناس . ثم كيف يقال إن عمر كان يغلّب على إقامة العدل تلك الاعتبارات الصغيرة التى يدعيها خليل عبد الكريم ، وهو الذى كان صارماً فى إقامة العدل حتى على أهله ؟ ولا أحد يجهل جلْده لابنه عبد الرحمن فى الخمر رغم مرض ذلك الابن ورغم أنه كان قد حُدّ من قبل على يد عمرو بن العاص

(١) الزوج لم يكن غائبا بل كان قد مات كما سبق القول ، أى أن المغيرة لم يكن يتحهز خروج الزوج أو غيابه ليتردد على المرأة ويخونه معها ، بل كان ، إذا ذهب ، يذهب لتعاهد شؤونها وقضاء ما تحتاجه . وكان عمر ، كما قلت ، يفعل مثل ذلك مع الأرامل وأولادهن فى المدينة .

(٢) مجتمع يثرب / ٦٠ .

ومعاقبة من تسوّل له نفسه بشهادة الحق ! ولقد أقرّ عثمانُ المغيرةَ على الكوفة ، فهل كان عثمان هو أيضا يشجع الزنا والزناة ؟ ثم إن هذه الرواية تنتهى بأن المغيرة ، عندما رأى الشهود الثلاثة الأوائل يُجْلَدون ، لم يتمالك نفسه من أن يخاطب عمر قائلا : « اشْفِنى من هؤلاء الأعْبُد ! » (وهى كلمة تدل على مدى المعاناة التى سببتها له هذه الشهادة التى لا يمكن أن توصف بأقل من أنها شهادة متسرعة قامت فيها الكراهية بدورها ولو دون وعى من أصحابها ، إن لم نقل إنها شهادة ظالمة) ، فما كان من عمر إلا أن ردّ عليه فى غضب : « اسْكُتْ ، أسْكَتَ الله فاك ! والله لو تمّتْ الشهادة لرجمناك بأحجارك » ، فهل هذا ردّ رجل يحب التدليس فى الشهادة ويغرى به ويحرّض عليه ؟ الواقع أن المؤلف هو الذى يدلّس : فالمغيرة لم يُضْبَط فى بيت أم جميل كما قيل فى الشكوى التى رُفِعَت لعمر والتى تلذذ الشيخ بإيرادها عاضًا عليها بنواجذه وكأنها الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولو كان قد حدث فعلا أن هؤلاء الأربعة (كما قال المؤلف فى نقله المبتور من سياقه [1]) قد ترصّدوا للمغيرة حتى رأوه يدخل دار أم جميل ثم بعد قليل هجموا على الدار وفاجأوهما يزنيان ، أكان المغيرة سيظل فوقها يمارس معها فعل الزنا

---

(١) مثل نَقْل رفيقه القمنى الخاص بمشابهة شعر أمية بن أبى الصلت للقرآن ونَقْله الآخر الذى يحاول أن يوهم به القراء أن الرسول كان يأكل من قرابين الأصنام حتى بعد مبعثه ، وهو ما سوف نتعرض له فيما بعد .

براحته مثلما قيل فى شهادات الثلاثة الأوائل دون أن يعبأ بوجودهم وبعيونهم المتطلعة وبالفضيحة التى تنتظره بل دون أن تدفعه هى عن نفسها خوفا من العار ؟ إن هذا لهو المستحيل بعينه ! لكن الكاتب الفاضل الذى يفرح بأن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا يظن أن ليس للقراء عقول ! لقد رأى الشهود ما رأوا فى بيت المغيرة عبر المسافة التى تفصل بين الكُوّتين المتقابلتين كما بيّنّا ، فهل من المعقول (كما قال الشيخ عبد المتعال الصعيدى) أن يستقدم المغيرةُ أمّ جميل إلى بيته ويزنى بها هناك وفيه امرأته (وأولاده أيضا) ؟ وتصل خفة دم الكاتب أَوْجَها حينما يقف من عمر موقف المعلم ، إذ يقول : « لقد عزّ على عمر أن يُرْجَم أحد الصحابة بتهمة الزنا ، ولكن توقيع الحدود والحكم بالعدل والشرع أولى ليعرف المسلمون جميعهم وغيرهم أن الناس كلهم سواسية أمام الأحكام لا فرق بينهم »[1] . وأرجح الظن أن هذا الحقد العارم على عمر والمغيرة سببه أن الإسلام قد اكتسح قوى الشر والعدوان وفتح البلاد وأحرز انتصارات إعجازية فى عهد الأول ، وشارك الثانى فى كثير من معارك الفتح المظفرة وأبلى بلاء عظيما فيها منذ أيام الرسول عليه السلام حتى بعد أن عزله عثمان رضى الله عنه عن العمل ، معرّضا نفسه للهلاك وفاقداً إحدى عينيه فى إحداها[2] .

---

(١) ص ٦٠ .

(٢) انظر فى ترجمته وجهاده فى سبيل الله ، « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » لابن الأثير / تحقيق البنا وعاشور / دار الشعب / ٥ / ٢٤٧ - ٢٤٩ .

وهكذا تكون الموضوعية العلمية الدقيقة ، وإلاّ فلا ! أفلم يتجاهل الكاتب إحدى الروايتين مدلّساً بذلك على القراء ، إذ أوهمهم أنه ليس هناك إلا هذه الرواية ؟ أفلم يحكم على المغيرة بأنه زانٍ دون أن يكون قد رأى شيئا ودون أن يكلف نفسه حتى مؤنة تحليل الرواية التى وافقت هواه فأوردها دون الثانية مع ظهور عوارها للعيون ظهورا جليا ؟ فعلاً هكذا يكون « الأسلوب العلمى الصارم الذى ينحّى جانبا عوارض العاطفة والتعصب » كما تقول الدعاية الموجودة على ظهر الكتاب!

ولنفترض بعد ذلك كله أن المغيرة قد زنا وأن ما فعله عمر هو دليل على أن المجتمع الإسلامى آنذاك كان مجتمعا يسيطر الجنس سيطرة محمومة مجنونة على كل فرد فيه بحيث لا يبالى فى ممارسته بحلال أو حرام أو عيب ، فما دليل ما فعله الشهود حين صمّموا على تبليغ عمر بما حدث وجشّم بعضهم نفسه السفر إلى المدينة فى تلك العصور التى كان السفر فيها « قطعة من العذاب » كما قال الرسول الكريم ؟ ألا يدل على عكس ما يريد كاتبنا العبقرى منا أن نعتقد فى ذلك المجتمع ؟ فما العمل إذن ؟ صدق الرسول الأكرم إذ قال : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت ! » .

ولنفرض ، يا شيخ خليل ، أن ما قلته فى عمر وبواعثه صحيح تماما ، فلمَ لَمْ تحمله على أن العبرة فى الحدود وغيرها من الأحكام التى لا تتعلق بالعبادات هى خصوصية السبب واللفظ معاً كما تدّعى فى كتاباتك الأخرى (وسوف نناقش هذه المسألة فيما بعد) ما دامت

هذه الأحكام فى رأيك متطورة ولا معنى للالتزام بها على الدوام ؟ ألا ترى أن الغاية عندك هى الاتهام والتحطيم ما دام الأمر يتعلق بالإسلام والرسول والصحابة ؟ (١)

وإذا كنا قد رأينا الكاتب العفّ الشديد التهذيب يتطاول على عمر رضى الله عنه ويتهمه بتشجيع الزنا ومكافأة الزناة فإن هذا لا يعدّ شيئا فى جنب ما قاله فى حق سيد المرسلين . إنه يصوّر المدينة المنوّرة على أنها ماخور كبير ما إن يخرج المجاهدون للغزو مع رسول الله حتى تفتح زوجاتهن بيوتهن وأحضانهن لمن بقى ولم يخرج للغزو من الرجال والشبان . ولقد شدّد محمدٌ النكيرَ على هذا التصرف عبثا فلجأ إلى وسيلة أخرى حسبما يقول مولانا الشيخ ، فما هى يا ترى ؟ يقول الشيخ المهذّب : « سلك محمد فى علاج مشكلة المغيبات طريقا آخر، وهو نهى الأزواج عن مفاجأة زوجاتهم ليلا ... : « إذا دخلتَ ليلا فلا تدخل على أهلك حتى تستحدّ المغيبة وتمتشط الشعثة » . والاستحداد هو حلق العانة ، وتسميه العامة فى مصر : « النتْف » (٢) ... ، والشعثة هى التى تفرّق شعرُها لعدم الامتشاط : « إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلا » ... ، وقيل إن بعض الصحاب خالف هذه الأوامر الصريحة وطرق أهله ليلا ففوجئ بزوجته فى أحضان رجل ،

(١) نفس الشىء نجده عند د. سيد القمنى ، الذى ساق هذه الواقعة متهما عمر بن الخطاب بالتحايل على حدود الله لإنقاذ المغيرة . وهو يعتمد هنا على مرجع شيعى ، والشيعة يبغضون عمر بغضا حارقا كما هو معروف. (انظر سيد القمنى / الأسطورة والتراث / الصقر العربى للإبداع / ليماصول / ١٩٩٢م / ٢٦٥ _ ٢٦٦).

(٢) بارك الله فيك يا سيدنا الشيخ وفى ألفاظك الرقيقة الحيّة !

وكان الحتم اللازم أن يتوقع ذلك . أليس هو ابن مجتمع يثرب وربيبه[١] ؟ من الواضح أن محمدا بنهيه صحبه عن دخول بيوتهم ليلا هو أن[٢] يجنبهم المرور بتجربة قاسية تحطم معنوياتهم وتمنعهم من الانخراط مرة أخرى في سراياه وغزواته وبعوثه ، ونعنى بها تجربة مشاهدة الزوجة تحت رجل آخر ، لأن الاستحداد والامتشاط والاغتسال والتزين والتعطر لا تستغرق جميعها من الزوجة أكثر من ساعة ، وهذه لا تساوى أن يقضى الزوج الليل بطوله خارج بيته ، خاصة وأنه قد عاد مجهدا معفرا. ولماذا لم ينههم محمد عن الدخول على الزوجات نهارا وحالتهن في الليل أو النهار واحدة : عدم الاستحداد والامتشاط ؟ وما الفرق بين أن ينتظر الزوج حليلته بعض الوقت حتى تتزين له سواء بالنهار أو بالليل ؟ إن محمدا الحصيف كان يعرف أن الليل هو الوقت المفضّل لتلاقى الأخدان خاصة فى ذلك الزمان ، إذ لم تكن إنارة الشوارع والطرقات قد عُرفت بعد ، وأدوات الإضاءة كانت آنذاك ضعيفة واهنة كليلة تمكّن من الدخول والخروج فى أمان ، خاصة وأن الناس قد أوت إلى مساكنها وانقطعت الأرجل السابلة . لهذا نهى محمد أتباعه عن الدخول على الزوجات المغيبات فى ظلمة الليل حتى لا يفاجأوا بما لا يسرهم بل يفزعهم ويفجعهم ويدفعهم إلى الإحجام عن الخروج »[٣].

---

(١) يقصد أن مجتمع يثرب ليس إلا ماخورا كبيرا ، فماذا يتوقع الجندى العائد من الغزو إلا أن يجد زوجته فى أحضان عشيق ؟

(٢) هكذا جاء تركيب الجملة فى كلام مولانا الشيخ .

(٣) مجتمع يثرب / ٨٢ ـ ٨٣ . وسوف أورد بعد قليل حديثا للرسول عليه السلام ينصح أصحابه العائدين من الغزو نهارا أن يؤجلوا دخولهم على =

إن ما يفتريه خليل عبد الكريم على سيّد الخلق ليس له إلا معنى واحد هو أنه ﷺ كان يقتّن « القوادة » ، أستغفر الله ! فانظر إلام تبلغ الوغادة ببعض الناس ! إن الرسول عليه السلام الذى حرّم دينه الزنا تحريما شنيعاً وتوعّد عليه ، وبخاصة فى حالة الزنا بالمغيبات ، توعدا رهيبا ، هذا الرسول الكريم يتحول على يد الكاتب المؤدب إلى قوّاد ، أستغفر الله وأستنزل منه اللعنة على كل عُتُلّ زنيم وفظ لئيم ! وكل ذلك لِمَه ؟ لكيلا يفقد ﷺ جهود رجال المدينة فى فتح البلاد التى يسعى إلى إخضاعها والسيطرة عليها طلبا للمجد والسلطان . لقد نسى الشيخ ما قاله هو نفسه من أن أهل المدينة فى تلك الأزمان كانوا يُخْلدون إلى فراشهم مبكرين[1] . ولنا أن نتصور ماذا يمكن أن يُحْدثه دخولُ الجيش كله مرةً واحدةً البلدَ فى تلك الظروف وطَرْقُ الأبواب جميعا فى وقت واحد وإزعاجُ الأطفال والنسوة اللائى سيقمن فى هذه الحالة بعماصهن وشعورهن المنكوشة وأفواههن المتغيرة الرائحة ، وليس فى البيوت ضوء أو ماء إلا للشرب غالبا ، لأن الماء يُسْتَقى أولاً بأول من الآبار ولا يجرى فى الصنابير أو ينزل من الدُّشّ . والكاتب المهذب أشد التهذيب يحاول أن يوهمنا أن كل امرأة فى المدينة كانت تعيش فى بيت مستقل هى وزوجها فلا حمٌ ولا حماة فى البيت

= زوجاتهم إلى العشاء لنفس السبب . فما قول الشيخ المفضال فى هذا ؟ الواقع أنه لو كان ينْشد الحقيقة فعلا لكان هذا الحديث كفيلا بإخراسه !

(١) بعد صلاة العشاء .

ولا سلفة ولا أطفال ، ومن ثم فالجو خال لها لتفعل ما تشاء . وطبعا لا خوف من الله سبحانه وتعالى على أى نحو من الأنحاء . ألم تر كيف صارت المدينة فى العقل المريض بيت دعارة ؟ ورغم ذلك فليكن المتحدث مجنونا ، أفلا يكون المستمع عاقلا ؟ فليقل محمد لهم ما يشاء عن المغيبة والشعثة ، ولْيَنْهَهم عن طرق بيوتهم ليلا كما يحب ، أفلم يكونوا يعرفون زوجاتهم وأنهن سيكنّ فى أحضان عشاقهن ؟ فلماذا لم يضربوا بكلامه ونهيه عُرْض الحائط ويسرعوا إلى بيوتهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ؟ بل لماذا خرجوا معه أصلا للغزو مادامت غايته هى إقامة دولة يكون هو فيها السلطان ، على حين أنهم لم يكونوا سوى آلات فى يده لبلوغ هذه الغاية ؟

ولقد حدث أن بعث النبى ﷺ أحد رجاله برسالة إلى بعض ملوك اليمن ، وكان من توجيهه له أنه متى جاء أرضهم أو بلادهم فلا يدخلنّها ليلا حتى يصبح ، ثم فليتطهر ويصلِّ ركعتين ويسأل الله النجاح ويستعيذ به ... إلخ (١) . أفليست هذه النصيحة هى هى نفسها تقريبا التى نصح بها جنوده عند عودتهم من الغزو ؟ أفكان هنا أيضا زنًا وقوادة كما يحاول أن يُدْخِل فى رُوع قرائه المؤلفُ المهذب العفيف ؟

---

(١) انظر على يوسف السبكى / الرسائل النبوية ـ تحقيق ودراسة / ط ١ / ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م / ٢٠٠ .

على أن هناك حديثا آخر عن جابر أنهم كانوا عائدين من إحدى الغزوات نهارا ، وكان جابر حديث عهد بالزواج آنذاك ، فنصحهم الرسول ﷺ أن يتمهلوا فلا يدخلوا المدينة إلا عشاء ، وذلك أيضا « لكى تمتشط الشعثة وتستحدّ المغيبة »[١] . أى أن مسألة التوقيت هنا عكسها هناك ، ولكن الأمر هو هو ، مما يدل على أن الحكمة فى الحالتين هى إعطاء النسوة فرصة لاستقبال أزواجهن فى أحسن حالاتهن . وفى هذا إفحام ، وأى إفحام ، لمولانا الهمّاز اللمّاز الذى يتساءل عن الحكمة فى التفريق بين الليل والنهار فى هذا الموضوع !

والعجيب الغريب أن المؤلف قد سبق له الحكم على مجتمع المدينة هذا بعكس ذلك تماما ، إذ أكد أن أحكام الإسلام قد هيمنت عليه ، وذلك لتفرده بخصائص معينة لم تجتمع لفترة أخرى فى التاريخ : ومنها وجود الرسول بين أفراده ثم الخلفاء الراشدين من بعده، ونزول جبريل بالوحى أمام أعينهم ، واشتغالهم بحفظ القرآن ودراسته مع السنة النبوية ، وحرصهم على سؤال الرسول فى كل صغيرة وكبيرة ، واستهدافهم لمؤامرات الأعداء فى الداخل والخارج، ومحدودية عددهم، وفقرهم الذى كان يدفعهم لنشدان الملاذ فى الدين[٢] . ترى ماذا يمكن أن يقال فى هذا التناقض ؟ أما تفسيرى أنا

(١) صحيح البخارى بحاشية السندى / ٣ / ٢٤٠ .

(٢) انظر « الأسس الفكرية لليسار الإسلامى » لخليل عبد الكريم / ٩١ - ٩٤ .

الزعم بأن محمدا لم يكن رسولا بل مجرّد طامح إلى السلطة

يحاول خليل عبد الكريم في كتابه « قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية » أن يقول إن الأمر بالنسبة لمحمد ﷺ لم يكن أمر نبوة بل أمر زعامة ورئاسة ، فهو ليس أكثر من حلقة في سلسلة تنتظم أجداده قُصيًا وهاشماً وعبد المطلب ، الذين كان كل منهم حاكماً على مكة وزعيماً لقريش وعَمِلَ على أن يجعل لها الزعامة على العرب كلها فلم يوفَّق إلى هذه الغاية ، إلى أن جاء محمد فكان أحسن منهم حظاً ، إذ استطاع أن يحقق ما لم يستطيعوه وأسس الدولة القرشية التى كانوا يَصْبُون إلى إقامتها، وذلك بفضل « الشروط الموضوعية » التى توفرت فى عهده ولم تتوفر لهم .

وتبدأ بقُصَىّ ، وعنه يقول الشيخ خليل إنه هو الذى جعل لقريش المكانة الكبيرة التى أصبحت تتمتع بها فى مكة ، وذلك بعد أن جمّعها فى البلد الحرام وجمع فى يده وأيدى أولاده وظائف الكعبة[١] . وهو يدْعي أن قُصَيًا قد أسس دولة مركزية فى مكة بل كان أول من حكمها، وأنه كان يهدف إلى مد نطاق هذه الدولة لتشمل جزيرة العرب جميعا[٢] ، وأنه أول من التفت إلى أهمية « المقدّس » فى بناء

(١) انظر خليل عبد الكريم / قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / سينا للنشر / ١٩٩٣م / ١٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق / ٢٢ ـ ٢٣ ، ٢٥ ، ٧٢ . وفى هذا الصدد نراه =

الدولة ونَشْرِ التماسك بين قبائل العرب ، وأن أبناءه وأحفاده قد اقتفَوا خطاه فوظفوا الدين لغايات سياسية[١] .

أما هاشم فيقول مولانا الشيخ إن إطعامه وسقايته للحجيج كان غرضهما تعريف العرب بأن فى مكة حكومة وأن هذه الحكومة جديرة بأن تحكم العرب جميعا ، وإنه كان يَصْدُر فى هذا عن إحساس بأن سيادته على المدينة المقدسة هى امتداد للسلطان الذى أسسه جدّه قُصَىّ[٢] . ومن بين الإنجازات التى ينسبها المؤلف إلى هاشم أنه هو صاحب « الإيلاف » الذى تحولت به تجارة مكة من النطاق المحلى إلى المستوى العالمى[٣] والذى كان (كما يقول) محطَّ إعجاب العرب وتقديرهم قاطبة . وهو يعتمد هنا على بيتين لابن الزِّبَعْرَى يقول فيهما :

= يتحدث عن اتجاه قُصَىّ إلى تكوين أول دولة عربية فى وسط شبه الجزيرة العربية (ص ٢٢) . وهذا غريب جدّ غريب ، فإن مكة لا تقع فى وسط شبه الجزيرة بل فى غربها ، وهو ما يدل على أن الشيخ خليل لا يبالى كيف تتشكل أفكاره ولا كيف تقع ألفاظه مما يذكرنا بالدكتور نصر أبو زيد ، الذى جعل الشافعى واحداً من رعايا الدولة الأموية وادّعى عليه مراءاة الأمويين والتقرب منهم بالباطل طمعا فى أن يولوه ولاية اليمن مع أنه لم يولد إلا بعد قيام الدولة العباسية بزمن !!

(١) السابق / ٢٣ ـ ٢٤

(٢) ص ٢٩ .

(٣) ص ٢٩ وما بعدها .

يا أيها الرجل المحوّل رَحْلَهُ   هلاَّ نزلتَ بآل عبد مناف
الآخذون العهد من آفاقها   والراحلون لرحلة الإيلاف؟

وهما ، كما يرى القارئ الكريم ، لا يدلان على شيء مما يقول المؤلف ، إذ ليس فيهما ذكر لهاشم[١] . لكن المهم هو أنه يستخلص من الإيلاف دليلا على أن فاعله لابد أن يكون حاكما لمدينة مكة المقدسة[٢] .

وعن هاشم أيضا يقول المؤلف إنه أول من أصهر إلى أمهات القبائل فى جزيرة العرب ، ثم سار على سنته ابنه عبد المطلب وحفيده محمد بن عبد الله[٣] . كذلك يدّعى أن هاشما ، من أجل إقامة الدولة القرشية ، كان يعمل على إرساء قواعد العدل الاجتماعى ، ومن ثم طالب قريشا بإطعام الحجيج وسقايتهم ، وهو ما كان يستفيد منه فى المقام الأول فقراؤهم[٤] .

ومما يستند إليه خليل عبد الكريم أيضًا فى القول بأن هاشما كان مَلِكا أو شبيها بالملك على دولة قريش ما جاء فى الخطبة التى

(١) ص ٣٢ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) ص ٣٣ ـ ٣٤ .
(٤) ص ٣٤ .

أصلح بها بين قبيلة خزاعة وعُذْرة ، إذ قال : « معاشر الناس ، نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وولد النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسلطان الحرم . لنا ذروة الشرف ولُبَاب الحسب ومعدن المجد وغاية العزّ ، ونحن جبال الأرض ودعائم الحق وسادات الأمم » (١) .

ونبلغ عبد المطلب ، الذى يؤكد المؤلف أنه شخصية باهرة استطاعت أن تستوعب النظريات السياسية فى زمنه ، ومنها عرف أن السياسة استعانت بالدين لتثبيت أركانها (٢) . وعلى هذا فقد استثمر الدينَ بكل وظائفه من رؤى وأحلام وأساطير (كما يقول خليل عبد الكريم بجمع ثقته وملء فيه) فبدأ بالرؤى والهواتف وادّعى أن آتيا أتاه فى المنام طالبا منه أن يحفر زمزم (٣) ، كما ادّعى أنه رأى فى المنام أيضا أن شابًا سيخرج من صلبه فيبنى دولة قريش ويقوم بأمرها ويملك المشرق والمغرب (٤) . ثم لم يكتف عبد المطلب بذلك بل حرص على ربط رؤاه وتعبيرها بالكهان والعالم العلوى حتى يصبح التشكيك فيها ، إن وقع ، نوعًا من التجديف والإلحاد (٥) . ليس ذلك

---

(١) ص ٣٥ .
(٢) ص ٣٧ .
(٣) ص ٤١ ـ ٤٢ .
(٤) ص ٤٣ ـ ٤٤ .
(٥) ص ٤٤ .

فحسب ، بل هو يمضى فيقول إن تقديم عبد المطلب ابنَه عبدَ الله أضحيةً للآلهة هو أحد الطقوس التى يخبرنا علماء الاجتماع بارتباطها برؤية الأحلام[(١)] . وهو يسمّى رؤيا عبد المطلب الخاصة بذبح ولده عبد الله « مسطورة » أى « أسطورة » . كما يصوّر الأمر كله على أنه خطة رسمها ذلك الشيخ بإحكام وخبث بغية الوصول إلى بعض الأهداف السياسية[(٢)] . وبالمثل يؤكد أن أمل عبد المطلب فى أن يكون هو أو أىٌّ واحد من صلبه نبيا قد شعشع فى دماغه (وهذا تعبيره) حين بشره بذلك أحد العراقين ، ومن هنا عمل على نشر هذه البشرى بين الناس[(٣)] .

على أن الأمر لم يقتصر عند عبد المطلب على استغلال الدين لأهداف سياسية بل كانت هناك وسائل أخرى توسّل بها شيخ قريش إلى إدراك تلك الأهداف : منها توثيق علاقته بمن حوله من الملوك كسيف بن ذى يزن ونجاشى الحبشة ، وعَقْد الأحلاف مع القبائل المعروفة أو الإصهار إليها ، وإجارة المضطهدين ، وإطعام المساكين . كل ذلك يذكره خليل عبد الكريم على سبيل اليقين والقَطْع مستخدمًا

(١) ص ٤٢ .
(٢) ص ٤٤ وما بعدها .
(٣) ص ٤٦ _ ٤٧ .

مصطلحات الشيوعيين كـ « الملكية الجماعية » و « الجماهير المحرومة » و « تسارع المجتمع المكى فى التفكك » و « التمايز الطبقى » و « عَرَق الكادحين » و « أصحاب الفبارك » و « عمل الشّغّيلة » و « فائض القيمة » مما سبق أن ردّد بعضا منه بحذافيره تقريبا عند كلامه عن هاشم . بل هو يدعو بصريح القول إلى الأخذ بنظرية ماركس فى تحليل الأوضاع آنذاك مع الأخذ (يا ولْداه !) بظروف مجتمعنا فى الاعتبار أثناء الاستعانة بها[١] ، كما يصوّر عبد المطلب وكأنه منظّر أو زعيم بلشفى ![٢]

وهو يجعل جدّ النبى أيضا حاكمًا ذا رعية[٣] ، ويزعم أنه استثمر حملة أبرهة على الكعبة واندحارها استثمارا ذكيا : فمثلاً لم يشأ أن يدخل فى حرب مع القائد الحبشى لمعرفته أن حرارة الصحراء وصعوبة الرحلة من اليمن إلى مكة كفيلة بإفشال الحملة[٤] ، كما

---

(١) ص ٣٠ ـ ٣١ ، ٦٧ ـ ٦٨ . وهذا الكلام هو مما يطلق عليه محمود السعدنى تهكما به وبأصحابه : « الكلام الحنجورى » !

(٢) ص ٤٧ ـ ٥٠ .

(٣) ص ٤٩ .

(٤) يقارن الكاتب هذه الحملة وما مُنِيَتْ به من هزيمة ساحقة بما حدث لجيش نابليون الذى كانت تلوح روسيا وشتاؤها القارس سببا فى رجوعه مدحورا (ص ٥٠ / هامش ٧٧) . ولا أدرى كيف فاته القول بأن عبد المطلب قد استفاد من هذا الدرس النضالى الروسى فى تحليله للأسباب الموضوعية وتوصله إلى أسرار البنية التحتية التى أدت إلى الهزيمة الأبرهية ... إلى آخر أمثال هذه الألفاظ الحنجورية !

أنه شنّ حربا نفسية عزف فيها على أوتار العاطفة الدينية المتأججة فى قلب القائد الحبشى النصرانى فأفهمه أن مكة بلد حرام وأنها فى حماية الله . ثم إنه بعد هزيمة الجيش الحبشى أخذ يشيع أنها من فعل « القوى العلوية الغيبية التى تحمى البيت »[(١)] .

هذا عن قصى وهاشم وعبد المطلب، ولا يختلف الأمر فى حالة محمد (حسب دعاوى الشيخ خليل) عن ذلك كثيرا . وهو يعدّد أولاً المقدمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى ساعدته ﷺ على إقامة الدولة القرشية مطمح أجداده من قبله بأزمان : ومن هذه المقدمات مثلا أن كلتا الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية كانت قد بلغت آخر درجات التفكك والانهيار عشية ظهور محمد على مسرح التاريخ[(٢)] . ومنها كذلك ترحيب الأنصار (الذين كانوا يتصفون بالشهامة والمروءة والنجدة وتنقصهم الحنكة السياسية فى ذات الوقت)[(٣)] به وبأتباعه حينما

---

(١) ص ٥١ . و«القوى العلوية الغيبية» ، فى مصطلح اليساريين وأمثالهم ، هى الله سبحانه وتعالى . وعلى أية حال فالقرآن يقول إن الله هو الذى دحر أصحاب الفيل ، وواضح ماذا يريد أن يقول كاتبنا الألمعى !

(٢) ص ١٣٢ ، ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٣) يقصد المؤلف بهذا أنهم كانوا طيبى القلب سذّجا فلم يستطيعوا أن يتبينوا أن محمدًا وأصحابه إنما اتخذوهم مجرد وسيلة لإدراك هدفهم السياسى ، ألا وهو إقامة الدولة القرشية (ص ١٥٠ وما بعدها) .

هاجروا إلى بلادهم ، وكان وراء هذا الترحيب تأثرهم بنظرية « النبوة » التى أخذوها عن اليهود مُساكِنيهم فى يثرب[١] . ومن هذه المقدمات أيضا تكامل شروط الرياسة من نسب شريف وحسب رفيع للقيادات القرشية[٢]، واختلال الأوضاع الاقتصادية فى مكة والمدينة مما جعل الفقراء والمستضعفين يسارعون إلى الدخول فى دعوة محمد ، التى كانت ترفع شعار العدالة الاجتماعية[٣] . والكاتب هنا يؤكد ما يقوله التحليل الماركسى (الذى يسميه بـ « الحقيقة العلمية ») من « أن الأفكار والآراء والعقائد والمعتقدات والقيم ما هى إلا إفراز أو نتاج للواقع المادى » ذاكرا فى هذا الصدد ما يدعوه بـ « علم اجتماع المعرفة » ليوهم القارئ أن كلامه كلام علمى لا يمكن لأحد أن يجادل فيه أو يعترض عليه[٤]. ومما يذكره الكاتب من هذه المقدمات أيضا اتجاه النظام القبلى إلى التفكك بحيث لم يعد صالحًا لأن يكون أساساً لأى بناء سياسى[٥] ، وتمهيد الحنفاء الطريق لمحمد كى يعلن دينه ، الذى استعان فى نشره وتدعيمه بالشعر والشعراء

---

(١) ص ١٤٨ ، ١٥٠ .

(٢) ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٣) ص ١٧٦ .

(٤) ص ١٧٧ .

(٥) ص ١٩٧ ـ ١٩٩ .

والخطباء[1] وهو فى هذا السبيل يستشهد بشعر لأمية بن أبى الصلت وغيره من معاصرى النبى عليه السلام فيه ذكرٌ لبعض العقائد والأفكار والعبارات التى تشبه ما جاء فى القرآن الكريم . يريد أن يقول إن محمدا لم ينزل عليه وحى ، ولم يفعل أكثر من أنه أخذ أفكار هؤلاء الناس وكلامهم وسبكه قرآنا وزعم أنه وحى نزل عليه من السماء !

بذلك أرجو أن أكون قد لخّصت تلخيصا صحيحا وواضحا ما قاله مولانا الشيخ . وقبل أن أدلف إلى تفصيلات آرائه وأقواله أود أن ألفت الانتباه إلى الخطإ المنهجى الذى سقط فيه ، ألا وهو العمل بكل سبيل على الإيهام بأن الرسول ﷺ هو وأجداده كانوا ، وحدهم دون أهل مكة جميعا ، أصحاب الطموح الجارف إلى الحكم والرئاسة وتوظيف الدين (أو « المقدّس » فى رطانة الكاتب) من أجل درك هذه الغاية . وفى سبيل النجاح فى هذا الإيهام لا مانع عند مولانا الشيخ من حجب وقائع التاريخ التى تفضحه وليّ أعناق النصوص وتغييرها كذبا وبهتانا حتى تنطق بما يريد لها أن تنطق به . وهو فى أثناء ذلك يمطر القارئ المسكين بالمصطلحات الطنّانة وأسماء بعض العلوم الإنسانية المنتهية بـ «لوجيا» ويكثر من التشدق بالعلمية والمنهجية ومهاجمة ما يطلق عليه « الماورائيات » و « الفوق منطقيات » ، أى

---

(1) ص ٢٠٦ وما بعدها ، و ٢١١ وما بعدها ، و٢١٥ وما بعدها .

الدين والوحى فى لغة عباد الله الذين لا يعرفون التفيهق ولا يحبونه ولا يستلطفون أصحابه جريًا على سنة رسول الله ، الذى كان ولا يزال وسيظل شجًا فى حلق كل متنطّع ثقيل !

وإذا كان الشيء بالشيء يُذْكَر فإن هناك كاتبا آخر يجرى فى ذات الميدان الذى يجرى فيه الشيخ عبد الكريم ويردّد نفس الكلام مع بعض الاختلافات الطفيفة التى يقتضيها تنسيق الأدوار بين أفراد الجوقة الواحدة ، هو د. سيد القمنى ، الذى يتحدث عن « الحزب الهاشمى ودوره فى تأسيس الدولة الإسلامية »(1) فيبدو لمن لا يعرف بواطن الأمور ولمن يجد خليل عبد الكريم يعترض عليه أحيانا أنه وكاتبنا يسعيان فى طريقينْ مختلفينْ ، على حين أنهما فى واقع الأمر متفقان تمامًا . كل ما هنالك أنهما يرميان ، بإعلان هذا الخلاف بين الحين والحين ، إلى تثبيت ما يقولانه فى عقل القارئ من خلال إيهامه بأنهما رغم الخلاف بينهما قد وصلا إلى ذات النتائج مما يدل على أنها نتائج سليمة فى حد ذاتها ، وإلا فكيف وصل كل منهما إليها من طريق غير طريق صاحبه ؟

ونعود إلى الشيخ خليل وعمله على إيهام القارئ بأن الرسول

---

(1) رغم أن عنوان كتاب خليل عبد الكريم هو « قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية » فإنه قد حصر السعى إلى إقامة هذه الدولة فى النبى صلى الله عليه وسلم وأجداده . فالرأى واحد إذن رغم الاختلاف فى العناوين .

وأجداده كانوا ، دون أهل مكة جميعا ، هم الوحيدين الطامحين إلى الحكم الطامعين في الرئاسة والوصول إليها بكل الطرق بما في ذلك الضحك على أذقان الأتباع المساكين واستغلال الدين في التغرير بهم وفي تطويعهم واتخاذهم آلاتٍ صماء عمياء توصلهم إلى هذه الغاية . فأما بالنسبة للرسول عليه السلام ودعوى طمعه في الحكم والسلطان فسوف نؤجل الحديث عنها الآن ، وأما بالنسبة لأجداده فإلى القارئ ما يلي :

لقد كان العماليق ثم الجراهمة ثم الخزاعيون على التوالي يسودون مكة قبل أجداد الرسول بأزمان طوال(١) ، وكان مضاض والسميدع الجرهميان يعشّران الداخلين إلى مكة(٢) . كذلك بلغ عمرو بن لحيّ من الشرف في مكة ما لم يبلغه أحد من قبل ، فقد كان غنيا فاحش الغنى ، وكان قوله فيها دينا يُتَّبع ، وكان يلي أمور البيت ويطعم الحجيج اللحم، وهو أول من غيّر الحنيفية(٣) .

---

(١) انظر الأزرقي / تاريخ مكة / دار الأندلس / مدريد / ١ / ٨٠ - ١٠٣، وابن هشام / السيرة النبوية / ١ / ١٠٢ - ١١٥ ، وتاريخ الطبري / ٢ / ٢٨٣ - ٢٨٦ ، وابن كثير / البداية والنهاية / دار الغد العربي / ١٤١١هـ - ١٩٩٠م / ٢ / ٥٢٧ - ٥٦٣.

(٢) الأزرقي / تاريخ مكة / ١ / ٨٢ ، وسيرة ابن هشام / ١ / ١٠٣. و« التعشير » هو تحصيل العُشْر .

(٣) ابن هشام/ ١ / ٧١ وما بعدها ، والأزرقي/ تاريخ مكة / ١ / ٨٢، =

كذلك فإن قصيًا لم يكن جد الرسول والهاشميين وحدهم بل كان جد الأمويين أيضا[١] ، إلا أن خليل عبد الكريم يتعمد ألا ينظر خارج سلسلة النسب النبوى للهدف الذى أشرت إليه قبلا ، ألا وهو تلطيخ صورة النبى وأجداده وإظهارهم بمظهر الطامعين فى السلطان الذين لا يفكرون إلا فى الوصول إليه من أى طريق .

ثم إنه ليس صحيحا أن قُصَيًّا هو أول من التفت إلى أهمية المقدَّس فى بناء الدولة (إن صحَّ أنه فعل) ، فقد كانت كلٌ من جرهم وخزاعة تلى أمر الكعبة ، ومرَّ بنا قبل قليل أن عمرو بن لحىٍّ كان يقوم بأمر البيت ويطعم الحجيج ، أما آخر من تولى الكعبة من خزاعة فهو حليل بن حبشية بن سلول ، الذى تزوج قصىٌّ ابنته حُبَّى ، وعن طريقها انتقلت ولاية البيت إليه فى خبر طويل لا يعنينا فى هذا السياق[٢] . وعلى أية حال فالكعبة والحج إليها كانا موجودين قبل

= ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٥ ـ ٩٦ ، ١٠٠ ـ ١٠٢ ، وابن كثير / البداية والنهاية/ ٢ / ٦٠٠ ـ ٦٠١ .

(١) ذلك أن قصيا هو أبو عبد مناف ، الذى أنجب هاشما وعبد شمس والمطَّلب ونوفلا . أما عبد شمس فهو أبو أمية والدِ حَرْب وجدّ أبى سفيان.

(٢) انظر ابن هشام / ١ / ١١٥ وما بعدها ، والأزرقى / ١ / ١١٥ وما بعدها ، والطبرى / ٢ / ٢٥٥ وما بعدها ، وابن كثير / البداية والنهاية / ٢ / ٦٢٣ وما بعدها .

قصىّ بدهر طويل ، وذلك منذ رفعَ قواعدَها إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام .

ومما سبق يتضح أنه ليس صحيحًا أيضًا أن قصيا هو أول رئيس لمكة كما يزعم خليل عبد الكريم أيا كان معنى الرئاسة هنا . وحتى لو حصرنا نظرنا فى أسلاف الرسول فلم يكن قصىّ أولهم ، إذ كان قبله فِهْر ، وبينه وبين قصى خمسة أبناء ، وذُكِر أنه « كان فى زمانه رئيسَ الناس بمكة »[1] .

هذا ، وقد نبهنا قبلاً إلى الخطإ المضحك الذى وقع فيه الشيخ خليل حين زعم أن قُصَيًا قد اتجه إلى تكوين أول دولة عربية فى وسط شبه الجزيرة العربية ، إذ إن مكة إنما تقع فى غرب بلاد العرب لا فى وسطها . فمن الواضح أن الكاتب ، رغم ادعاءاته العلمية الطويلة العريضة ، لا يعرف شيئا عن خريطة بلاد العرب ولم يكلف نفسه مراجعة أحد الأطالس قبل الشروع فى تسويد ما سوّد من صفحات . وحقٌ له بالطبع أن يفعل ذلك ، فمثله غنىّ عن التثبت والتحقيق ، ويكفى أن يقول حتى يكون ما يقوله هو مقطع الحق الذى لا يأتيه الخطأ من أى جانب مهما جاء مخالفا لحقائق الواقع . ذلك أن على الحقائق أن تكون كما يقول هو لا كما هى فى الواقع !

(١) الطبرى / ٢ / ٢٦٢ _ ٢٦٣ .

وعلى أية حال فإن الرئاسة والزعامة هنا إنما هما فى أغلب الظن زعامة قبلية ومكانة اجتماعية أكثر منها أى شىء آخر ، وإلاَّ فأين الجيش مثلا والشرطة والوزراء ؟ وكذلك أين الشعراء والخطباء الذين كانوا يحيطون بالحكام والأمراء فى بلاد العرب ؟[١]

ومن ادعاءات الكاتب العجيبة أن قُصَيًّا كان يعمل على نشر التماسك بين قبائل العرب عن طريق شعيرة الحج ، كما كان يهدف إلى إقامة دولة قرشية تبسط سيادتها على جميع العرب [٢]. ووجه العجب فى هذا الادعاء أن ملوك اليمن أنفسهم لم يفكروا فى أن يمدّوا سلطانهم خارج حدود بلادهم رغم أنهم كانوا أصحاب ملك موغل فى القِدَم وحضارة مزدهرة وتحت أيديهم الجيوش المجيَّشة ،

(١) ولعل هذا هو السبب فى أن سيد أمير على ، فى كتابه عن تاريخ العرب، لم يسم قصيًا مثلا « ملكا » أو « أميرا » بل اكتفى بالقول بأنه كان « سيد مكة » ، وإن زعم مع هذا أنه قد استطاع بعد ذلك مد سلطانه على الحجاز كله . وهو بطبيعة الحال زعم لا أساس له ، فالحجاز ليس هو مكة فحسب بل يشمل معها الطائف والمدينة وتبوك وغيرها من البلاد، ويمتد مئات الكيلو مترات بطول الحدود الغربية للجزيرة العربية ، فأين هذا كله من مكة التى لم تكن آنذاك تزيد على مساحة قرية صغيرة (Sayyed Amir Ali, A Short History of Saracens, Kutub Khana Ishayat-ul-Islam, Delhi, 1979, pp. 5 - 6).

(٢) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ٢٤ ـ ٢٥ .

فكيف يفكر أى مكى ، قُصَيًا كان أو غيره ، فى طىّ العرب كلهم تحت جناح حكمه ، وفى ذلك الوقت المبكر ، وفى قفزة واحدة من القبيلة إلى دولة توحّد قبائل العرب جميعهم شماليهم وجنوبيهم ، ودون أن يكون تحت يده جيش جرّار وميزانية ضخمة ومستشارون ووزراء دهاة مُضَرَّسون ؟ إن هذا لمن عجائب المنهج العلمى العبكريمى ، وهو شىء لم نسمع به لا فى الكتب ولا من أفواه العلماء ولا الجهلاء ! ولكن ماذا ننتظر من مثل كاتبنا الذى يقول فى ثقة وفى يقين مطلق لا يستطيعه أى عالم إن عبد المطلب كان يحيط بالنظريات السياسية المعروفة فى العالم على عهده ؟ ألا بارك الله فيك من كاتب عبقرى فريد ! طيب ، إذا كان قصىّ هو فعلا كما يقول عبقرينا الفذّ ، فكيف نعلّل ذهاب حفيده عبد المطلب بعد عدة أجيال فى وفد من قريش إلى سيف بن ذى يزن لتهنئته على قتل الأحباش واسترداد الملك لحمير كرة أخرى ، وقيامه خطيبا (بعد إذن العاهل اليمنى له بقوله : « إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنّا لك ») ومخاطبته إياه بـ « أيها الملك رأس العرب الذى له تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى تلجأ إليه العباد » ، وردّه على سؤال الملك إياه عن شخصه ونسبه ورفقته قائلا : « نحن أهل حرم الله وسدنة بيته ... (و) أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف »(١) ؟ إن هذا

(١) انظر « أخبار مكة » للأزرقى / ١ / ١٥٠ - ١٥١ .

كله ليس له إلا معنى واحد ، وهو أن عبد المطلب لم يكن ملكاً ولا رئيساً بأى حال على قريش، إنما هى السدانة كما قال بلسانه ليس غير . بل لقد رأينا كيف لم يعْرِفه سيف فطلب منه أن يقدم نفسه . وفوق ذلك فها هو ذا عبد المطلب ذاته يلقب سيفا بـ « رأس العرب وعمودها ومعقلها » . وهذا كله بعد انقضاء عدة أجيال بعد قصىّ مما يكذّب المزاعم الهشّة التى يؤلّفها كاتبنا فى خفة ولامبالاة تكذيباً عنيفا يصكّها صكّا ويسحقها سحقا ! وعلى أية حال فسوف نأتى إلى عبد المطلب فى حينه ، وسوف نرى معاً كيف أنه كان من المستحيل أن يكون حاكماً لمكة على أى وضع .

وإذا كان الشيخ خليل يشير إلى أن ثمة مقالة يكررها الأخباريون كثيرا عن قصى ، وهى أنه « أول من أصاب مُلْكاً أطاع له به قومه»[(١)] ، فقد قيل أيضاً عن جده البعيد فهْر إنه « كان فى زمانه رئيس الناس بمكة » [(٢)]، وقيل عن جدّه الأبعد قيذر بن إسماعيل إنه « أول من ملَكَ من ولد إسماعيل » [(٣)]، وذُكِر عن نابت أخى

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ٢٥ ، وإن لم يذكر بالاسم أحدا من هؤلاء الأخباريين . وفى ابن هشام (١ / ١١٥) : « وكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه » ، وهذه العبارة موجودة بنصها فى « البداية والنهاية » لابن كثير (٢ / ٦٢٥) .

(٢) تاريخ الطبرى / ٢ / ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٣) المرجع السابق / ٢ / ٢٧٦ .

قيذر هذا أنه « كان الرئيس بعد أبيه (إسماعيل) والقائم بالأمور الحاكم في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم » ، ثم جاءت جرهم فأخذت الملك من أيدى بنى إسماعيل ثم جاءت خزاعة فأخذت الملك من جرهم (١) ... وهكذا . فكلام الأخباريين عن قصى غير دقيق كما ترى ، وينبغى من ثم ألا يؤخذ على حرفيته ، لكن خليل عبد الكريم يأخذ ما يحلو له ويسكت عما عداه مما يناقضه وقد يهدمه ، وذلك لغرض فى نفسه .

هذا عن قصى ، فماذا عن هاشم ؟ الواقع أن كل ما قاله الكاتب عن هاشم لا ينهض على أى أساس إلا أساس التدليس . ذلك أنه لم تكن فى يد هاشم أية سلطة سياسية أو عسكرية البتة ، إذ عقب موت قصى انتقلت كل الزعامات التى كانت فى يده إلى يد ابنه عبد الدار ، الذى تنازع أولاده من بعده وانتهى الأمر بانتقال الزعامة الدينية إلى بنى ابنه عبد مناف (والد عبد المطلب جدّ النبى) ، أما الزعامتان السياسية والعسكرية (وهما اللتان تحتاجهما الدول فى نشوئها وبقائها) فذهبتا إلى عبد شمس جد الأمويين (٢) . يعنى أن كل طنطنات خليل عبد الكريم هى مجرد طلقات من مسدس صوتٍ قد تخيف الأطفال لكن ليس لها فى نفوس الرجال أى تأثير ! وعلى هذا

---

(١) البداية والنهاية « لابن كثير » / ١٢ / ٥٩٨ ـ ٥٩٩ .

(٢) انظر الأزرقى / ١ / ١١٠ ـ ١١١ ، والطبرى / ٢ / ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، وابن هشام / ١ / ١١٩ ـ ١٢٢ ، وابن كثير / ٢ / ٦٢٧ ـ ٦٢٩ .

فقوله إن إطعام هاشم وسقايته الحجيج إنما كان غرضه تعريف العرب بأن في مكة حكومة جديدة بأن تحكمهم جميعا هو قول لا معنى له ولا رأس ولا ذيل ، إذ لم يكن في يد هاشم إلا الرفادة والسقاية (١) ، وما لهاتين الوظيفتين وللحكومة والملك ؟ على أن التدليس لا يقف عند هذا المدى ، وهو ليس بالهين القليل ، بل يجتازه إلى الادعاء بأن هاشما هو الذى حوّل تجارة مكة من المحلية إلى العالمية ، وذلك بحصوله على كتاب أمان من قيصر وأخْذه « الإيلاف » من القبائل التى كانت تمرّ بها تجارة قريش، ثم تشجيعه إخوته على الحصول على مثل ذلك من الملوك الآخرين(٢) . والواقع أن صنيع هاشم هنا لا يزيد عن صنيع أى من إخوته ، فقد حصلوا على كتب الأمان والإيلافات مثلما فعل هو سواء بسواء ، وليس فى كتب التاريخ أى حديث عن تشجيعه أحدا منهم على ذلك (٣) . لكن الشيخ عبد الكريم يحوّر

---

(١) الأزرقى/١/ ١١١ ، وابن هشام ١ / ١٢٥ ، و Sir William Muir, The Life of Mohammad, John Grant, Edinburgh, 1912, pp. CIX - CX. وهاتان الوظيفتان قد ورثهما عنه أخوه المطلب ثم ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم من بعده ، وهذا تفسير قول عبد المطلب لسيف بن ذى يزن كما مرّ بنا : « نحن أهل حرم الله وسدنة بيته » .

(٢) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ٢٩ وما بعدها .

(٣) انظر تاريخ الطبرى / ٢ / ٢٥٢ ، و « السيرة الشامية » لمحمد بن يوسف الصالحى / تحقيق د. مصطفى عبد الواحد / المجلس الأعلى =

النصوص على هواه ليستخرج منها من النتائج ما لا وجود له إلا فى الأوهام ، ومنها أن هاشما كان حاكما لمكة لا مجرد شيخ قبيلة ، إذ إن الذى يحصل من الملوك على كتب الأمان هذه ويلقى التكريم على أيديهم لا بد (فى زعمه) أن يكون حاكما حقيقيا لا مجرد زعيم قبلى (١) . وهذا كله زيف وتدليس ، فهاشم لم يكن فى يديه (كما أوضحنا ذلك من كتب التاريخ نفسها) أية سلطة سياسية أو عسكرية ، فضلا عن أن دوره فى الحصول على كتب الأمان والإيلافات لا يتميز ولا يزيد بأية حال عما قام به أى من أخوته . ليس ذلك فقط ، بل إن دعواه بأن هاشما هو أول من خرج من قريش فى تجارة رأن تجارتها قبله لم تكن تعدو مكة ، إذ كان الأعاجم يقدمون إليها بالسلع فيشترى منهم المكيون ويبيعون ، هى دعوى مملوءة غشا وتدليسا ، فقد ذكر الطبرى وابن كثير مثلاً أنه كانت لقريش عير تخرج وتعود بالتجارة قبل ذلك بعدة أجيال (٢) .

= للشؤون الإسلامية / ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م / ١ / ٣١٦ - ٣١٧ ، و
Sir William Muir, The Life of Mohammad, pp. CX - CXI.
وقد أخذ هشام لقريش حبلا من ملوك الشام ، وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشى الأكبر ، وأخذ لهم نوفل حبلا من الأكاسرة ، وأخذ لهم المطلب حبلا من ملوك حمير .

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ٣٢ .

(٢) انظر تاريخ الطبرى / ٢ / ٢٦٣ - ٢٦٤ ، وابن كثير / ٢ / ٦١٩ .

ومما يستند إليه الشيخ خليل فى زعمه أن هاشماً كان كالملوك على دولة قريش تدخُّله لإصلاح ذات البين بين القبائل المتنازعة ، ومنه الصلحُ الذى توصل إليه بين قبيلتى عذرة وخزاعة والخطبةُ التى ألقاها فى هذا الصلح والتى افتخر فيها بأنهم « آل إبراهيم وذرية إسماعيل وولد النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسلطان الحرم » (١) . ولستُ أدرى ما العلاقة بين هذه المقدمة والنتيجة التى استخلصها ، فما أكثر الذين يُصلحون بين الناس ، وما أكثر الذين يفتخرون بأصولهم دون أن يفهم أحد من هذا أنهم ملوك أو كالملوك ، وإلا كان الملوك من الكثرة بحيث يُسَامُون كل عشرة بقرش ، وربما بأقل من ذلك ! ولنلاحظ أن هاشما يفتخر بضمير الجماعة يقصد بذلك قريشاً كلها ، ولم يَرِدْ فى كلامه ما يُفْهَم منه أنه كان حاكما على مكة بأى وضع من الأوضاع . وهذا طبيعى ، إذ لم يكن فى يده إلا الزعامة الدينية كما قلنا من قبل أكثر من مرة لعلّ أصحاب القلوب الغُلْف يُقَدَّر لهم أن يعقلوا ويفهموا ! ثم إن آخر الرواية التى أوردها الكاتب نفسه تدل على ما نقول ، إذ جاء فيها أن الفريقين ، بعد أن دعاهما إلى نبذ الحرب ورأب الصدع ، قد أجاباه قائلين : « قد رضينا بحكمك يا أبا نضلة » ، وهو ما يدل على أنه

---

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ٣٥ ـ ٣٦ .

كان مجرد حَكَم قد يُقْبَل حُكْمه وقد يُرْفَض ولم يكن مَلِكا لايستطيع الفريقان إلا النزول على ما يقول . مُجَرَّدَ حَكَم كان هاشمٌ إذن ، تماما كالكاهن الذى لجأ إليه هو وأمية ابن أخيه عبد شمس حينما تنافرا فذهبا إلى كاهن من بنى خزاعة ليحكم بينهما (١) . أتراه لو كان مَلِكا أكان يجرؤ أحد على منافرته ، أو كان هو يحتكم إلى واحد من رعيته ؟ لقد هُزِلت الملكية إذن والملوك !

وبالمناسبة فقد سبق لباحث مصرى آخر ينتمى إلى أسرة مسلمة أيضًا أن زعم أن كل ما عمله الرسول ﷺ حين رفع راية النبوة لا يختلف فى شىء تقريبًا عما فعله جدّه هاشم . وهذا الباحث هو د. محمد عبد الحى شعبان ، الذى يعتمد مثل الشيخ خليل عبد الكريم على التحليلات الماركسية لأحداث التاريخ وتصرفات الأفراد والجماعات ، وإن لم يذهب فى الادعاء إلى درجة القول بأن هاشما كان حاكما على مكة بل اكتفى بأنه كان تاجراً بارعًا فى تنظيم القوافل وعنده شىء من الاهتمام بالفقراء والرغبة فى تحسين أحوالهم بإشراكهم فى تجارة مكة (٢) .

---

(١) انظر تاريخ الطبرى / ٢ / ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

(٢) انظر د. محمد عبد الحى شعبان / ثورة الإسلام فى ضوء ظروف البيئة التى ظهر فيها / ترجمة وتفنيد د. إبراهيم عوض / مكتبة زهراء الشرق/ ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م / ١١ ، ١٨ ـ ٢٠ ، ٣١ ـ ٣٣ . وانظر ردّى على ذلك من ص ٦١ فصاعدا فى الكتاب المذكور .

وبهذا نصل إلى عبد المطلب وما قاله خليل عبد الكريم فيه ، وهو لا يقلّ عما قاله فى هاشم غشا ولا زيفاً ولا ليّا للنصوص ولا قسراً لها لكى تنطق بما فى قلبه لا بما فيها ، فما الذى قاله يا ترى ؟ أول شىء قاله (وأرجو من القارئ ألا يضحك رغم معرفتى بأن مثل هذا الطلب هو من الصعوبة بمكان لأن شر البلية ما يضحك) هو أن عبد المطلب « شخصية باهرة استطاعت أن تستوعب الأفكار أو النظريات السياسية التى كانت سائدة فى زمانها وكيف أن السياسة اختلطت بالدين أو بمعنى أصح خلطته بها لتثبيت أركانها ، وهو ما قام به حكام الإمبراطورية الرومانية الشرقية على وجه الخصوص ، فقد كان قسطنطين (٣٠٦/٣٣٧م) يعتبر نفسه مبعوث العناية الإلهية ، وكان ذلك بداية النموذج البيزنطى الذى يجمع فيه الإمبراطور حقًا بين القيصر والبابا . وما إن أهَلَّ القرن السادس حتى كان الإمبراطور يوجّه السياسة الكنسية وفقا لهذه النظرية القيصرية البابوية القائلة بأن الإمبراطور هو نائب الله على الأرض . إذن فى القرن السادس الميلادى بلغت نظرية خلط السياسة والحكم بالدين ذروتها وغدا الإمبراطور نائب الله على الأرض » [1] . أرأيت أيها القارئ سخفا كهذا السخف أو برودا

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ٣٧ . وقد نقل الكاتب الكلام الخاص بدولة الروم وإمبراطورها (كما ذكر) من كتاب كانتور « قصة حضارة البداية والنهاية » الذى ترجمه د. قاسم عبده قاسم إلى العربية .

يُلْقَى به ذلك السخف مثل هذا البرود ؟ عبد المطلب يستوعب الأفكار والنظريات السياسية ؟ عشنا وشفنا ! إن الكاتب يتصور أنه يتكلم عن واحد من صعاليك الخلايا الشيوعية الذين يُلْزِمهم كبار أفاقيهم بالعكوف على نظريات كارل ماركس ونبوءاته بدعوى أنها كفيلة بتفسير ما مضى من التاريخ وما هو آتٍ منه إلى نهاية الزمان وحفظها وترديدها والجدال بها واللجاج فيها (١) . ترى أية أكاديمية تخرج منها عبد المطلب؟ وأية شهادات فى علوم السياسة حصل عليها ذلك الشيخ؟ ثم لماذا بالله هذا كله ؟ الجواب عند الكاتب الألمعى هو أنه كان يخطط كسائر أسلافه (وبالذات قُصَىّ وهاشم) لإقامة دولة قرشية تبسط سلطانها على العرب . فماذا يقول القارئ إذن لو أخبرناه أن عبد المطلب لم تكن له أية سلطة سياسية أو عسكرية بتاتًا ؟ لقد رأينا أن فرع أحفاد قصى الذى يؤدى إلى هاشم فعبد المطلب (٢) قد

---

(١) تلك النظريات والنبوءات التى ثبت أنها أشد هشاشة من الفَخَّار وسحقتها وقائع التاريخ مع انهيار الاتحاد السوفييتى وثورة الكادحين فيه وفى الدول التى كانت تدور فى فلكه على الشيوعية وكل ما يمت إلى جحيمها بصلة .

(٢) انظر مثلا إلى قول الطبرى : « كان إلى عبد المطلب بعد مهلك عمه المطلب بن عبد مناف ما كان إلى مَنْ قَبْلَه من بنى عبد مناف من أمر السقاية والرفادة » (تاريخ الطبرى / ٢ / ٢٥١ ، وانظر مثل ذلك فى « سيرة ابن هشام » / ١ / ١٢٦ ، ١٣١) .

اختص بالوظائف الدينية المتعلقة بالكعبة وخدمة الحجيج ، على حين اختص فرع عبد شمس جدّ الأمويين بالجانب السياسى والعسكرى ، ومن هنا وجدنا القيادة ، غداة ظهور الإسلام ، فى يد أبى سفيان (وهو من بطن أمية) ، والسقاية فى يد العباس (وهو من بطن هاشم) [(١)]. ولا أظن القارئ قد نسى ما قاله عبد المطلب فى خطبته أمام سيف بن ذى يزن ، تلك الخطبة التى أشار فيها إلى أنهم « سدنة البيت » .

ثم لو كان عبد المطلب حاكما كما يزعم خليل عبد الكريم ، أكانت قريش تنازعه فى بئر زمزم حين أراد تجديدها بعد انطمارها وتقول له : « إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقا فأشْرِكْنا معك فيها » فلا يجد بدا من أن يذهب معهم إلى كاهنة من بنى سعد لتفصل فى هذا الخلاف بينه وبينهم ؟ ومثل ذلك يقال فى اعتراض قريش عليه عندما رأوه يحفر بين وثنَىْ إساف ونائلة ، وكذلك فى نذره (حين لقى من قريش ما لقى) لئن وُلِد له عشرة نفر ثم بلغوا

---

(١) انظر ابن عبد ربه / العقد الفريد / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٩٤٠م / ٣ / ٣١٣ وما بعدها ، وأحمد إبراهيم الشريف / مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول / دار الفكر العربى / ١٢٠ - ١٢١ .

معه حتى يمنعوه لِيَنْحَرَنَّ أحدهم لله عند الكعبة ... إلى آخر القصة المعروفة التى انتهت بمفاداة عبد الله والد النبي عليه السلام بمائة من الإبل ، إذ كان هو الذى خرجت عليه القُرْعة بالذبح كما هو معلوم[١] . ثم متى كان الحكام يحفرون بأيديهم الآبار كما فعل عبد المطلب ؟ ترى أين كان موظفو البلدية فى دولة مكة ومهندسوها وعمالها يا ترى ؟

ولستُ أجد رأيا أقرب إلى منطق العقل وأكثر تلاؤما مع وقائع التاريخ مما قاله د. شوقى ضيف من أن المجتمع المكى كان مجتمعا قبَليا، « فهو لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض فى حِلْفٍ لغرض سدانة الكعبة من جهة والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى ، ولا سلطان لعشيرة على عشيرة ، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة عليها لأحد ... ووجود ملإٍ فيها أو مجلس شيوخ لا ينقض هذه الحقيقة ، إذ لم يكن عمله يعدو عمل مجلس القبائل »[٢] .

ومما قاله الشيخ عبد الكريم عن عبد المطلب أيضًا أنه استخدم الرؤيا لتأكيد هدفه فى إقامة دولة قرشية تستغلّ الدين لغايات سياسية ، وذلك فى قوله إنه رأى ، وهو نائم ، كأن شجرة نبتت ونال رأسها

(١) ابن هشام / ١ / ١٣٣ ـ ١٣٤ ، ١٤٠ وما بعدها ، وابن كثير / ٢ / ٦٧٠ ـ ٦٧٦ .

(٢) د. شوقى ضيف / العصر الجاهلى / ط ٧ / دار المعارف / ٥٢ .

السماء فضربت بأغصانها المشرق والمغرب وخرج منها نور أعظم من نور الشمس بتسعين ضعفا ، والعرب والعجم ساجدون لها ، فأراد قوم من قريش قطعها ، غير أن شابا بلغ الغاية في حسن الوجه وطيب الرائحة منعهم من ذلك وكسر أظهرهم وقلع عيونهم . وقد حاول عبد المطلب أن يأخذ منها نصيبا ، إلا أنه أُخْبِر أنه ليس له فيها نصيب . ثم إن عبد المطلب لم يكتف باستخدام الرؤيا بل وظّف أيضاً كاهنة قرشية لتفسير هذا المنام بأن رجلا من صلبه سيخرج ويملك المشرق والمغرب ويدين له الناس (١).

وواضح من كلام الكاتب أنه يتهم عبد المطلب باختراع الرؤيا وتوظيف الكاهنة بهدف إقامة دولة قرشية تستغلّ الدين لغايات سياسية . والواقع أنه إما أن يكون عبد المطلب قد رأى هذه الرؤيا فحكى ما رأى ، وعندئذ لا داعي أبداً لأمثال تلك الاتهامات ، فإن عبد المطلب لم يكن يشمّ على ظهر يده حتى يقال إنه عرف أن حفيده محمدا سيكون رسولاً وينجح في دعوته ويدين له الناس وينتصر دينه في الشرق والغرب وتكون له دولة ، وإما أن الرواية اختُرِعَتْ بعد مجيء الإسلام ، وعندئذ

---

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ٤١ ـ ٤٤ . وقد نقل الكاتب هذه القصة عن ابن الجوزي « الوفا بأحوال المصطفى » ، وهو من المتأخرين، إذ عاش في القرن السادس الهجري .

يكون عبد المطلب أيضًا بريئا من الاتهامات التى لا معنى لها إلا أن صاحبها يعمل على الإساءة إلى النبى وآله بكل سبيل .

وأغلب الظن أن القصة مخترعة بعد الإسلام بزمن ، إذ ليس لها وجود فى « مغازى » عُروة أو « مغازى » ابن شهاب الزهرى ولا عند الأزرقى أو الطبرى أو ابن هشام أو ابن كثير مثلا . ولو كانت القصة صحيحة لتذاكرها أبو طالب وأبو لهب وحمزة والعباس أعمام النبى عليه السلام ، الذين كفر به الاثنان الأولان منهم ولم يسلم الاثنان الأخيران إلا بعد وقت طويل : أحدهما بعد سنوات من بداية الدعوة ، والثانى بعد الهجرة بزمن بعيد . على أن المضحك ، رغم ذلك كله ، قول كاتبنا اللَّوْذَعِىّ إن عبد المطلب إنما استعان بالكاهنة المذكورة ليصبح التشكيك فى الغيب الذى أدركه نوعا من التجديف والإلحاد (١) . ووجه الإضحاك هو أنه يتكلم عن الإلحاد والتجديف ، وكأنه كان لعبد المطلب محاكم تفتيش تسلخ جلد من يخالفون ما يقول وتلقى بهم فى أتون النار . وعلى كل حال فقد وقعت الواقعة يا أستاذ خليل وكفرتْ قريش كلها وعلى رأسها بعض أبناء عبد المطلب ، الذين اتهمتَهم بل اتهمتَ أبناء عبد مناف كلهم ظلما بأنهم أخذوا يذيعون هذه الرؤيا وتعبيرها بين الناس حتى « تؤتى ثمارها » كما تقول ، فما الذى حصل لهم ؟ ولا حاجة ! بالعكس كان الذى أوذى

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ٤٤ .

واضطُهِد هو وأتباعه ودُبِّرت له المؤامرات وخُطِّط لقتله هو محمد نفسه محْوَر الرؤيا . ألا شاهت الوجوه !

ويمضى الكاتب فى خيالاته الغريبة التى ما أنزل الله بها من سلطان فيفسّر خروج عبد المطلب من مكة إلى شعاب الجبال عند وصول حملة الأحباش إليها وعدم تصديه لهم على أساس أنها تفكير إستراتيجى منه أحاط بكل أبعاد الموقف ظاهرها وباطنها من معارف سياسية وعسكرية وحرب نفسية وأكاذيب دعائية ... إلخ ، إذ يقول إنه لم يحارب الأحباش لأنه كان يوقن فى قرارة نفسه أن قريشا قبيلة تجارة لا قبيلة حرب ، ولأنه كان يدرك أن حرارة الصحراء ومصاعب الرحلة من اليمن سوف تؤدّى من تلقاء نفسها إلى هزيمة الأحباش ، ثم إنه أظهر للقائد الحبشى استخفافه به وبجيشه عندما حصر كل مطالبه منه فى أن يردّ عليه إبله التى كان جيشه قد اغتصبها ، وهو لون من الحرب النفسية عضّدها بإفهامه ذلك القائد أن مكة بلد حرام لها رب يحميها مما كان له أثره العنيف عليه وعلى قواته ، وبخاصة بعد أن رفع صوته الجَهْورِىّ منشداً :

لاهُمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبنَّ صليبُهم ومحَالُهم عَدْواً محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمْرٌ ما بدا لك

ثم تابع الأمر فاستثمر هزيمة الأحباش النكراء بذكاء شديد ، إذ نسبها

إلى القوى العلوية الغيبية التى تحمى البيت (١) مدعيا أنها كرامة له ولأهل بيته ولقريش ، فآمن العرب جميعا بهذا التصور (٢).

والذى يقرأ هذا الكلام ولا يكون عنده علم بالأمر يقع فى رُوعه أن عبد المطلب كان مفكراً إستراتيجيا (strategist) من الطراز الأول تخرج من أكاديمية العلوم السياسية بموسكو (٣). إن الأمر ببساطة ، ودون حذلقات سخيفة وبعيداً عن اللمز والغمز فى الغيبيات والماورائيات ودون التمحك فى التفكير العلمى ، هو أن عبد المطلب ومعه أهل مكة قد تبينوا أنهم لا قبل لهم بملاقاة جيش الأحباش ففوّضوا أمرهم إلى الله رب البيت الذى لم يخيب رجاءهم فأرسل طيره الأبابيل على الغزاة المعتدين فأهلكهم كما جاء فى القرآن الكريم ، وهو ما لا يعجب كاتبنا فأخذ يحوم ساخراً متشككا ملقيا اتهامه على الشيخ الطيب دون ذنب جناه سوى أنه جدّ محمد عليه السلام ، مريدا بذلك تكذيب سورة « الفيل » ، التى تعزو النصر إلى الله سبحانه

---

(١) المقصود بالقوى العلوية الغيبية هو الله سبحانه وتعالى ، ولكن الكاتب يلفّ ويدور .

(٢) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ٥٠ ـ ٥٢ .

(٣) ذكرتُ « موسكو » قاصدا لِيَرْضَى الشيخ خليل ، الذى لا يحب إلا موسكو ، ولا يرى نظاما أصح من نظام موسكو ، ويرقص قلبه طربا كلما ذُكِرَتْ موسكو .

وتحدد وسيلته تحديدا صريحا لا مجال للمماراة فيه ، وهى الطير الأبابيل التى رمت جنود أبرهة بحجارة من سجّيل .

أما زعمه أن قريشا كانت قبيلة تجارة لا تعرف الحرب فهو كلام لا رأس له ولا ذيل ، ويكفى فى تفنيده أن قريشاً هذه قد حاربت ضد النبى عليه السلام ومعه حروبا عدة ولم تتقاعس عن تلك الحروب بحجة أنها قبيلة تجارة لا شأن لها بالمعارك . ثم من قال إن جيش أبرهة كانت تفتك به الأمراض والحمّى عندما ذهب عبد المطلب للقاء قائده كما قال الكاتب ؟ (١) لقد أرسل القائد الحبشى يستدعيه أول وصوله مكة ، ولم يكن الهجوم على البيت الحرام قد بدأ بعد ، ومن ثم لم تكن الطير الأبابيل قد أُرسِلَتْ عليهم ، أو إذا لم يشأ الكاتب أن يعترف بالطير الأبابيل (وهو حرّ فى أن يعترف بما يشاء وينكر ما يشاء) فلنقُلْ إن الحمّى لم تكن قد أصابت الجيش بعد ، وإلا ما أرسل إليه القائد يطلب منه التسليم ، لأن الحمّى واتخاذ التدابير اللازمة للقضاء عليها كانا كفيلين بشغله تماماً عن عبد المطلب . وإن كنتُ لا أدرى أية حُمّى هذه التى يتحدث عنها مولانا الشيخ ، ولا من أين أتى بخبرها . يقينا أن هذا كلامٌ من وحى خياله ، وإلا فليدلّنا على مصدره . وعلى أية حال فقد كانت رحلات القوافل لا تنقطع مصعّدة

(١) ص ٥١ .

إلى الشمال وهابطة إلى الجنوب دون أن تسمع بمصاعب الحرّ التى يطنطن بها الكاتب . وإذا صح ما يقوله مولانا الشيخ فكيف فات الأحباشَ يا ترى أن يؤجلوا الحملة على مكة إلى وقت يكون الجوّ فيه محتملاً ، وبخاصة أنه لم يكن هناك ما يدفع إلى العجلة فى فتحها ؟ أم أنهم ، وهم العسكريون الذين ينتمون إلى بلد متحضر ، كانوا أقل علمًا من عبد المطلب بالإستراتيجية ومتطلباتها رغم أنه لم يكن له بالحرب علم باعتراف كاتبنا ، إذ هو قرشى ، وقريش ليست قبيلة محاربة ، ولم تكن مكة بالتحضر الذى كانت عليه بلادُهم ولا بلادُ اليمن التى كانوا يحتلونها وانطلقت منها حملتهم المكية ؟

وأخيرا وليس آخرا فمن الواضح أن الكاتب يكذّب بالقرآن وما جاء فيه عن الطير الأبابيل ، ويتهم عبد المطلب بأنه نسب إلى الله زوراً وبهتانا هزيمة الأحباش . ومعنى هذا دون لف أو دوران أن محمدا بدوره قد سار على خطا جدّه فاستثمر بذكاء شديد ما كان ذلك الجدّ قد اخترعه وأذاعه حول أسباب تلك الهزيمة ، أى أن سورة « الفيل » هى من عنديات الرسول عليه السلام . هذا ما فهمتُه من كلام الشيخ خليل ، وإلا فليدلّنى أحد على فَهْمٍ آخر مقنع لما قال وأنا أرجع عن رأيى دون مماطلة أو جدال . على أنى حين أقول هذا لا أريد إحراجه ولا محاكمته على فكره واعتقاده ، فالإسلام قد أعلنها مدوّية منذ البداية : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا . أَفَأَنتَ

تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يكونوا مُؤْمِنِينَ ؟ »⁽¹⁾ ، « قُلْ : آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا »⁽²⁾ ، « فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن ، وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ »⁽³⁾ . وعلى ذلك فكما أكرّر وأعيد أنا لست من أنصار محاكمة الناس على ما يعتقدون ، وفي الكلام والكتابة متسع للرأى ونقيضه ، وللمستمعين والقراء الحُكْم على ما يستمعون ويقرأون والانحياز إلى ما يرونه مقنعاً بملء حريتهم كما يشاءون . لكن فات مولانا الشيخ أنه لو كان ما جاء في سورة «الفيل» غير صحيح لاعترض على الرسول ﷺ مشركو قومه وسخروا منه واستهزءوا به وفضحوه في العالمين . هذا ، ولا أريد أن أتحدث عن النصوص الشعرية الجاهلية التي تذكر الطير الأبابيل .

وبهذا لا يبقى أمامنا إلا محمد صلوات الله عليه وسلامه . فأما أنه كان نبيا رسولاً فهذا ما لا سبيل عندنا إلى الشكّ فيه ، ليس لأننا وُلِدْنا مسلمين ، بل لأنني قد درست شخصيته والدعوة التي جاء بها والقرآن الذى نزل عليه ووقائع حياته وعلاقاته بمن حوله وأقواله وأفعاله دراسة متأنية متعمقة ناقشتُ فيها أقوال الكافرين به من قدامى ومحدثين⁽⁴⁾ فلم أجد مناصاً أمامى من أن أعْنُوَ للحقيقة الساطعة التى

---

(١) يونس / ٩٩ .

(٢) الإسراء / ١٠٧ .

(٣) الكهف / ٢٩ .

(٤) يجد القارئ هذه الدراسات في كتبي التالية : « المستشرقون والقرآن » و « مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى » و « موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم » و «ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات =

لا ينكرها إلا من طمس الله بصره وعقله وجعل على قلبه غشاوة فهو لا يهتدى للحق طريقًا . بَيْدَ أنني أصْبِر نفسى على ذلك السخف الذى كان المظنون أنه اندثر بين الناطقين بالضاد مع اندثار المعارضة القرشية واليهودية للنبى عليه السلام ودعوته فلم يعد يردده إلا صليبيّو أوربا وصهاينتها . وعلى ذلك فإننا نستعين بالفتاح العليم الرزاق الكريم على خليل عبد الكريم ونقول : لقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام أربعين سنة من حياته يعيش حياة هادئة راعيا الغنم فى شبابه ثم متاجرا فى أموال خديجة قبل زواجه منها وبعده فلم يُؤثَر عنه أنه تطلع إلى زعامة أو رئاسة أو فكّر فى تكوين جماعة يكون قائدا لها أو عضوا من أعضائها . بل إنه ، رغم أن بعض الوظائف الدينية المرتبطة بالبيت الحرام كانت فى أيدى أفراد أسرته يتوارثونها واحدا عن الآخر ، لم يُروَ عنه أنه اشترك فى تأدية شيء منها ولا حتى مجرد الإمساك بمفاتيح الكعبة . بل لم يرد فى رواية من الروايات أنه افتخر يومًا بهذه الصلة التى تربط أسرته بحَرَم العرب الأوّل .

= الشيطانية » و « مع الجاحظ فى رسالة الرد على النصارى » و « ثورة الإسلام فى ضوء ظروف البيئة التى ظهر فيها » ، وكذلك « دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية ـ أضاليل وأباطيل » و « القرآن الكريم والحديث الشريف ـ مقارنة أسلوبية » ، اللذين أرجو أن يصدرا قريبًا ، وكتبى عن سورة « طه » وسورة « يوسف » وسورة « النجم » وسورة « الرحمن » وغير ذلك .

هذا عن حياته قبل البعثة ، أما بعد ذلك فقد بقى طوال الثلاث عشرة سنة التى قضاها فى مكة يدعو عشيرته وقومه وكل من استطاع الوصول إليه من العرب إلى الإيمان بالله الواحد الأحد واليوم الآخر وإلى العفّة والصدق والبر بالفقراء والمساكين وعدم وأد البنات وغير ذلك من القيم الروحية والأخلاقية والاجتماعية ، ولم نسمع قطّ أن قد صدر عنه ما يدلّ على تفكير في إقامة دولة قرشية . ومعلوم أن هذا كله قد أثار عليه الدنيا جميعًا إلا النّفر الذين آمنوا به . أفلو كان يريد إقامة دولة قرشية فما الذى يجعله يعادى قريشًا ، التى يعمل على أن ينشئ لها دولة ؟ ألم يكن الأحْجَى أن يتقرب إليهم ويسايرهم فيما يؤمنون به وما يحبون ما دام قصده سياسيا لا دينيا ؟ إن خليل عبد الكريم يبدئ ويعيد فى الكلام عن « المقدّس » (أى بالعربى : استغلال الدين لأهداف دنيوية) . لقد كان ذلك « المقدّس » موجودًا متمثلا فى الكعبة والحج إليها والأصنام القائمة فى ساحتها والقرابين التى تقدّم إليها والسدانة التى كان زمامها فى أيدى أهله والرفادة والسقاية اللتين كانوا يشرفون عليهما ، فما الذى جعله يرفس هذا كلّه، وكان قمينا أن يُبلغه مأمله من أقصر طريق وبأسرع وجه ، ويذهب فيضيّع وقته وجهده ويعرّض نفسه ومن اتبعوه للآلام وصنوف التعذيب والمؤامرات التى مرّرت عيشتهم وأدّت بهم إلى الخروج من ديارهم وأموالهم بعد أن فقدوا عددا من أعز أهليهم وأصدقائهم قتّلتهم

قريش ؟ إن المؤلف يصف محمداً وأجداده بـ « الذكاء الشديد » (لغاية معينة فى نفسه طبعا ، وليس لوجه الله) ، فأين الذكاء « العادىّ » فضلا عن « الشديد » فى تنكُّب الطريق السهلة والإصرار الغريب على اتباع الطريق التى كُلّها مشقات وعقبات كأداء وضربٌ وإهانةٌ وقتلٌ وحصارٌ وتجويع ؟ إن هذا ليس صنيع الأذكياء ! على أن الأمر قد وصل بمحمد إلى أن تعْرِض عليه قريش الحُكْمَ ضمن ما قدّمته له من عروض كى يقلع عن الدعوة التى جاءهم بها ويمشى معهم فى طريقهم ، لكنه لم يقبل ذلك العرض ومضى يدعو إلى رسالة ربه ، فما قول المؤلف إذن ؟ لقد خيّب محمد ظنّه للأسف ، ولكن ما العمل ، وهذا أمر الله وحكمته؟ والملاحَظ أن قريشا ، حين عرضت عليه الملك ، لم تقل له مثلا : « سنضعك فى الموضع الذى كان يشغله أجدادك » . ودلالة ذلك لا تخفى على أىّ ذى عينين فى رأسه يبصر بهما وعقلٍ فى دماغه يفهم به أنه لم يكن أحد من أجداده ملكاً على قريش .

ثم لو كان محمد يريد إقامة دولة قرشية ، فلماذا لم ينتقل إلى مكة بعد الفتح ويجعل تلك المدينة القرشية عاصمة للدولة القرشية التى يعمل على إنشائها ، على الأقل تحسّبا لأن يتنبه الأنصار لغرضه فتأخذهم العصبية فينقلبوا عليه وهم أصحاب الديار ولهم الغلبة العددية ؟ بل إن العباس عم النبى ، حينما قال له أبو سفيان عشية الفتح :

« لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيما » ، ردّ عليه فى تلقائية متناهية : « يا أبا سفيان ، إنها النبوة ! » (١) . وبالمناسبة لم يكن هناك ما يدعو العباس إلى المداراة فى جوابه ، فقد كان أبو سفيان فى أحلك لحظات ضعفه وذلّته هو وقريش كلها ، وكان الإسلام فى عز قوته ومجده . كذلك لم يقل الرسول عن نفسه يوما إنه مَلِكٌ أو زعيم بل كان يتسمى دائمًا بـ « محمد رسول الله » ، ولم يكن فى خاتمه الذى يختم به رسائله الرسمية إلا هذه الكلمة . إن الأمويين ، وكانت فى حوزتهم القيادة والراية قبل الإسلام كما رأينا ، وكانوا أصحاب التطلعات الدنيوية بحق ، لم يفكروا آنذاك فى إقامة دولة قرشية ، فكيف يُزْعَم أن محمدا لم يكن له من هدف إلا الرئاسة والسلطان والتربع فى دست الحكم ؟

كذلك بعث محمد ، وهو بالمدينة ، برسائل إلى ملوك الأرض من حوله وإلى شيوخ القبائل وحكام النواحى فى بلاد العرب يدعوهم إلى اتباعه بوصفه رسولاً ولم يحدث أنْ ذَكَر فى أى منها ولا فى الرد عليها أنه حاكم (٢) . فماذا تقول فى هذا ؟ بل ماذا تقول فى أنه فكر

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » / ٤ / ٣٤ ، وتاريخ الطبرى / ٣ / ٥٤ .
(٢) يُنْظَر فى ذلك كتاب « الرسائل النبوية ـ تحقيق ودراسة » لعلى يوسف السبكى / ١٢٧ ـ ٣٢٧ .

أصلاً في إرسال هذه الخطابات ؟ أذلك عمل رجل يسعى إلى السلطان السياسى؟ إنه هو الجنون بعينه ، إذ ما المدينة بل ما محمد نفسه (لو نزعنا عنه صفة الرسالة والاتصال بالسماء) بالقياس إلى كسرى وقيصر بل بالقياس إلى المناذرة والغساسنة بل بالقياس إلى أى حاكم محلى ؟

ومما له أيضًا مغزاه الجلىّ الذى لا يَعْمَى عنه إلا من كان فى قلبه زيغ عن الحق وحقد على الرسالة الإسلامية وصاحبها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعلنها صريحة مجلجلة ألاّ فضل لقرشى على غيره إلا بالتقوى والعمل الصالح .

ومما له مغزاه كذلك أن أحدا من الوفود التى أقبلت تسعى إلى المدينة من كل أرجاء الجزيرة سنة تسع للهجرة ، عندما بلغت دولة المدينة ذؤابة قوتها وهيمنتها على بلاد العرب ، لم يحدث أن خاطب النبىَّ عليه السلام بلقب المُلْك أو الرئاسة ، بل كان محمد عندهم هو محمدا النبى والرسول رغم أنه كان حاكما فعلا . لقد كانت الرسالة هى الأصل ، أما الحكم فليس إلا وسيلة لتطبيق مبادئ هذه الرسالة ، ومن ثم كان نداء المسلمين له بـ « يا نبى الله » أو « يا رسول الله » ، وإن ظل فريق من البدو الخشنى الطباع يقولون له : « يا محمد » أو « يا ابن عبد المطلب » مثلا . ولم يقع قط أن خاطبه أحد بـ « يا أيها الملك » أو حتى بـ « يا أيها القائد » !

بل لماذا نُتْعب أنفسنا كل هذا التعب ، وها هو ذا محمد ، بعد إقامة دولة المدينة وفتح مكة وبَعْثِه بالرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، يظل يحيا حياته البسيطة ولا ينهج نهج الرؤساء أصحاب الدول فيحيط نفسه بالجلاوزة والشرطة ، ويجلس على عرش يحفّ به الوزراء والقادة ، ويقيم في القصور الباذخة الشامخة بدل الحجرات الشديدة التواضع التي كان يُسْكِن فيها زوجاته ، ويأكل الأطعمة المترفة الفاخرة لا من بسيط الطعام وخَشِنه في معظم الأحيان ومن عاديّه في الأحيان الأخرى . ولقد بلغ من تواضعه أن كان بعض الأعراب البُداة الجُفاة يشدونه من طوق جلبابه حتى ليؤثر ذلك في رقبته ويكلمونه بكلام خشن فلا يفكر مجرد تفكير في التنكيل بهم أو حتى معاقبتهم مع أنه لو شاء كان قادراً على قتلهم . ومعروفةٌ العبارة التي قالها للرجل الذي ارتعد وهو يكلمه ، إذ طمأنه بقوله النبيل الذي لا يمكن صدوره من فم ملك : « هوِّن عليك يا أخي . إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة » . كما نهى صلى الله عليه وسلم أتباعه أن يقوموا له عند إقباله عليهم كما تفعل الأعاجم في تعظيم بعضهم البعض ... إلخ ... إلخ .

وفي النهاية لا بد من الإشارة إلى أن الكاتب نفسه ، في كتاب

آخر له ، قد نفى عن النبى عليه السلام (حتى بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولة الإسلام فيها) أنه كان ملكا أو سلطانا [١] . المؤلف نفسه هو الذى قال هذا ، ومعنى ذلك بكل بساطة أن كل ما قاله بطول هذا الكتاب الذى بين أيدينا هو هراء فى هراء !

ولقد سبق أن حسم هرقل منذ أزمان متطاولة هذا الهراء الذى يشغل به الكاتب نفسه وقراءه بالباطل ، إذ لـمّا وصلت هرقلَ رسالةُ النبى له يدعوه إلى الإسلام استدعى أبا سفيان ، الذى تصادف وجوده آنذاك فى فلسطين قريبا من قيصر الروم ، فسأله بضعة أسئلة بغرض الاستعلام عن شخصية محمد ومدى صدقه فى دعوى النبوة كان من بينها السؤال التالى : « هل كان مِنْ آبائه من ملك ؟ » ، وهو السؤال الذى أجاب عليه أبو سفيان بالنفى ، وكان تعقيب هرقل أنه « لو كان من آبائه من ملك لقلتُ : رجل يطلب مُلْكَ أبيه » [٢] . وبالمثل كان تعليق باذان والى اليمن من قِبَل الفرس على الرسالة التى بعث بها النبى إليه وما جاء فيها : « ما هذا بكلام مَلِك . إنى لأرى

---

(١) انظر كتابه « مجتمع يثرب ـ العلاقة بين الرجل والمرأة فى العهدين المحمدى والخليفى » / ١٧ .

(٢) صحيح البخارى بحاشية السندى / ١ / ٨ . وانظر كذلك « تاريخ الطبرى » / ٢ / ٦٤٨ ، و « البداية والنهاية » لابن كثير / ٢ / ٧١٦ ، و « الرسائل النبوية » لعلى يوسف السبكى / ١٤١ - ١٤٣ .

الرجل نبيا كما يقول » (١) . ولكن هذا إنما يفيد لو كانت القلوب سليمة من الغلّ القتال ولم تكن موصدة بأقفال العناد والحمق والسفاهة !

هذا ، وقد أشرنا قبلا إلى ما هدف إليه الكاتب من الربط بين الحنفاء والنبى عليه السلام ، وهو الزعم بأن محمدا لم يتنزل عليه وحى ، بل كل ما هنالك أنه أخذ أفكار هؤلاء الناس وكلامهم وسبكه قرآنا وزعم أنه وحى نزل عليه من السماء . وهذا نص كلامه : « لم يكن تحول الحنيفية إلى حركة قاصراً على اعتناق عدد كبير من المتنورين العرب إياها بل فى البصمات العميقة الغَوْر التى تركتها على الفكر الدينى الخالف لها فى جزيرة العرب (٢) » . فبادئ ذى بدء كان للحنيفية الفضل فى نشر عقيدة التوحيد وتجذُّرها واستهجان عبادة الأوثان والسخرية منها ومن عبّادها والكشف عن زيف ما كانوا ينسبون إليها من قدرات وتهيئة الأذهان إلى الإيمان بالبعث والنشور والحساب

---

(١) على يوسف السبكى / الرسائل النبوية / ١٦٣ .

(٢) يقصد الكاتب بـ « الفكر الدينى الخالف لها فى جزيرة العرب » الدعوة الإسلامية . ولنلاحظ كيف يسميها « فكراً » لا وحياً . يعنى أنها من ابتداع محمد لا دينٌ نزل من السماء . ولنلاحظ أيضاً كيف يجعل للحنيفية بصمات عميقة الغور على محمد ودينه ، الذى يجعله (كما رأينا) فكرا بشريا . ولنتابع القراءة حتى نتعرف على البصمات المدّعاة .

والجنة والنار ... إلخ . أما في نطاق التعبديات والسلوكيات والأخلاقيات فقد تركت من ورائها سُنَنا ترسّخت : منها تحريم الربا ، تحريم شرب الخمر وحدّ شاربها ، تحريم الزنا وحدّ مرتكبه ، الاعتكاف في غار حراء في شهر رمضان والإكثار من عمل البر وإطعام المساكين والفقراء ... ، وقطع يد السارق ... ، تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ... ، والنهي عن وأد البنات وتحمل تكاليف تربيتهن ... ، والصوم والاختتان والغُسْل من الجنابة »[1].

وقد أورد الكاتب بعضا من الأشعار والأقوال المنسوبة إلى هذه الطائفة وتريَّث عند أمية بن أبي الصلت أكثر مما صنع مع غيره . ومما قاله عن ذلك الشاعر أن جواد علي « يرى أن في أكثر ما نُسِب إلى أمية بن أبي الصلت من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار تشابه كبير[2] وتطابق في الرأي جملة وتفصيلا لما ورد

---

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) الصواب في هذا السياق : « تشابها كبيرا وتطابقا » ، لكنها في سياق د. جواد علي صحيحة . وسبب هذا الخطإ هو أن الكاتب لا يحسن النحو والصرف فأدخل على عبارة جواد علي التي أخذتْ تحتها خطًا الحرف « أن » ، وهو يقتضي نصب « تشابه كبير وتطابق » ، وكان ينبغي عليه أن يستخدم أداة أخرى لا تقتضي نصب هذه الكلمات الثلاث ما دام قد نقل كلام جواد علي بنصه ، لكنه (كما قلت) لا يحسن قواعد اللغة. وسوف أتناول هذه النقطة بشيء من التوسع لاحقا .

عنها في القرآن الكريم بل ونجد في شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوى » [١]. وهو يضيف في موضع آخر من كتابه ما يلي : « وقد تأثر بعض شعراء الحنيفية وغيرهم باليهودية والنصرانية ، وظهر ذلك واضحا في شعرهم . وهذه نظرية أحمد أمين... . نذكر بعض الأبيات لأمية بن أبي الصلت عن جبريل أمين العرش وميكائيل ... وعن مريم عليها السلام عندما ظهر لها جبريل ليهبَ لها غلاما زكيا... . إن شعر الحنفاء كانت له اليد الطولى في الجانب العقائدى والدينى ، إذ إنه حرث الأرض ومهّدها لتلقّى بذرة عقيدة التوحيد التى جاء بها الإسلام » . ثم يشير في الهامش إلى أن الأبيات التى أوردها لأمية قد التقطها من كتابَي « الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية » للدكتور سيد القمنى و « الخلافة الإسلامية » للمستشار العشماوى ، وأن من أراد المزيد من الاطلاع في هذه الخصوصية فليرجع إليهما [٢].

والآن ما معنى ذلك الكلام ؟ معناه ، كما هو بيّن جلىّ ، أن بعض الحنفاء ، ومنهم أمية بن أبي الصلت ، قد تأثروا باليهودية والنصرانية ، وأنهم قد تركوا بصمات عميقة على فكر محمد الدينى

---

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية / ١١٩ .
(٢) المرجع السابق / ٢١٤ .

المتمثل فى القرآن والحديث[١] والذى يقول كاتبنا إن فى أكثر ما نُسب لأمية تشابها كبيرا فى الألفاظ والمضامين معه [٢]. وقد أحال (فى هذا المقام) إلى د. القمنى ود. العشماوى ، وسوف أقف عند الأول منهما لكثرة ما ذكره الشيخ خليل فى كتاباته ولأن كتاب «الحزب الهاشمى» الذى يحيل إليه هنا مصدَّر بكلمة له يمدحه ويمدح صاحبه فيها مدحًا بلا حدود ، فهو يقول مثلا إن المؤلف «يمتلك باقتدار نظرة موضوعية علمية فى معالجته لوقائع التاريخ ودراسته

(١) الكاتب هنا يردد سخافات بعض المستشرقين ، كنيكلسون مثلا الذى يؤكد أن محمداً ﷺ كان واقعًا تحت تأثير الحنفاء وأنه من الممكن أن يكون قد وجد فيهم الحافز الذى دفعه إلى إعلان الرسالة . Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge University Press, 1979, p. 150 . وقد ناقشت هذه القضية تفصيلا فى كتابى «مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى» (مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م / ١١٦ ـ ١٢١، ١٢٩ـ ١٤٠) .

(٢) لا أظن القارئ إلا قد تنبه إلى ما فى كلام الكاتب الذى نقلناه هنا من تناقض: فهو يقول إن الحنفاء هم أصحاب الفضل فى نشر عقيدة التوحيد وتجذرها ... إلخ ، ثم يعود فيقلّص دعوة الإسلام للتوحيد إلى أن تصبح مجرد «بذرة» بما يفيد أنه لم يسبق أحد الإسلام فى هذا الصدد، لأنه ليس قبل البذر شيء . ودعك من الططنة بأن الحنفاء قد نشروا بين العرب عقيدة التوحيد وجذّروها ، إذ الحقيقة أن العرب كلهم ، عدا نفرا ضئيلا جدا ، ظلوا وثنيين . بل إن الأغلبية الساحقة منهم ظلوا متمسكين بها بمنتهى العنف حتى بعد الإسلام بل بعد الهجرة بعدد من الأعوام .

لها وتحليلها التحليل الصحيح وردّها إلى الأسباب المباشرة والتى تتفق مع المنطق والتفكير السليم دون حاجة إلى الماورائيات والفوق منطقيات والأحاجى والألغاز » (١). والمقصود بذلك هو أنه ينبغى فى نظر كاتبنا تفسير التاريخ فى ضوء الجهد البشرى وحده دون الإحالة إلى إرادة الله تعالى ، الذى هو فى غنى عن العالمين كما يقول (٢)، وكأن الله سبحانه وتعالى قد ترك العالم والتاريخ والحضارة وكل شىء للبشر يفعلون بها ما يشاءون ، وأصبح لا يشغله شىء من أمور الدنيا وأهلها ، ولم يبق إلا أن يقول مولانا الشيخ عنه (أستغفره سبحانه) إنه لم يعد أمامه سوى إمضاء الوقت واضعًا يده على خده دونما عمل ! فماذا نجد عند الدكتور القمنى ، الذى يمتلك باقتدارٍ نظرةً موضوعية علمية فى معالجة التاريخ تنأى به عن الماورائيات والفوق منطقيات ... إلى آخر هذا الهراء الحنجورى ؟ إن ذلك الدكتور الموضوعى الأمين ، بعد أن يورد عدة شواهد من شعر أمية تتفق مع القرآن فى اللفظ والمضمون إلى حد بعيد (وهى الشواهد التى التقط بَعْضَها فى كتابه مؤلِّفنا الموضوعى الآخر ذو النظرة العلمية فى معالجة التاريخ الشيخ خليل) ،

(١) من مقدمة كتاب « الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية » / سينا للنشر / ١٩٩٠م / ٧ . وقد ردّ عليه القمنى التحية بمثلها فى الحال فلقّبه فى آخر المقدمة بـ « الأستاذ الشيخ خليل عبد الكريم » خالعًا بذلك عليه « الأستاذية » و « المشيخة » فى آن واحد وبجرة قلم واحدة ! ولم لا ؟ هل توزيع الألقاب عليه جمرك ؟

(٢) نفس المرجع والصفحة .

يعقّب عليها قائلا : « ويقول جواد على ما نصّه : « وفى أكثر ما نُسب إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات ووصف ليوم القيامة والجنة والنار تشابه كبير وتطابق (١) فى الرأى جملة وتفصيلا لما ورد عنها فى القرآن الكريم ، بل نجد فى شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة فى كتاب الله والحديث النبوى قبل المبعث ، فلا يمكن بالطبع أن يكون قد اقتبس من القرآن لأنه لم يكن منزّلا يومئذ ، وأما بعد السنة التاسعة الهجرية فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضا لأنه لم يكن حيّا فلم يشهد بقية الوحى ، ولن يكون هذا الفرض مقبولا فى هذه الحال . ثم إن أحدا من الرواة لم يذكر أن أمية ينتحل معانى القرآن وينسبها لنفسه . ولو كان قد فعل لما سكت المسلمون عن ذلك ولكان الرسول أول الفاضحين له » (٢) . وهذا بالطبع مع رفض فكرة أن يكون شعره منحولا أو موضوعا من قِبَل المسلمين المتأخرين لأن فى ذلك تكريما لأمية وارتفاعا بشعره ، وهو ما لا يُقْبَل مع رجل كان يهجو نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم بشعره ، ولا يبقى سوى أنه كان حنيفيا مجتهدا استطاع أن يجمع من قصص عصره وما كان عليه الحنفاء من

---

(١) ليلاحظ القارئ كيف أن عبارة « تشابه كبير وتطابق » صحيحة نحويا فى سياقها من كلام جواد على كما أشرنا فى هامش سابق ، ثم جاء خليل عبد الكريم فأفسد إعرابها إفسادا شنيعاً .

(٢) هنا ينتهى كلام د. جواد على حسبما أورده الكاتب الموضوعى جدا والأمين جدا ، ويبدأ كلامه هو . وعلى القارئ أن يستعدّ لمفاجأة مذهلة سنكتشفها له بعد قليل .

رأى في شعره ، خاصة مع ما قاله بشأنه ابن كثير : « وقيل إنه كان مستقيما ، وإنه كان أول أمره على الإيمان ثم زاغ عنه » . ولا ريب أن الاستقامة تفرز الاستقامة وتلتقيها . وربما كتب ما كتب إبان هذه الفترة التى يحدّدها لنا ابن كثير ، ولا ريب أنها كانت قبل البعثة النبوية، لأنه بعدها ، ولا شك ، زاغ عن إيمانه واستقامته ، إذ رأى الملك والنبوة تخرج من يده بعد أن أعد نفسه لها طويلا » (١).

ترى هل يمكن أن يكون لهذا الكلام من معنى إلا أن أمية قد نظم هذه الأشعار المتطابقة إلى مدى بعيد مع القرآن الكريم والحديث النبوى قبل الإسلام وأن جواد على يؤيد هذا الرأى ، إذ ينفى (حسب النص الذى استشهد به د. القمنى من كتابه عن « تاريخ العرب قبل الإسلام ») أن يكون أمية قد استقى أشعاره من القرآن أو الحديث، وهو ما لا يؤدى إلا إلى نتيجة واحدة مُفادُها أن محمدا هو الذى أخذ من أمية ما دام لا يوجد مصدر مشترك أخذ منه الاثنان معاً ؟

وأول شىء ينبغى أن أشير إليه هو أن الدكتور القمنى قد تلاعب بالنص الذى نقله عن جواد على تلاعبا فظيعا ، إذ حذف منه سطورا كثيرة وأعاد ربط الكلام بحيث يؤدى إلى النتيجة التى مرت الإشارة

(١) د. سيد محمود القمنى / الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية / ٧٣ – ٧٤ .

إليها توًا ، وهو ما لا يمكن أن يقوله رجل كجواد علي . ومما يدل على سوء المقصد أن د. القمني لم يفكر في أن يضع مكان السطور والفقرات المحذوفة نقطًا تدل القارئ على أن ههنا أشياء متروكة(١) ،

(١) حذف د. القمني ثلاثة عشر سطرا ما بين عبارة « كتاب الله والحديث النبوى » وعبارة « قبل المبعث » ، التى كانت فى كلام د. جواد على هكذا : « أما ما قبل المبعث فلا يمكن ... إلخ » ، علاوة على أن اقتباسه من المؤلف العراقى لا يمثل إلا جزءا من فقرة واحدة من فقرات كثيرة وطويلة من كلام ذلك الأستاذ . وهذا الجزء هو مناقشة لافتراض واحد لا غير لم يوردها د. القمنى بتمامها ليوحى للقارئ بأن جواد على يتهم الرسول بالسرقة من أمية . وهذه طبعا منتهى الأمانة وقمة الموضوعية والنظرة العلمية ! ألم يشهد له الشيخ خليل عبد الكريم ؟ وهل بعد شهادة هذا الأستاذ النحرير من شهادة مقبولة ؟ هذا ، وسوف أزود القارئ بأمثلة أخرى على هذا التلاعب من قِبَل د. القمنى والشيخ خليل. ولكى يكون القارئ على بينة من التلاعب الذى تلاعبه د. القمنى فى النص الذى اقتبسه من د. جواد على أسوق إليه كلام الأستاذ العراقى فى سياقه الحقيقى : « وفى أكثر ما نُسب إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار تشابه كبير وتطابق فى الرأى جملة وتفصيلا لما ورد عنها فى القرآن الكريم . بل نجد فى شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة فى كتاب الله وفى الحديث النبوى ، فكيف وقع ذلك ؟ ... هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق أو أن أمية أخذ مادته من القرآن الكريم أو كان العكس ... ؟ أو أن هذا التشابه مرده شىء آخر هو تشابه الدعوتين واتفاقهما فى العقيدة والرأى واعتماد الاثنين على مورد =

بل وصل الكلام بعضه ببعض بشيء من أدوات الربط بحيث يبدو النصّ كاملا لم يحذف منه شيء كما قلنا . فإذا عرفنا أن رأى جواد على هو عكس ما نسبه إليه د. القمنى على طول الخط ، فبم يسمّى القارئ الكريم هذا الصنيع ؟

لقد تناول الدكتور جواد على موضوع أمية وأشعاره ومشابهتها لما ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف فى ست عشرة صفحة ، وقلّب الأمر فى القضية التى نحن بصددها الآن على كل وجوهها ،

= أقدم هو الكتابان المقدسان : التوراة والإنجيل وما لهما من شروح وتفاسير أو كتب أو موارد عربية قديمة كانت مدونة ثم بادت ... أو أن كل شيء من هذا الذى نذكره ونفترضه افتراضا لم يقع وأن ما وقع ونشاهده سببه أن هذا الشعر وُضع على لسان أمية فى الإسلام وأن واضعيه حاكوا فى ذلك ما جاء فى القرآن الكريم ... ؟ أما الاحتمال الأول ، وهو فرض أخذ أمية من القرآن، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه وجب حصر هذا الجواز فى مدة معينة وفى فترة محددة تبتدئ بمبعث الرسول وتنتهى فى السنة التاسعة من الهجرة ، وهى سنة وفاة أمية بن أبى الصلت . أما ما قبل المبعث فلا يمكن بالطبع أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن... » إلى آخر ما اقتبسه د. القمنى (٥/٣٨٤ ـ ٣٨٥) ، وهو (كما قلت) ليس إلا جزءاً من إحدى الفقرات الكثيرة التى قلّب فيها د. جواد على كل الاحتمالات السابقة وفندها جميعا ما عدا الاحتمال الأخير ، وهو أن الشعر المنسوب إلى أمية ويتطابق مع القرآن هو شعر قد نُحل له فى الإسلام نحلا كما وضحنا .

وانتهى إلى القول بأنه يظن « أن مردّ هذا التشابه والاتفاق إلى الصنعة والافتعال . لقد كان أمية شاعرا ما في ذلك شك لإجماع الرواة على القول به ، وقد كان ثائرا على قومه ناقما عليهم لتعبُّدهم للأوثان ، وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكن لا أظن أنه كان واقفا على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث عن العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . إن هذا الذي أذكره هو شيء إسلامي خالص ولم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ولا عند الأحناف ، فوروده في شعر أمية وبالكلمات والتعابير الإسلامية هو عمل جماعة فعلته في عهد الإسلام : وضعته على لسانه كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الإسلام ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه وأنه لم يكن لذلك غريبا ، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب ويعلمون بقرب ظهور نبي عربي ، وأنهم بشروا به ، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فوُلدوا في أيامه أو لو طال بهم العمر حتى يدركوه فيُسْلِموا ... إلخ »[1] . ثم مضى الأستاذ المؤلف فأخذ يحلل أشعار أمية الدينية من ناحية أسلوبها ومن ناحية روحها مبينا أنها تختلف عن أشعار أمية الأخرى وعن الشعر

---

(١) د. جواد علي / تاريخ العرب قبل الإسلام / مطبعة المجمع العلمي العراقي / ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م / ٥ / ٣٨٩ .

الجاهلى بصفة عامة وأنها لا يمكن أن تكون له .

وبالمناسبة فإن هذا الرأى الذى انتهى إليه د. جواد على ليس جديدا على عكس التحليل الأسلوبى والمضمونى الذى سلكه لإثباته ، فقد سبقه إلى هذا الرأى الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، إذ كان من رأيه أن المسلمين هم الذين وضعوا على لسان أمية الأشعار التى يتناول فيها أمورا تشبه ما جاء فى القرآن الكريم ، وذلك ليثبتوا أن للإسلام قدمة وسابقة فى بلاد العرب [١] . وبالمثل يقول تور أندريه إنه ليس بين قصائد أمية الدينية ما هو صحيح النسب إليه وأنه يجب أن يُعْتَبر من انتحال مفسرى القرآن الأولين القُصَّاص كالسُّدّى وابن عباس وغيرهما [٢] . ونجد هذا الرأى أيضًا عند المستشرق براو (Brau) ، كاتب مادة «أمية بن أبى الصلت» فى «دائرة المعارف الإسلامية» ، الذى يؤكد أن « القول بأن محمدا قد اقتبس شيئا من قصائد أمية هو زعم بعيد الاحتمال ... على أن أمية لم يقتبس شيئا من القرآن ، وإن كان هذا غير مستحيل من الوجهة التاريخية ، فقد ورد فى إحدى الروايات (الأغانى / ٣ / ١٨٧ /

---

(١) طه حسين/ فى الشعر الجاهلى / مطبعة دار الكتب / ١٩٢٦م/ ٨٤ .
(٢) أورد هذا الرأى المستشرق براو كاتب مادة « أمية بن أبى الصلت » فى « دائرة المعارف الإسلامية » / الترجمة العربية / ٤ / ٤٦٤ .

سطر ١٠) أن أمية كان أول من قرأ كتاب الله »[١]، وإن كان من رأى ذلك المستشرق أن محمدا وأمية وغيرهما من الحنفاء قد اقتبسوا من مصادر واحدة. كما قال بنحل الرواة هذه الأشعار لابن أبى الصلت أيضا الشيخ محمد عرفة فى تعليقه على ما كتبه براو فى مادة « أمية »[٢]، وكذلك الدكتور شوقى ضيف[٣]، وسيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب فى مقدمتهما لـ « شرح ديوان أمية بن أبى الصلت »[٤] وغيرهم.

إذن فجواد على لم يقل قط إن القرآن أو الحديث قد أخذا شيئا من شعر أمية، بل الذى قال هذا هو بعض المستشرقين. وقد ذكر منهم جواد على نفسه كليمان هوار (C. Huart) وباور (Power). كما أشار إلى رأى هوار هذا أيضا قبل جواد على المستشرق براو كاتب مادة « أمية بن أبى الصلت »، وأحال فى ذلك إلى طبعة هوار لـ « كتاب البدء والتاريخ » للمقدسى[٥]. ويمكن أن أضيف كذلك المقال الذى كتبه نفس المستشرق فى الجزء العاشر من « المجلة الآسيوية » (١٩٠٤م / قسم ٤ / ١٢٥) وزعم فيه أنه وقع فى أشعار أمية على

(١) المرجع السابق / ٤ / ٤٦٤.
(٢) السابق / ٤ / ٤٦٥.
(٣) انظر د. شوقى ضيف / العصر الجاهلى / ٣٩٦.
(٤) منشورات دار مكتبة الحياة / بيروت / ١٠ - ١١.
(٥) ٤ / ٤٦٣.

أحد مصادر القرآن الكريم . وفضلا عن ذلك هناك عبارة طائرة وردت في كتاب ذلك المستشرق عن تاريخ الأدب العربي تحمل ذات الاتهام، وإن كان على نطاق ضيق ، إذ قال إن أمية « قد سمّى اليوم الآخر في إحدى قصائده بـ « يوم التغابن » ، تلك التسمية التي شقّت طريقها إلى النص القرآني »(١).

والواقع أن الرأي الذي قال به طه حسين وتور أندريه وجواد علي وغيرهم من أن أشعار أمية التي تتطابق مع بعض نصوص القرآن الكريم قد نُحلت له نحلا بعد الإسلام هو رأي وجيه ، وإن كان ثمة رأي آخر لا يخلو أيضًا من وجاهة هو أن أمية يمكن أن يكون قد استمد عباراته ومضامينه في أشعاره المذكورة من القرآن الكريم . ذلك أن هناك روايات تذكر أنه قد قابل النبي بمكة واستمع منه إلى القرآن ووَعَدَه أن ينظر في دعوته إياه إلى الإسلام ، ثم انصرف إلى الشام حيث بقي عدة سنين عاد بعدها إلى بلاد العرب وفي نيته أن يذهب إلى الرسول ويعلن إسلامه لولا أن قابله مشركو قريش وأخبروه بما وقع في بدر من لقيان بعضٍ من أعزّ أقربائه عليه مصرعهم على يد جيش محمد ، فما كان منه إلا أن غيّر رأيه وأنشأ قصيدة يرثيهم بها ويحرّض على الإسلام

---

(1) Clément Huart, A History of Arabic Literature, William Heinemann, London, 1903, p. 25 .

ورسوله . وفى الأقوال المنسوبة إلى الرسول من أن أمية قد آمن بلسانه وكفر بقلبه وأنه كاد أن يكون مسلما ما يعضّد ما نقول ، إذ معناه أن الرجل قد ردد فى أشعاره ما جاء به الرسول فى القرآن الكريم وأحاديثه الشريفة (إذ هذا هو معنى الإيمان باللسان) ، ولكنه لم يعلن دخوله فى الإسلام (وهذا معنى الكفر بالقلب) [١] .

ولقد أشرنا آنفا إلى أن براو لم يستبعد أن يكون أمية قد اقتبس فى أشعاره بعض أشياء من القرآن . كذلك قال المستشرق شولتس ، فى مقدمته لديوان أمية الذى نشره فى سنة ١٩٢٦م ، إن من غير المستحيل تاريخيا أن يكون أمية قد اقتبس فى أشعاره بعض الآيات القرآنية[٢] . أما استبعاد جواد على ذلك بحجة أن هذا لو كان حدث لما سكت عنه المسلمون ولكان الرسول نفسه أول الفاضحين له فلستُ أوافقه عليه ، إذ إن أمية لم يكن ينافس الرسول فى ادّعاء النبوة حتى يحاربه الرسول بهذا السلاح . ثم إن محمدا إنما اختير رسولا ليبلغ

---

(١) انظر مثلا « صحيح مسلم » / ٢ / ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، و « تجريد الأغانى » لابن واصل الحموى / تحقيق د. طه حسين وإبراهيم الإبيارى / القاهرة / ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م / القسم الأول / ١ / ٥١٤ ، و « البداية والنهاية » لابن كثير / ١ / ٦٤٨ - ٦٤٩ ، ٦٥١ ، و « تاريخ العرب قبل الإسلام » لجواد على / ٥ / ٣٨١ ، ٣٨٣ .

(٢) انظر جواد على / تاريخ العرب قبل الإسلام / ٥ / ٣٨٩ .

دعوته إلى الناس لا ليعايرهم بأنهم أخذوا بعض عناصرها وأدخلوها فى أشعارهم . بل إن مثل هذا الأمر (إذا كان قد وقع فعلا) هو ، بمعنى من المعانى ، لون من النّجاح لا يمكن أن يضيق به صدراً أىُّ داعية مخلص ، بله أن يكون ذلك الداعية نبيا مرسلا .

أما لماذا لم أناقش احتمال أن يكون الرسول هو الذى استمدّ من أمية فسببه هو أن ذلك لو كان قد حدث لكانت فضيحة الفضائح له عليه السلام ولما سكت المشركون ، وبالذات أمية ، الذى كان يطمع فى النبوة . بيد أننا لم نسمع أحدا من المشركين يذكر هذا الأمر من قرب أو من بعد [١]. كذلك لا يمكن أن يكون الاثنان قد أخذا من مصدر مشترك ، وإلا فأين ذاك المصدر ؟ وهل يا ترى كان أمية سيسكت فلا يكشف حقيقة أمر محمد ؟ ثم إن تفاصيل القصص والموضوعات الموجودة فى الأشعار المنسوبة لأمية هى مما لا وجود له إلا فى القرآن والحديث ، وبنصّها فى معظم الأحيان .

المهم ، لقد اتضح الآن بجلاء لا يحتمل المراء مدى التلاعب فى القول عند كل من خليل عبد الكريم وسيد القمنى ، وأسفر أيضاً

---

(١) ساق هذه الحجةَ أيضاً الشيخُ محمد عرفة فى تعليقه على مادة « أمية بن أبى الصلت » فى « دائرة المعارف الإسلامية » / ٤ / ٤٦٥ ، والدكتور جواد على فى كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » / ٥٠ / ٣٦ .

الهدف الذى يتغيّيانه (١) . ويبقى زعم الشيخ خليل أن الإسلام ليس شيئا آخر غير ما نادى به الحنفاء وطبقوه ، وهو ما سوف نتناوله عند مناقشتنا لكتابه « جذور الشريعة الإسلامية » .

وبعد ، فقد رأينا ورأى القراء معنا كيف لجأ الكاتب إلى العبث بالنصوص والتدليس فيها وقَسْرها على أن تنطق بما ليس فى ضميرها ، واستعمل المصطلحات والتحليلات الماركسية ، وقدم لنا صورة عن النبى عليه الصلاة والسلام وأجداده لا تمت لحقيقة أمرهم بصلة ، وأظهر سوء النية والقصد فى كل ما سطّره فى هذا الموضوع .

---

(١) ليس هذا الأسلوب غريبا على من يهدف إلى مثل هذه الغاية . وقد سبق هذين الكاتبين على نفس الدرب رفيقهما د. نصر أبو زيد ، الذى شاءت إرادته العلية أن يرى الإمام الشافعى الدنيا قبل أن يخلقه الله بعشرات السنين . ذلك أن هذا الإمام الجليل الذى لم يكتحل بنور الوجود إلا بعد أن انقضى من عمر دولة بنى العباس زمن طويل كان رجلا تام الرجولية عند د. أبو زيد فى أيام بنى أمية ، الذين كان (كما يدّعى الدكتور الموضوعى جدا والأمين جدا مثل رفيقيه) ينافقهم بفقهه كى يجعلوه واليا على اليمن ! وسلّم لى على الأمانة والموضوعية ، ولا تنس أن تسلم أيضا بالمرة على الدقة العلمية !

وسائل محمد المزعومة فى الوصول إلى السلطة

يحاول الشيخ خليل عبد الكريم أن يوهم القراء بأن أمر محمد ﷺ ليس أمر نبوة ووحى إلهى بل هو خطة وضعها محمد بذكاء وإتقان وأخذ يطبقها بصبر ودأب لا يعرف الكلل ولا الملل واضعا نصب عينيه تحقيق ما كان أجداده قُصَىّ وهاشم وعبد المطلب (وبالذات قصى) يطمحون إلى تحقيقه ، لكن الظروف لم تسعفهم بتحقيقه كاملا كما بيّنا فى فصل سابق . ولم يكن على محمد أن يذهب بعيداً فى سبيل اختراع الدين الذى يضحك به على قومه ويضمن انقيادهم له . لقد كان لدى العرب من العقائد والتشريعات والأنظمة ما لا يحتاج معه إلا أن يفتح عينيه ويمدّ يديه ليكبش من هذا البستان ويعبّئ جيوبه ثم يطلع عليهم قائلاً لهم : « أنا نبىّ » ، مع الاستعانة ببعض الحيل والألاعيب التى يحبها الجمهور . وإيانا أن نظن أن العرب كانوا قوماً متخلفين ! نعم إن الكاتب نفسه يستطيع أن يظن بهم التخلف بل أن يؤكّده ويلحّ عليه إلحاحا ويبدئ فيه ويعيد متى أراد ، لكنه هنا بالذات لا يسمح لنا بأن يدور فى خاطرنا أنهم كانوا متخلفين ، لأنهم لو كانوا متخلفين فهذا معناه أنه لم يكن عندهم شىء يقدّمونه لمحمد كى يلفق منه دينه . أما عندما يقول إنهم متخلفون فما علينا إلا أن نحنى الهامة ، للشيخ ذى العمامة ، وندعو له بالسلامة ، مردّدين وراءه ما يقول دون أن نناقشه فى هذا التناقض . ذلك

أن السياق عندئذ يوجب رميهم بالتخلف وبالبلاهة أيضا ، وإلا فكيف يثبت مولانا الشيخ أن محمداً إذا كان قد نجح مع أولئك العرب فإنه فى الحقيقة لم يفعل شيئا ، إذ أين النجاح فى أن تضحك على قوم بُلْهٍ أغرار مهيَّئين للاستماع إلى كل ناعق والطيران وراءه إلى أية غاية ما دام يلوّح لهم براية « المقدّس » كما يقول شيخنا الجليل (أو « الدين » كما نقول نحن وسائر عباد الله البسطاء الذين لا يعرفون شيئا من هذه الحنجوريات) ؟ أعرفتَ أيها القارئ ؟ إن مدار الأمر كله هو معاندة محمد والتهوين من شأنه فى كل حال !

يقول الشيخ خليل فى كتابه « الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية » ، وهو الكتاب الذى يحاول فيه أن يثبت أَخْذَ النبى عليه السلام دينه من عرب الجاهلية ، ومن ثم فلا بد أن يكونوا قوماً متقفين متحضرين حتى يَسُوغ هذا الاتهام الذى يوجّهه له صلى الله عليه وسلم : « دأب كثير من الدعاة على نعت الفترة السابقة على البعثة المحمدية بنعوت بشعة ووصْف عرب الجزيرة فى ذلك الوقت بأوصاف كريهة حتى يرسخ فى الأذهان أن تلك الحقبة لم تكن سوى مجموعة من الظلاميات والجهالات والأضاليل وأن أهلها ليسوا إلا حفنة من المتبربرين المنحلين عديمى الفكر فاقدى الثقافة فاسدى الخلق . وهم يتوهمون بأن ذلك يخدم الإسلام ، خاصة أن القرآن الكريم قد وصف تلك الفترة بالجاهلية »[1] . وهو يسخر من تسمية الفترة السابقة على

(١) الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية / سينا للنشر / ١٩٩٠م / ٧ .

الإسلام فى تاريخ العرب بـ « الجاهليـة » قائـلاً فى تهكم وتعجب : « يسمونها الجاهلية ! » ، مع أن الذى سماها كذلك هو الله سبحانه ، كما سخر أيضاً من تسمية الرسول لها بهذا الاسم (١) اتباعاً للتسمية القرآنية (٢).

ورغم ذلك كله نرى الشيخ خليل أيضاً فى كتابه « شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة » (٣) يقول عـن هـؤلاء العـرب أنفسـهم : « كانت الطبيعة فى مجتمع شبه الجزيرة العربية عامة ، ومنطقة الحجاز خاصة ، موضعَ اهتمام العربى والأعرابى على السواء لما لها من تأثير مباشر على حياتهم وطرق معيشتهم ، بالإضافة إلى ما كانوا يتّسمون به من سذاجة فى الفكر وبساطة فى العقل وتلقائية شديدة فى التدبرّ ، وكلها كانت تدفعهم إلى عبادة تلك الظواهـر أو بعضـا (٤) منها... . كذلك كانـوا يسمّون « عبد الحجر » لأهمية الأحجار لديهم ،

---

(١) انظر « شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة ـ السفر الأول ـ محمد والصحابة » / سينا للنشر (القاهرة) والانتشار العربى (بيروت) / ١٩٩٧م / ١٩٥ ، ٢١٣ .

(٢) المرجع السابق / ١٦٥ .

(٣) الذى أستسمحه فى تغيير عنوانه إلى « طنين الذبابة فى التطاول على النبى والصحابة » ليكون أكثر انطباقا على مضمونه ومرماه .

(٤) هكذا مع أنها معطوفة على المضاف إليه « تلك » . ومثل هذا الخطإ كثير عند سيدنا الشيخ رغم المراجعة اللغوية التى تخضع لها كتاباته قبل نشرها .

فعلاوة على أنها مادة الجبال التى هى أعظم مكونات الطبيعة فى نظرهم، وكانوا ينسبون إليها أنها ترسّخ الأرض وتقيم توازنها ولولاها لاختل نظامها [١]، فإنها (= الأحجار) هى التى كانوا ينحتون منها أصنامهم المختلفة التى كانوا يتعبدونها ... . وكان للجن فى معتقداتهم مساحة واسعة ، ونسجوا حولها أساطير عجيبة اعتبروها حقائق لا ترقى إليها الشكوك ، ونسبوا إليها خوارق مدهشة : فهى التى تسمع أخبار السماء وتنقلها إلى أتباعها من الإنس [٢] ، وهى التى تلهم الشعراء قصائدهم » [٣] . ومن هذا الوادى أيضاً قوله عن الصحابة: « هم أفراد أمة أمّيّة كما كان محمد دائماً يصف أمته ، (و) مثل هؤلاء كانت تسيطر عليهم الغيبيات والماورائيات واللازمانيات والكائنات المستقرة فى العوالم العليا والتى هى بطبيعتها مفارقة للإنسان [٤] ، والمخلوقات العجيبة المدهشة مثل الجن والغول والعنقاء ، وكانوا يؤمنون بالحسد والعين والنَّفث فى العُقَد والرُّقَى والتعاويذ والتمائم ... إلخ ، ومن كانت تلك

(١) أرجو أن تنتبه ، أيها القارئ الكريم ، لهذه اللمزة السامّة التى يوجهها إلى القرآن من طرف خفى ، فالقرآن هو الذى يقول هذا عن الجبال ، والكاتب الأمين يريد أن يبث فى ذهن القارئ (بهدوء وبمنتهى البراءة ، ودون أن يقدم دليلاً) أن القرآن فى كلامه ذاك عن الجبال لم يفعل أكثر من ترديد هذه الترهات الجاهلية ، مع أن المتخصصين فى العلوم الطبيعية قد بينوا صدق القرآن فى هذا .

(٢) مرة أخرى هذا أيضا قد جاء فى القرآن الكريم . وواضحٌ غرض الكاتب من كلامه .

(٣) شدو الربابة ـ السفر الأول / ١٦٨ ـ ١٦٩ .

(٤) يقصد بهذه الكائنات الله سبحانه وملائكتَه .

حالتهم العقلية والفكرية والثقافية والمعرفية تشيع بينهم الأساطير والتوهمات والتخيلات والقيم اللاعقلانية البعيدة عن المنطق[١] أو ارتباط النتيجة بالسبب أو المعلول بالعلة ، وتتحكم فى أفعالهم وإحجاماتهم الخشيةُ الهائلة من المجهول المهيب والرهبة البالغة من غضب قُوًى لا تعرف كنهها ، ولذلك نراها تؤمن بالصدفة والحظّ والبخت والنصيب . ولانتشار يقينهم فى السحر كانوا يمارسون « العمل » و « الشبشبة » و « العكوسات » [٢] « والنفث فى العُقَد » ... . ومثل ذلك المجتمع الساذج لا عجب أن يتشاءم أفراده ويتفاءلون ويربطون [٣] كافة شؤون حياتهم بتلك المعتقدات »[٤] . وقد مرّ بنا كيف وصف مولانا الشيخُ عربَ ما قبل الإسلام مرارا بالبدوية والشفاهية والتخلف وحَمَلَ عليهم حملة ضارية لهذا السبب وتهكم بهم وبثقافتهم . وكل ما أرجوه منك أيها القارئ المحترم ألا تأبه بهذا التناقض الذى يوجد

---

(١) على عكس كاتبنا ورفاقه اليساريين (الإسلاميين !) الذين يموتون فى عقلانية ماركس ونبوءاته التى لم تصح منها نبوءة واحدة ، وانتهى بها الحال إلى مقالب قمامة التاريخ !

(٢) للأسف ، هذا كله تعرفه أيضا البيئة المصرية وما زالت إلى وقتنا هذا ، وينتشر حتى بين الطبقات المتعلمة تعليما راقيًا ، بل إن بعض الحاملين والحاملات للقب « الدكتور » يصدِّقونه ويستعينون به ! وبطبيعة الحال فلست أقصد إلى تفضيل أحد من العرب على أحد ، بل أحببت أن أبيِّن للشيخ خطأه الأبلق .

(٣) الصواب : « ويتفاءلوا ويربطوا ... » لأنهما معطوفان على « أن يتشاءم ... » .

(٤) شدو الربابة – السفر الأول / ١٨٣ – ١٨٤ .

منه عند الشيخ خليل الكثيـر ، فكمـا قلنا من قبل : هـى حالات وأقنعة ! وعلى أية حال فقد جاء الإسلام ينفّر من السّحر والعرافة والكهانة والتمائم وعدّ الإقبال على أى شيء من ذلك كفراً بما نزل على محمد ﷺ ، وكذلك حَمَل على الطِّيرة وهوّن من شأن النفث فى العُقَد وأشباهه مؤكدا أن النفع والضر إنما هما بيد الله وحده ، وداعيا المسلمين إلى الأخذ دائما بالأسباب . وهذا كله معروف للقاصى والدانى .

ولنعد إلى الغزل الواله الذى يتغزله شيخنا العقلانى فى عقول الجاهليين وثقافة الجاهليين ومنطق الجاهليين لنرى على أى أساس يقوم . إنه يتابع الدكتور طه حسين فى استغرابه وَصْفَ عرب ما قبل الإسلام بالجهل والخشونة رغم أنهم كانوا يحاورون الرسول فى «المسائل المعضلة التى ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفَّقوا إلى حلها» . يقصد إنكارهم النبوات والمعجزات والبعث وما أشبه ، وهو ما يدل فى نظر عميد الأدب العربى على أنهم «كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة» [1] . وقد كان الدكتور فى شبابه حين كتب هذا الكلام ، كما كان حديث عهد بالعودة من فرنسا ، ولهذا كان هجّامًا على أمور الدين لا يدارى ولا يورّى ، ثم ورثته فى هذا طائفة تقلّ عنه فى المواهب الأسلوبية والثقافية كثيرا وظلت تردّد هذا الكلام القطير المضحك رغم عفائه مع

(١) شذو الربابة _ السفر الأول / ٧ _ ٨ . (وكلام الدكتور طه مأخوذ من كتابه « فى الشعر الجاهلى » / ٢٠) .

الزمن غير دارية أن ما كان يُضحِكُ به على القارئ في أوائل القرن لا يصلح لذلك الغرض في أواخره ، وإلاّ فهل يسوغ في العقل أن نصف كل من كان جدِلاً لَدِداً في مناقشة ما لا يفْهَمه أو ما لا يتصوّره من المسائل الفكرية العويصة صاحبَ عقل وذكاء ؟ ألا ما أكثر العوامّ الذين يرهقون كبار المفكرين باعتراضاتهم الجاهلة السقيمة وعنادهم الأرعن إذا وضعتهم المصادفات في طريقهم ! ومن هؤلاء على سبيل المثال رجل من أهل الريف له علاقة ببعض زعماء طائفة البهرة(١) كلّما حاولتُ أن أشرح له أنهم لا يتّبعون الإسلام الصحيح ردَّ عليَّ بجمْع ثقته : « ولكنى رأيتهم يضمون المصحف على صدورهم احتراماً لكلام الله ! » . قل لى أيها القارئ العزيز : كيف يمكن أن أمضى مع هذا الرجل (« صاحب العلم والذكاء » بشهادة الدكتور طه) في مثل تلك المناقشات ؟ وما أكثر أمثال ذلك الرجل في كل مكان : يفْتون في الصيدلة وفي الطب وفي القانون وفي الدين ... وهلم جرّا ! وقد تجهل أنت بعض ما تُسْأل عنه أمامهم فتقول للسائل : « إننى لا أدرى » أو « أعطِنى فرصة لأراجع معلوماتى » ، فينبرى الواحد منهم قائلا في حسم قاطع : « إن جواب هذا الأمر هو كذا وكذا ! كيف لا

(١) إذ يحاول هؤلاء أن يصلوا إلى مسجد في قرية ذلك الرجل يحمل اسم أحد المغاربة القدامى الذين لهم صلة بالفاطميين ، وهذا الرجل المذكور يفتنه جدا لقب « السلطان » الذى يتسمى به كبير هؤلاء القوم .

تعرفه يا فلان ؟ » . وطبعـا هذا وأمثاله « أصحاب علم وذكاء » عند الدكتور طه . أليسوا يجادلون فيما يتجادل فيه الفلاسفة وفيما ينفقون فيه الأعمار الطوال دون أن يصلوا إلى حل ؟ لا بل هم أفضل من الفلاسفة ، لأن الفلاسفة يفكّرون مليًا قبل أن يجيبوا ، بل قد ينفقون في ذلك حياتهم ، وربما لا يبلغون بعـد هـذا كلـه شيئا ، أما هؤلاء فإنهم « يفهمونها وهى طائرة » ، وجوابهم جاهز لا يكلفهم جهدا ولا يستغرق وقتا . فما رأيك أيها القارئ فى هذا اللون من الاستدلال ؟ لقد كان مشركو العرب أجهل من عوامنا الحاليين وأمعن فى الضلال وفى سخف العقل ، وردودهم فى القرآن خير شاهد على ما نقول : لقد كان ردّهم على الرسول عندما أخبرهم أنه نبى مرسل إليهم من السماء هو : « لن نؤمن لك حتى تَفْجُر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تُسْقط السماء كما زَعَمْتَ علينا كِسَفًا أو تأتى بالله والملائكة قَبِيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترْقَى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتابا نقرؤه »(١) ، أو « لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »(٢) ، إذ كانوا لا يفهمون كيف يكون النبى من غير مشاهيرهم وذوى الثروات الطائلة منهم . أما إذا أنبأهم بأمر البعث فقد كانوا يتساءلون : « أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا

(١) الإسراء / ٩٠ - ٩٣ .
(٢) الزخرف / ٣١ .

لمبعوثون؟ * أو آباؤنا الأولون ؟ »[١] ... وهكذا ... وهكذا . بل إن اليهود ، وهم أهل كتاب وكانوا مثقفين ثقافة عالية بالنسبة للعرب ، كان كل ما عندهم هو من مثل قولهم : « إن الله فقير ونحن أغنياء»[٢] ، وذلك عندما كان الرسول يحضّ على إقراض الله قرضا حسنا ، أى على الإنفاق فى سبيل الخير ، بل لقد طلبوا منه أن يأتيهم بقربان تأكله النار حتى يصدقوا أنه نبى[٣] ، وغير ذلك من السخافات والتنطعات والحماقات . أفهذه أفكار فلاسفة؟ أفذاك هو الدليل على علمهم وذكائهم ورقة عواطفهم ؟ صدق من قال : « حاججت جاهلا فغلبنى ، وحاججتُ عالما فغلبته » !

فهذا هو الأساس الأول الذى يقيم عليه مولانا الشيخ تخطئته للقرآن وللرسول عليه الصلاة والسلام فى وصف الفترة السابقة على الإسلام بـ «الجاهلية» ، أما الأساس الثانى فهو أن القرآن قد تحدّى الجاهليين بقوله : « فأتوا بعشر سُوَرٍ مثله مفتريات»[٤] أو « فأتوا بسورة مثله »[٥] ، والتحدى (كما يقول كاتبنا الملقب من قِبَل القمنى بـ « الأستاذ الشيخ ») « لا يكون للضعيف المفلوك ... ولا

(١) الصافات / ١٦ - ١٧ .
(٢) آل عمران / ١٨١ .
(٣) آل عمران / ١٨٣ .
(٤) هود / ١٣ .
(٥) يونس / ٣٨ .

يكون ... إلا من الأقران الأكْفاء ، فلا يُتَصَوَّر أن تتحدى الولاياتُ المتحدة الأمريكية دولةً من العالم الثالث ، ولكنها قد تتحدى الاتحاد السوفياتى[(١)] أو الصين الشعبية فى القوة العسكرية ، واليابان فى التجارة والاقتصاد . ولا يُعْقَل أن يتحدى بطلُ العالم فى رياضة ما لاعبا مغمورا. إنه إذا فعل سيكون موضع سخرية الجميع » . ثم يمضى الأستاذ الشيخ قائلا : « إن تحدى القرآن له دلالة قاطعة على أنهم كانوا على قدر ملحوظ من التقدم من الناحية التى تحداهم فيها ، وهى الناحية البلاغية والمعرفية والثقافية ، وهى تمثل جانبا من الموازين التى توزن بها أقدار الشعوب »[(٢)].

وأول ما نصكّ به وجه هذا التَّفَيْهُق الشقيل الظل هو أنه لم يحدث أن بدأهم القرآن بالتحدى ، بل هم الذين تحدَّوْه زاعمين أنه من صنع البشر[(٣)] ، بل بلغ بهم الحال أن أخذوا يذيعون أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله ، ومن ثم فلا فضل لمحمد فى هذا يخوّل له ادعاء النبوة فى نظرهم : « وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيّناتٍ قالوا : قد سمعنا ! لو نشاء لقلنا مثل هذا. إنْ هذا إلا أساطير الأولين»[(٤)] . وكذلك كان

---

(١) فى مصر تقول : « السوفييتى » ، ولكن الشيخ خليل يكتبها بالألف تقليدا لبعض القوم الذين يعرفهم جيدا .

(٢) الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية / ٨ .

(٣) وهو ما أشار إليه القرآن فى مواضع متعددة منه .

(٤) الأنفال / ٣١ .

اليهود[١] من جانبهم يرّفدونهم بالأسئلة السخيفة التى يظنون أنها ستحرج محمدا زاعمين لهم أن وثنيتهم خير من التوحيد الذى جاء به، فكان لا بد أن يردّ القرآن على تحديهم ، وإلا لقيل إن رب محمد عاجز عن الردّ ولكان هذا تسليماً بما يقولون . ثم إن القرآن مثلا قد تحدّى الأرباب الوثنية أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا كلهم على ذلك[٢] ، فهل معنى هذا أن الأصنام والأوثان كانت قادرة على الخلق والإبداع بحيث يمكنها إيجاد ذباب من العدم ؟ أليست هذه طريقة الأستاذ الشيخ (أو الشيخ الأستاذ) فى الفهم ؟ وكذلك تحدّى القرآنُ الكفّارَ أن يرجعوا أرواح موتاهم إذا بلغت الحلقوم[٣] ، فهل معنى هذا أنه كان بإمكانهم أن يتغلبوا على الموت ويطيلوا أعمار موتاهم إلى الأبد؟ أليس يرى القارئ تهافت منطق سيدنا الشيخ وأنه ليس عنده إلا اللجاج واللدد فى الخصام ؟ لقد كان المشركون يتهمون النبى بأنه هو

---

(١) اليهود الذين يتهم « اليساريون الإسلاميون » سيّدَ البشر ﷺ بأنه أخذ ما تعلمه على أيديهم وصاغه قرآنا ، قياساً منهم له على ما يعرفون من أنفسهم ومن تتلمذهم على هنرى كوريل اليهودى الصهيونى وهيامهم به وبأفكاره وتوجيهاته ، حتى إنه عندما قامت إسرائيل هبَّ اليساريون يدعون لمناصرتها على الرجعية العربية والإسلامية ويخذّلون المجاهدين عن محاربة أرجاس الصهيونية المناكيد ، وإن تظاهروا بعد ذلك بأنهم ضد إسرائيل وأنهم ضد الصلح معها ... إلخ هذا الهراء الحنجورى الذى يفضحه حب الصهاينة لهم وإشادتهم بهم واللقاءات التى يعقدونها معهم تحت هذه اللافتة أو تلك .

(٢) الحج / ٧٣ .   (٣) الواقعة / ٨٣ ـ ٨٧ .

مؤلف القرآن وأنّ قرآنه هذا ليس إلا شعراً أو كهانة أو أساطير من أساطير الأولين ، فكان الرد المنطقى هو أن يقول لهم : وأنتم بشر مثلى وتستطيعون أن تقولوا الشعر أو تستعينوا بالكهان أو تنقلوا عن أساطير الأولين ، فهيّا اجهدوا جهدكم وأشركوا معكم فى الأمر من تحبون وأرونى مقدرتكم على الإتيان بمثله أو بعشر سور منه أو حتى بسورة واحدة !

أما كلام شيخنا عن أمريكا فإنما نذكّره (لأنه ، كما قلتُ ، غير ذَكُور) بهجوم أمريكا على لبنان وتاهيتى وليبيا والسودان وأفغانستان ، وهجومها هى وحيتان العالم الكبرى ومعها كثير من الأسماك الصغيرة والبيساريا أيضا على العراق . ولا بأس أن نذكر كلمة عن الاتحاد السوفييتى لمعرفتنا أن سيدنا الشيخ يموت فى ذكره ، لكننا للأسف لا نستطيع أن نقول فيه كلمة طيبة رغم معرفتنا أن سيدنا الشيخ لا يطيق أن يسمع فيه كلمة حق ؛ هذا الاتحاد السوفييتى قد غزا أفغانستان ، وأفغانستان من أسماك البيساريا ، وكان الاتحاد السوفييتى أيامها حوتا ضخما قبل أن تجور عليه الأيام ويصبح فى خبر « كانَ » عقب زيارة الشؤم التى قام بها الأستاذ الشيخ إلى أفغانستان الدولة المسلمة المسكينة المبتلاة بالاحتلال الشيوعى آنذاك[١] . لقد كان قصده هو ورفاقه أن

---

(١) وقد اشتبكت روسيا فى الفترة الأخيرة بكل جبروتها مع الشيشان وداغستان فى معارك طاحنة نالت منهما فيها ونالتا منها رغم الدمار الحقود الذى صبّته على سكانهما صبًا !

يعضدوا الحكم الأحمر هناك ، فأبى الله إلا أن يخزيهم . وهذا هو السرّ فيما تسمع من ولولته . فماذا تقول يا شيخنا اليسارى الإسلامى فى هذا ؟ أما أنت أيها القارئ الكريم فانظر كيف أن الله سبحانه يأتى إلى كل ما يقوله الشيخ فيقلبه عليه ويخيّب رجاءه وظنّه تخييبا ؟ ثم يا ترى كيف لا يبالى الله بما يقوله المشركون ، وهو إنما أرسل رسوله لهداية البشر وانتشالهم مما هم فيه لا لمناطحة كبريائهم بكبرياء أعتى وأشد ؟ وهل معنى ردّى عليك الآن يا شيخ خليل أنك عالم يُحْسَب لك حساب ؟ لا والله أيها الشيخ اليسارى الإسلامى ، بل إنما رددتُ عليك خشية أن تظن الأجيال القادمة التى لا تعرف خبايا الأمر أن السكوت عن إظهار عوراتك الفكرية وأحقادك القلبية هو علامة على الرضا بما سوّدت من صفحات أو العجز عن الجواب . هذا كل ما هنالك دون حذلقات ماسخة !

وبهذا نكون قد فرغنا من نسف الأساسين اللذين بنى عليهما سيدنا الشيخ تخطئته للقرآن الكريم والرسول العظيم فى تسمية فترة ما قبل الإسلام من تاريخ العرب بـ « الجاهلية » . ولا بأس أن نتساءل مرة أخرى : لماذا أراد شيخنا اليسارى الإسلامى الإعلاء من قدر الجاهليين رغم أنه دائم الإزراء بهم والحطّ من مكانتهم والتشنيع عليهم ووسمهم بالجهل والبداوة والتخلف ومدح الفُرْس كلما قارنهم بهم ؟

ونجيب بما قلناه قبلا من أنه إنما يريد القول بأن محمدا عليه الصلاة والسلام[١] قد أخذ عقيدته وعباداته وشريعته منهم . وقد ذكر الشيخ اليسارى الإسلامى فى هذا السياق تعظيم العرب لإبراهيم وإسماعيل والبيت الحرام ، والحجَّ والعمرة والاختتان والغُسْل من الجنابة والصومَ وتقديس شهر رمضان والاجتماعَ يوم الجمعة ، والنفورَ من عبادة الأصنام ومن قرابينها ، وتحريمَ الربا والزنا وشرب الخمر وأكل الميتة ولحم الخنزير ووأد البنات ، والإيمانَ بالإله الواحد وبالبعث ، والأخذَ بتعدد الزوجات والتعشير والعاقلة والقسامة والسَّلْب والتخميس والشورى . وسنفترضُ أن ما يقوله الشيخ صحيح (رغم أنه فى معظمه غير صحيح البتة ، وفى القليل الباقى غير صحيح إلا من وجه يختلف عما يقصده هو إلى حد بعيد) ، فهل يطعن هذا فى الإسلام؟ كلا ثم كلا . أولا لأن هذه الأشياء قليلة جدا بالنسبة لصرح الإسلام الضخم الشامخ المتباعد الأركان ، علاوة على أنه ليس المطلوب من الإسلام مخالفة كل ما سبقه ، وبخاصة حين يكون الاختيار المتاح محصوراً فى أمرين موجودين فعلا ، فأيا ما يكن الاختيار فسوف يكون هذا الاختيار شيئا موجودا ، وعندئذ سيقول أى متنطع : « انظروا ! إن الإسلام لم يأت بشىء جديد ! » . ولكن كيف يأتى الإسلام بشىء جديد ، ومجال الاختيار هو ما شرحناه ؟

---

(١) محمدا قاهر اليهود أسلاف هنرى كورييل وعصابته التى أدخلت الماركسية إلى بلادنا وخلقت من بيننا تلاميذ لها يحبونها أكثر مما يحبون وطنهم .

والآن نبدأ باسم الله متوكلين عليه مستعينين به على الباطل :
فأما تعظيم الكعبة وجعل الحج والعمرة من شعائر الإسلام [١] فليس مأخوذا من الجاهلية بل من ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، اللذين أمرهما الله ببناء بيته المعظم والتأذين فى الناس بالحجّ كى يأتوه رِّجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق كما ورد فى القرآن، إلا أن الشيخ اليسارى الإسلامى الأمين يتجاهل ذلك رغم سطوع ضوئه ومعرفة العالمين أجمعين إياه . ولكن ماذا نفعل مع سيدنا الشيخ ، وهذا دأب اليسار الإسلامى : الخداع واللف والدوران بوجه كثيف وقاح ؟ هذا عن الكعبة والحج والعمرة ، أما تعظيم إبراهيم وإسماعيل فهو كتعظيم أى نبى بدءاً من آدم وانتهاء بمحمد ، لكن الشيخ اليسارى الإسلامى يظن أن بمستطاعه أن يختل القارئ عن عقله ، ومن ثم فهو يحاول أن يوهمه بأن الإسلام لا يعظّم إلا إبراهيم وإسماعيل وأن تعظيمه إياهما مرجعه إلى تعظيم الجاهليين لهما . لكن ها هو ذا القارئ الكريم قد شاهد بأم عينه هذا السهم اليسارى الإسلامى أيضًا يطيش كما طاشت سهامٌ إخوةٌ له كثيرة من قبل . ولعل من المفيد أن نذكر له أن عدد المرات التى تردد فيها اسم إبراهيم فى القرآن الكريم لا يزيد على تسع وستين مرة ، على حين أن موسى قد ذُكِر مائة وستا وثلاثين ، وأن إسماعيل إذا كان قد ذُكِر اثنتى عشرة مرة فإن إسحاق (أخاه وجدّ اليهود) قد ذُكِر سبع عشرة ، وابنه

---

(١) انظر « الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية » / ١٥ وما بعدها .

يعقوب (إسرائيل) تسعا وخمسين ، كما ذُكِر حفيده يوسف سبعا وعشرين ، ثم عيسى حفيدُه الأخير بين الأنبياء خمسًا وعشرين باسم « عيسى » ، وإحدى عشرة باسم « المسيح » ، ومرتين باسم « ابن مريم » . فهل فى هذا الإحصاء ما يدل على تعظيم خاصٍّ لإبراهيم وإسماعيل ؟ وفوق ذلك فإن ما ذكره القرآن من معجزات لكل من موسى وعيسى يفوق كثيرا جدا ما ذكره لإبراهيم . ثم إن الحج فى الإسلام يختلف كثيرا عن حج الجاهليين ، إذ أعاده دين محمد ﷺ إلى صورته الأصلية النقية وطهّره من أدران الشرك والأوثان والعنجهية الجاهلية [1] والإباحية الأخلاقية[2] وشعائر الصفير والتصفيق المضحكة[3] والممارسات الخرافية[4] .

---

(١) كان بعض العرب يستنكفون أن يُفيضوا من المكان الذى يُفيض منه سائر الحجيج كِبْرًا وعنجهيةً ، فأوجب الإسلام الإفاضة على الجميع من نفس المكان (البقرة / ١٩٩) .

(٢) حرم الإسلام الرَّفَث والفسوق والجدال فى الحج (البقرة / ١٩٧) مثلما منع الرجالَ والنساءَ أن يطوفوا بالبيت عرايا كما كان يفعل كثير من العرب .

(٣) قال تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاءً وتصدية » (الأنفال / ٣٥) .

(٤) كان كثير من العرب إذا حجوا ورجعوا تَسَوّروا بيوتهم ولم يدخلوها من أبوابها (البقرة / ١٨٩) .

أما قول الشيخ اليسارى الإسلامى إن العرب الأقدمين كانوا « يعتقدون أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان أقاما بناء الكعبة فى مكة المكرمة وفرضا عليهم الحج ، فلما جاء الإسلام تبنى اعتقادَ بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لكعبة مكة »(١) ، فمعناه بالعربى الفصيح الصريح أن هذه المسألة ليست حقيقة تاريخية بل مجرد كلام كان يقوله العرب ثم جاء محمد فأخذه وأدخله قرآنه . والكاتب الهمام يشير هنا إلى ما قاله المستشرقون ثم ردّده من بعدهم الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » من أن أبوة إبراهيم عليه السلام للعرب وذهابه إلى مكة وبناءه الكعبة أسطورة من الأساطير اخترعها العرب ليتقربوا من اليهود أحفاد خليل الرحمن(٢) . وفى الرد على هذا الاتهام النَّزِق نشير إلى ما جاء فى تاريخ ديودورس الصِّقلّى ، الذى كان يعيش فى القرن الأول للميلاد ، من أن من العرب فى عصره من كانوا ينتسبون إلى نبات بن إسماعيل(٣) ، وهو ما نجده فى شعر جاهلى لجد الصحابى حسّان بن ثابت مثلا(٤) . ويقول علماء

---

(١) الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية / ٢٠ .

(٢) انظر ص ٢٥ ـ ٢٩ من كتاب طه حسين المذكور .

(٣) انظر العقاد / إبراهيم أبو الأنبياء / دار الهلال / القاهرة / ٨٠ .

(٤) انظر بيتى جد حسّان فى « وفاء الوفاء » للسمهودى / القاهرة / ١٣٢٦هـ / ١ / ١٧٣ .

التوراة إن الإسماعيليين هم فريق من العرب[١] ، كما يذكر المؤرخ سوزومين أن اليهود أنفسهم كانوا ينظرون إلى العرب الساكنين شرق الحد العربي على أنهم من نسل إسماعيل وإبراهيم وأنهم من ثَمّ من ذوى رحمهم[٢] ، علاوة على وجود نص لثيودوريتو من النصف الأول للقرن الخامس الميلادى يصف فيه العرب بالقبائل الإسماعيلية[٣] . ثم لماذا يحرص العرب على التقرب من اليهود وهم كانوا ينظرون إلى جميع الأمم الأخرى بأنفة ويسمونهم « أعاجم » ؟ فهل كان على رأس اليهود ريشة تجعلهم يستثنونهم من هذه النظرة الاستعلائية ؟ وعلى أية حال فقد كان اليهود الموجودون فى الجزيرة العربية منحصرين فى يثرب ونجران تقريبا بحيث يندر أن يحتك بهم العرب ، فكيف يمكن التصديق بأنهم كانوا يشغلون من فكر العرب كل هذا الحيز ويحتلون فيه تلك المكانة ؟ وحتى لو سلّمنا جدلا بأن العرب فى الجاهلية كانوا يريدون التقرب من اليهود ، فهل كان الرسول أيضاً يعمل على التقرب إليهم ؟ إن القرآن الكريم منذ بدايات الوحى يحمل عليهم حملة شديدة ويفضح مخازيهم مع موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل ، وهذا أكبر دليل على أن مسألة التقرب هذه لم

(١) انظر جواد على / تاريخ العرب قبل الإسلام / ٢ / ٣٤٦ ، ٣٤٨، ٣٦٩.

(٢) د. جواد على / المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام / دار العلم للملايين (بيروت) ومكتبة النهضة (بغداد) / ١٩٧٨م / ١ / ٥١٤.

(٣) انظر صلاح الدين المنجد / المنتقى من آراء المستشرقين / لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة / ١٩٥٥م / ١٤٩ .

تكن واردة قط . إن السبب فى هذه الجلبة التى يحدثها مولانا الأستاذ الشيخ تقليدا للمستشرقين والمبشرين (فهو وأمثاله لا يستطيعون شيئا من عند أنفسهم) هو أن الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى لم يذكر رحلة إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز . لكن متى كان الكتاب المقدس يصلح معياراً لأى شىء فضلا عن الحقائق التاريخية ؟ إنه مملوء بالوثنيات والخرافات والتناقضات وتحريف الوقائع التاريخية باعتراف علماء الغرب ورجال دينه كما يعلم كل من له أدنى اتصال بهذه المسائل . وما من مرة قمت بمقارنة القصص الواردة فيه بنظيراتها فى القرآن الكريم إلا وكان الفلَج لكتاب الله . ويمكن القارئ أن يرجع إلى الفصول المخصصة لذلك فى كُتُبى عن سورة « المائدة » وسورة « يوسف » وسورة « طه » . ولكى أعطى القارئ الكريم فكرة عما فى الكتاب المقدس من فساد لا يصلح معه أن يكون مقياساً نقيس به ما جاء فى القرآن سأذكر له بعض الأخطاء والتناقضات التى تمتلئ بها فقط قصة إبراهيم فى « سفر التكوين » منه : ففى ذلك السفر لا نجد أبدا ذكرا لنبوّة إبراهيم ، كما نسمعه عليه السلام مرتين يقول عن لوط ابن أخيه إنه أخوه (٩ / ١٣ ، و١٤ / ١٤) . كذلك يقول كاتب هذا السِّفر مرتين إن إسحاق هو وحيد إبراهيم (٢٢ / ٢ ، ١٧) مع أنه حين وُلد كان له أخ مولود قبله هو إسماعيل كما هو معروف. أما العهد الذى أعطاه الله لإبراهيم فهو مرةً الأرضون التى بين النيل والفرات (وهى أرض أمم تسع إحداها الكنعانيون) ، ومرةً أرض الكنعانيين وحدهم (١٥ / ١٨ ـ ٢٠ ، و١٧ / ٧ ـ ٨) . وفى البداية يذكر كاتب هذا السفر أن هذه الأرض لإبراهيم ثم لنسله

جميعا من بعده ، ليعود بعد قليل فيقول إن العهد خاص بابنه إسحاق فقط (٢١ / ٧) . وفضلا عن ذلك فقد اضطرب كاتب هذا السِّفْر في تعليل تسمية « بئر سبع » بهذا الاسم ، إذ أرجعه في موضع إلى أن إبراهيم قد استردّها من أبيمالك بسبع نعاج (٢١ / ٢٨ - ٣٠) ، على حين نجده في موضع آخر يقول إن إسحاق هو الذى أمر بحفر هذه البئر ، ثم لما وجد فيها ماء دعاها « شِبعة » ، ثم تطور هذا الاسم إلى « بئر سبع » (٢٦ / ٣٢ - ٣٣) . فهل هذا هو الكتاب الذى يريد منا البعض أن نحاكم القرآن إليه ؟

ويقول جرجي زيدان عن عرب الشمال ، وهم العرب العدنانيون، إنهم يرجعون بأنسابهم إلى إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ثم تراه يسميهم بـ « الإسماعيليين » ، ثم يضيف قائلا إن رواية العرب الشماليين عن أصولهم تكاد تكون منقولة عن العهد القديم ما عدا المكان الذى نشأ فيه إسماعيل عليه السلام ؛ فهو في العهد القديم قد نشأ في برية فران أو جبل فران (عند العقبة في شمال سيناء) ، أما عند العرب ففي مكة بالحجاز . وهو يرى أن من السهل مطابقة الروايتين إذا علمنا أن جبال مكة أو جبال الحجاز تُسَمَّى هي أيضا « فاران » أو إذا قلنا إنه أقام حينا في سيناء ثم انتقل إلى الحجاز . ثم يعلل سكوت العهد القديم عن تتبع أخبار إسماعيل بأنها لا تدخل في تاريخ اليهود . كذلك فالعهد القديم يذكر لإسماعيل اثنى عشر ولدا أسماؤهم تطابق أسماء بعض قبائل العرب الشماليين [1] . وأخيرا لماذا

---

(١) انظر جرجي زيدان / العرب قبل الإسلام / مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس / دار الهلال / ٦٨ ، وكذلك د. محمد إبراهيم الفيومي / تاريخ =

يا ترى لم ينبّز اليهود فيكذّبوا محمداً عندما ردّد القرآن ذلك الذى كان يقوله الجاهليون عن إبراهيم وإسماعيل وبنائهما الكعبة ؟

ومع ذلك فمن العلماء الكبار من يرى أن العهد القديم لا يخلو من الإشارة إلى هاجر وبئر زمزم وبيت الله الذى رُفِعَتْ قواعده عندها : فمثلا نجد محمد حميد الله (العالم الباكستانى) ، فى هامش ترجمته لقوله تعالى : « إن أول بيت وُضِع للناس لَلَّذى ببكّة (أى بمكة) مباركا ... » [١] ، يُحيل إلى ما جاء فى الآية السادسة من المزمور الرابع والثمانين عن العابرين فى وادى بكة والينبوع الذى انفجر هناك [٢] . كما يقول مارتن لنجز[٣] إن هناك إشادة غير مباشرة بإسماعيل وأمّه فى ذلك المزمور الذى يحدثنا عن معجزة انفجار زمزم مُرجِعا إياها إلى عبورهما خلال وادى بكة ، وذلك على النحو التالى : «طوبى للإنسان الذى عزُّه بكَ ، والذى فى قلبه طُرُق أولئك الذين عند عبورهم فى وادى بكة (Baca) يصيِّرونه ينبوعا » [٤] . وقد

= الفكر الدينى الجاهلى / ط ٤ / دار الفكر العربى / ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م / ١٠ .

(١) آل عمران / ٩٦ . و« بكّة » اسم من أسماء مكة كما هو معروف .

(2) Muhammad Hamidullah, Le Saint Coran, 8ème édition, Beyrouth, 1973, p. 78 .

(٣) المستشرق الإنجليزى الذى كان يدرّس اللغة الإنجليزية وآدابها فى الجامعة المصرية فى الأربعينات ثم أسلم وتسمّى بـ « أبو بكر سراج الدين » .

(٤) هذه ترجمتى لكلام المزمور كما جاء عند لنجز ، وهو منقول حرفيا عن ترجمة الملك جيمس . أما فى النسخة العربية التى عندى (طبعة جمعيات الكتاب المقدس المتحدة / ١٩٦٦م) فنجد « وادى البكاء » =

احتفظت بعض التراجم الإنجليزية والفرنسية بكلمة « بكة : Baca » كما هى (مثل ترجمة الملك چيمس الإنجليزية ، وترجمتى أوسترفالد (Ostervald) ولويس زيجون (L. Segond) الفرنسيتين) ، وبعضها تصرّف فيها (كترجمتىْ « L'École Biblique de Jerusalem » و « L'Alliance Biblique Universlle ») ، إذ قالت الأولى ما ترجمته : « وادى الباكـى » ، على حين تذكر الثانية « وادى البلسم » . وهناك حيرة واضطراب عند الكتابيين فى تفسير هذه العبارة، وهم لا يذكرون مكة فى هذه التفسيرات .

وأما بالنسبة للجمعة فكل ما يمكن أن يقال إن قريشا كانت تجتمع فى ذلك اليوم فى دار الندوة فيخطبها كعب بن لؤى[1] ، فأين هذا من صلاة الجمعة على نحو مخصوص فى وقت مخصوص ، وفى مساجد البلاد جميعا لا فى دار معينة من مكة دون غيرها ، وللناس جميعا لا لمن يحق لهم دخول تلك الدار أو على الأقل لمن تسعهم ، وبخطبة دينية لا خطبة سياسية أو اجتماعية ؟ ولنلاحظ أيضا أن صلاة

= بدلا من « وادى بكة » مع اختلاف طفيف فى بعض الألفاظ . وتجد كلام لنجز فى كتابه : " Muhammad, His Life Based on the Earliest Sources, The Islamic Text Society , 1997, p. 2 ".

(١) انظر « الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية » / ٢١ ، والدكتور جواد على / تاريخ العرب قبل الإسلام / ٥ / ٢٤٥ _ ٢٤٦ .

الجمعة لم تُشْرَع إلا فى المدينة ، على حين أن اجتماع يوم الجمعة فى دار الندوة كان فى مكة ... إلخ.

وعن تحريم عبادة الأصنام وقرابينها نقول إن ذلك دين الأنبياء جميعا ، ومنهم إبراهيم جدّ العرب وإسماعيل أبوهم . وكذلك ليس هناك دين سماوى يحلّل الربا أو الخمر أو الزنا . فالطنطنة بأن تحريم هذه الفواحش مأخوذ من الحنفاء طنطنةٌ فارغةٌ فراغَ عقلِ مَنْ يبدئ فيها ويعيد ظنا منه أنه وقع على سلاح يستطيع أن يوجهه للإسلام فى مقتل . ثم إن الحنفاء أنفسهم كانوا يقولون إنهم على دين إبراهيم ، فعلامَ إذن كل هذه الضجة ؟ وقُلْ مثل ذلك فى الختان . أما الصوم فهو موجود فى كل الأديان تقريبا السماوية وغير السماوية كما سبق أن بيّنّا فى فصل سابق من هذا الكتاب ، ومع هذا فالصوم الإسلامى يختلف عن صيام اليهود والنصارى والمجوس اختلافا عظيما . ثم هل نسى الشيخ خليل ما قاله فى الصوم من أن محمدا شرعه للاستعانة به على عسكرة المجتمع الذى كان يحكمه ؟ أولم يقل أيضا إن الرسول قد اختار له شهر رمضان عن تدبّر وتفكير لأن الحرارة فيه تبلغ أقصى شدتها ... إلخ هذا الجهل المنفلت ؟ فما الذى جعله الآن يقول بنسبته إلى الحنفاء ؟[1] لطفَك اللهم !

---

(١) تكلم الشيخ خليل عن أخذ الإسلام هذه الأشياء من الحنفاء فى ص٢٣ ـ ٢٦ من كتاب « الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية » .

ونصل إلى تعدد الزوجات ، والأمر فيه لا يخرج عن أحد شيئين: التعدد أو التوحيد . وسيدنا الشيخ يقول بتأثر الإسلام بسنة العرب في هذا السبيل ، إذ إنهم كانوا يعدّدون[١] . والحق أن لو كان الإسلام قد اختار التوحيد هنا لما أفلت من اتهام الشيخ اليسارى الإسلامى بأنه جرى فى ذلك على سنة الأمة الفلانية أو الطائفة العلانية ، بل لما أعياه العثور على أحد الجاهليين ممن لا يُعرف عنه أنه تزوج بأكثر من امرأة قائلا إن الإسلام قد قلده فى ذلك . وعلى أية حال فليس العرب القدماء وحدهم هم الذين كانوا يعدّدون ، بل كان العبرانيون[٢] والصقالبة والسكسون من معدّدى الزوجات أيضا ، ومثلهم فى ذلك كثير من سكان أفريقيا والهند والصين واليابان . وبعض المجتمعات ترقى بالتعدد إلى المئات ، وبعضها تهبط به إلى الآحاد[٣] .

على أن الإسلام حين اختار التعديد انما اختاره لأنه هو الأوفق لطبيعة البشر وظروفهم مما أفاض فيه الباحثون لا لأن العرب يفضلونه ، وإلا فلماذا لم يقرّهم على وثنيتهم أو أكلهم الميتة أو شربهم الخمور

---

(١) الجذور التاريخية / ٣٦ .

(٢) ومصداق ذلك ما نقرؤه فى العهد القديم عن تعدد زوجات عدد من أنبيائهم .

(٣) انظر فى ذلك « معجم العلوم الاجتماعية » لمحرره د. إبراهيم مدكور / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٥م / ١٥٨ – ٥٩ .

مثلا ؟ بل لماذا لم يقرّهم على تعدد الأزواج وزواج الاستبضاع[١]، وزواج الشغار[٢] وزواج المقت (وهو الزواج بامـرأة الأب) وزواج البَدَل (أى تنازل رجلين كل منهما لآخر عن زوجته دون مهر) والزواج بأختين فى نفس الوقت ؟[٣] وفوق ذلك فإن الإسلام قد قيّد التعدد بأربع ، واشترط فيه العدل بين الزوجات ، وإلاّ فواحدة[٤] ، وهذا مما خالف فيه العرب ، إذ لم يكونوا يعرفون التحديد .

ومما وقف عنده الشيخ اليسارى الإسلامى وزعم أن الإسلام أخذه من الجاهلية ميراثُ المرأة[٥] . ومعروف أن كلاً من البنت والأخت مثلا ترث فى الإسلام نصف ما يرثه أخوها (وإن كانت هناك حالات أخرى ترث فيها المرأة أكبر مما يرث الرجل) ، فماذا كان

---

(١) زواج الاستبضاع هو طلب الزوج من أحد الأصحاء الشجعان من أبناء البيوتات أن يدخل على امرأته ويعاشرها كـى تنجب له ولداً نجيباً مثله .

(٢) الشغار أن يعطى رجل بنته أو أخته مثلا زوجةً لرجل آخر لقاء إعطاء هذا إياه نظيرتها زوجة له هو أيضاً دون مهر لهذه أو تلك .

(٣) انظر فى وجود هذه الزيجات عند العرب فى الجاهلية « تاريخ العرب قبل الإسلام » للدكتور جواد على / ٥ / ٢٥٣ وما بعدها . وانظر فى تعدد الأزواج عند العرب « معجم العلوم الاجتماعية » / ١٥٨ .

(٤) النساء / ٣ .

(٥) الجذور التاريخية / ٤٥ _ ٤٦ .

موقف الجاهليين فى هذه القضية ؟ يجيب د. جواد على أن الميراث عندهم « كان خاصا بالكبار من أولاد المتوفَّى ، أما الأولاد الصغار والجوارى[1] والبنات فلم يكن يُدْفَع لهن شىء مما ترك الميت . وقاعدتهم فى ذلك : « لا يرث الرجلَ من ولده إلا من أطاق القتال » ، ولهذا كان الإخوة يرثون الميت إذا لم يكن لديه أولاد ، ويرثونه وحدهم أيضا إذا كانت ذريته بنات . وقد اغتاظوا حين نزل الوحى بتنظيم الميراث وباشتراك البنات فيه فذهب بعضهم إلى رسول الله قائلا : « يا رسول الله ، أنعطى الجارية نصفَ ما ترك أبوها وليست تركب الفرس ولا تقاتل القوم ، ونعطى الصبىَّ الميراث وليس يُغْنى شيئا ؟ » . فعلى أقل تقدير كان هذا هو الشائع بينهم ، أما إذا قرأنا أخبارا يُفْهَم منها أن المرأة العربية فى الجاهلية كانت ترث فإن ذلك كان خاصا ببعض القبائل منهم فقط . ومن تضارب الروايات فى هذا الموضوع أيضا ما يقال من أن أول من جعل للبنت نصيباً فى الميراث من أهل الجاهلية هو عامر بن جُشَم اليَشْكُرى ، إذ ورَّث ماله لأبنائه على أساس أن يكون للابنة نصف نصيب الابن »[2] ، وهو خبر غريب وسط ما بلغنا من أحوال الجاهلية فى ذلك الموضوع ، بيْد أن الشيخ خليل كعادته

---

(١) الجارية هنا هى الصبيَّة .

(٢) د. جواد على / تاريخ العرب قبل الإسلام / ٥ / ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

يترك كل ما قيل عن حرمان النساء من الميراث فى الجاهلية ويتمسك برواية طائرة هنا أو ههنا . وحتى لو قلنا إن الإسلام قد أخذ توريث المرأة من الجاهلية فإن تفسير الأمر واضح ، وهو أننا هنا أمام اختيارين لا ثالث لهما : تُعْطَى المرأة من الميراث أو لا تُعْطَى ؟ وقد اختار الإسلام الحلّ الإنسانى النبيل رغم معاكسته للتيار العام عند العرب آنذاك بل وحتى الآن . وكثير من الناس فى مصر ، وبخاصة فى الريف ، الذى يشكل سكانه السواد الأعظم من المواطنين ، يلجأون إلى حيل مختلفة لحرمان النساء من الميراث ، ومصر ليست أمة بدوية أمية متخلفة كما يحلو للشيخ عبد الكريم أن يتهم العرب . وبالمناسبة فقد سمعت أنه ليس مصريا أصيلا بل عربيا وفد أسلافه من جزيرة العرب إلى أرض الكنانة . ولسنا هنا نقصد شيئا سوى لفت النظر إلى موقفه الغريب المريب من العرب ، إذ قلت إن المقصود (فيما أرى) ليس هو الزراية على العرب بل على الإسلام . على أننا ينبغى أن نتنبه إلى أن ذلك اليَشْكُرى ، إن صح الخبر ، لم يورِّث إلا بناته ، أما الإسلام فقد جعل للأخت وللأم وغيرهما من النساء أيضا أنصبة فى الميراث ولم يقتصر على بنات الإنسان . ثم إنه قد أثبت للمرأة حقوقا أخرى كثيرة لم تتمتع بها المرأة الغربية حتى العصر الحديث ، إذ لم يكن يحق لها التصرف فى ملكيتها الخاصة ولا أن تكون وصية على الأبناء ولا أن تحصل على أجر مساوٍ لأجر الرجل . وقد ظل الأمر كذلك فى إنجلترا

مثلا حتى أواخر القرن الماضى[1] .

كذلك لابد أن ننبه إلى أن الإسلام ، وإن أعطى البنت والأخت نصف نصيب أخيها فقط ، فإنه فى الواقع قد فضّلها عليه ماديًا . ذلك أن المرأة لا تُطالَب فى الإسلام بأى إنفاق ، بخلاف الرجل الذى لا بد له من الإنفاق عليها ، كما أنها هى التى تأخذ المهر وهو الذى يعطيه ، وإذا طُلِّقت كان لها نفقة المتعة ... وهكذا . فالنصف إذن يبقى لها كله ، أما الرجل فهو ينفق كل ما ورثه .

والشيخ اليسارى الإسلامى يتجاهل عامدا متعمدا نصوصا كريمة كثيرة تلحّ على احترام المرأة وترفع مكانتها إلى أعلى عليين كقوله ﷺ ثلاث مرات لمن سأله عن أحق الناس بصحبته : « أمّك » ثم قوله فى المرة الرابعة والأخيرة : « ثم أبوك » ، وكهذا الحديث النبوى الذى ليس له نظير : « الجنة تحت أقدام الأمهات » ، وكجعله ﷺ الجنة جزاء من يحسن تربية بناته حتى لو لم يكن له منهن إلا واحدة ، وكأمْره الرجال بأن يستوصوا بالنساء خيرا وأن يصبروا عليهن ولا يضيقوا بعشرتهن وأن ينظروا دائمًا إلى الجوانب الطيبة فيهن ويغضّوا الطرْف عما لهن من عيوب ، وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى لا يجهلها من له أدنى معرفة بالإسلام . ولكن ماذا نفعل ؟ صدق من قال : « الغَرَض مَرَض ! »

---

(١) انظر « معجم العلوم الاجتماعية » / ٥٩٨ _ ٥٩٩ (مادة « نسائية ») .

ومما تعرّض له أيضاً شيخنا اليسارى الإسلامى وأجْلَبَ به على القارئ متهما فيه الإسلامَ موضوعَ الرق ، الذى يحاول أن يُوقِع فى رُوع القارئ أن الإسلام قد أخذه عن العرب (١) ، وهى محاولة مكشوفة التهافت ، فقد كان الرق معمولاً به فى العالم كله بل ظل موجودا إلى العصر الحديث حتى فى أوربا وأمريكا (٢) ، وعلى نحوٍ لا يعرف الرحمة على الإطلاق كما تخبرنا الأفلام والمسلسلات التى يتجولها هم أنفسهم . ومع هذا فقد أدخل عليه الإسلام تطويرات تكفل تخفيف متاعبه مع الأيام تماماً ، إذ انتهز كل فرصة تسنح لإعتاق الرقيق ، وذلك بجعله مثلا كفارةً لعدد من الأخطاء التى يسهل وقوع الإنسان فيها كإيذاء السيّد لعبده والحِنْث فى اليمين والإفطار العمد فى رمضان والقتل الخطإ ورغبة الرجل فى مراجعة زوجته التى ظاهر منها ... إلخ ، زيادة على أنه شرع المكاتبة فجَعَل من حق العبد والأَمَة أن يحرّرا أنفسهما بما يستطيعان تدبيره من مال ، كما أن شريعة محمد قد حبّبت للمسلم إعتاق عبيده وإمائه لا لشىء إلا للتقرب من ربه سبحانه . ثم إن القرآن يخلو تماماً من تقنين الرق ، إذ كل ما جاء فى آية سورة « محمد » الخاصة بأسرى الحرب هو قوله تعالى : « فإذا

(١) انظر « الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية » / ٨٢ .

(٢) انظر مادة « رق » فى « الموسوعة العربية الميسرة » / ١ / ٨٧٣ - ٨٧٤ ، وإبراهيم هاشم فلالى / لا رق فى القرآن / دار القلم / ١٥ - ٣٦ .

لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب ، حتى إذا أثختنموهم فشدُّوا الوَثاق . فإمّا منّا بعْدُ وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها » [١] . وكما يرى القارئ ليس فى الآية أى كلام عن استرقاق أسرى الحرب ، وقد كانوا آنذاك هم المصدر الوحيد للرقّ فى الإسلام ، الذى ألغى استرقاق المخطوفين ومرتكبى جرائم القتل والسرقة والزنا والمدينين الذين يعجزون عن الوفاء بديونهم والأولادِ الذين يرى آباؤهم لسبب أو لآخر بيعهم والأشخاصِ الذين تدفعهم الحاجة إلى بيع أنفسهم [٢] . كما قرّر الإسلام للأرقاء حقوقًا عظيمة لم يكونوا يحلمون بها [٣] . وقد أعتق الرسول عليه السلام ما كان عنده من رقيق فى الجاهلية وكذلك ما أُهْدِىَ إليه منهم ، كما أطلق أرقاء مكة وأرقاء بنى المصطلق وأرقاء حُنَيْن عقب المعارك التى كانت بينه وبينهم [٤] . ومعروف أنه فادى أسارى بدرٍ إما بمالٍ وإما بقيام من كانوا يعرفون الكتابة والقراءة منهم بتعليمهما لأطفال المسلمين .

---

(١) محمد / ٤ .

(٢) انظر مادة « رق » فى « معجم العلوم الاجتماعية » / ٢٩٣ ، ود. على عبد الواحد وافى / الحرية فى الإسلام / سلسلة « اقرأ » (العدد ٣٠٤)/ يوليو ١٩٨٠م / ٢٤ ـ ٢٦ .

(٣) انظر السيد سابق / فقه السنة / ٢ / ٦٨٨ ـ ٦٩١ ، ود. على عبد الواحد وافى / الحرية فى الإسلام / ٤٤ ـ ٥٧ مثلا .

(٤) انظر « فقه السنة » للسيد سابق / ٢ / ٦٨٨ .

ويُرجِع الشيخ اليساريُّ الإسلاميُّ التخميسَ (أى أخذ الدولة الإسلامية خمس الغنائم التى يحصل عليها الجيش من الأعداء وضمّه إلى خزينتها للإنفاق منه على مواطنيها) إلى ما كان معروفا فى الجاهلية من أخذ شيخ القبيلة أو قائدها فى الغارة ربع الغنيمة[1].

والمسألة هنا ليس فيها إلا أمران اثنان لا غير : أن تأخذ الدولة نصيبًا من الغنائم تنفقه فى مطالبها التى لا تنتهى أو لا تأخذ ، والدول كلها تأخذ غنائم الحروب جميعا لا خمسها فقط ، فهل ورثته عن عرب الجاهلية هى أيضًا ؟ إن « الربع » الذى كان يأخذه شيخ القبيلة أو أمير الغزوة فى الجاهلية إنما كان يذهب إليه هو وحده ، أما « الخمس » فيذهب إلى خزينة الدولة . وقد كان النبى يأخذ من هذا الخمس خُمُسَه بوصفه موظفا فى هذه الدولة ، ولكن بعد انتقاله عليه السلام إلى الرفيق الأعلى أضحى خُمْس الغنائم كله من نصيب الخزانة العامة . فعلام الجُؤار والصياح إذن يا سيدنا الشيخ ؟

ومثل ذلك يقال عن الشورى ، التى راح الشيخ اليسارى الإسلامى يصدّع دماغنا بأنها منقولة عن العرب الجاهليين[2] . طيب ، وماذا فى هذا ؟ أكنت تريد أن يضرب الإسلام عن الشورى صفحا

(١) الجذور التاريخية / ٩٥ - ٩٦ .
(٢) المرجع السابق / ١٢٨ - ١٢٩ .

ويأخذ بالاستبداد والدكتاتورية ؟ أبالله عليك أكنت ستسكت فلا تُوسِع الدنيا عويلاً ولَطْمَ خدود وتسفح كل ما فى شؤون عينيك من دموع تسيل على خدك بسبب انحراف محمد عن استشارة أصحابه وأتباعه فى شؤون الحكم والدولة ؟ يا رجل ، إن الحياء خير كله !

ولقد وضع الإسلام الخطوط العامة للشورى، ويستطيع المسلمون أن يستحدثوا لها من النظم والأوضاع والضمانات ما يكفل لها تأدية وظيفتها والإتيان بالثمار الحلوة المرجوّة منها على خير وجه وأحسنه وأعظمه مسترشدين بتجارب الأمم الأخرى قديما وحديثا ومحافظين فى ذات الوقت على روح دينهم وميزاته ومحاسنه ، فالحكمة ضالة المؤمن يطلبها أنّى وجدها . وإنه ليكفى أن نقول إن القرآن الكريم قد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالشورى ، وهو مَنْ هو عبقريةً وكمالَ عقل واتصالاً بالسماء ، وإنه عليه السلام لم يتوان فى ذلك لُحَيْظَة ، فما بالنا بمن هم دون الرسول مِنْ حكام المسلمين ؟ ولقد كان للرسول مجلس شوراه ، كما للأمم الديمقراطية مجالس نُوّابها وشيوخها، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم فى أحيان أخرى يوسع دائرة المشورة فيسأل الناس جميعاً قائلا : « أشيروا علىّ أيها الناس » .

كذلك فالشورى فى الإسلام واجبة وملزمة لا اختيارية ، وتعدد الأحزاب أمر مشروع ومسموح ، وكذلك تداول السلطة . ورأيى أن

الناس في أي بلد إسلامي لو اختاروا حزبا آخر لا يريد الحكم بشريعة الله فَهُمْ وما اختاروا . ذلك أننا لا نستطيع أن نجبر أحداً على أن ينبذ ما يقتنع به أو ما يختاره ونُكْرِهه على ما نريد نحن . إن هذا ليس من الشورى في شيء . والرسول نفسه عليه السلام ، كما أقول دائماً ، ما كان له أن يكون حاكما على المدينة لو لم يختره زعماؤها في بيعة العقبة ويوافق على هذا الاختيار سكانها ، علاوة على المهاجرين الذين كانوا قد اتخذوه زعيماً لهم من قبل(١) . كما أنه عليه السلام كان يأخذ في الشورى برأى الأغلبية حتى لو كان مخالفا لرأيه هو مثلما حدث في مشاورته للمسلمين بخصوص الطريقة التي ينبغي اتباعها في مواجهة المشركين في غزوة أحد ، إذ رأت الأغلبية الخروج لملاقاتهم خارج المدينة بينما رأى هو وبعضٌ آخرُ البقاءَ بالمدينة حتى إذا دخلها عليهم المشركون قاتلهم الرجال في الشوارع ورماهم النساء والأطفال بالحجارة من فوق البيوت ، فأخذ الرسول بالرأى الأول لتوافر الأغلبية له(٢) . أما

---

(١) وقد أعجبني أن أجد الأستاذ فهمي هريدي يقول كلاما مثل هذا في كتابه « الإسلام والديمقراطية » معتمدا على أقوال عدد من كبار مفكري الإسلام وفقهائه في العصر الحديث كمحمود شلتوت والعقاد وعبد القادر عودة ود. محمد ضياء الدين الريس ود. توفيق الشاوي ود. يوسف القرضاوي (انظر القسم المعنون بـ « الإسلام والديمقراطية » من الكتاب المذكور) .

(٢) للشيخ عبد المتعال الصعيدي بحث قيم (رغم صغره) عن الشورى =

إذا كان المسلمون قد تقاعسوا عن حقوقهم ورضُوا بالمذلة يتجرعونها بل ويستزيدون منها وخضعوا لمن يسومونهم المهانة فهم وما أرادوا لأنفسهم. ولكن عليهم أن يعرفوا أن الإنسان لا يجنى من الشوك زهرا ولا من الحنظل تفاحًا وعنبًا ! والإسلام لن يمسك بملعقة الدواء ويسقيه لهم غصبا ، فلقد هدى الله عباده من أفراد وأمم إلى النَّجْدَيْن ، والأمر موكول لاختيارهم ، وهم محاسبون مع ذلك على ما ارتضوْه لأنفسهم من عزة وكرامة أو ذلة ومهانة !

هذا ، وقد أعرضنا عن بعض المسائل الأخرى التى أثارها الشيخ خليل إما لأنها ليست بذات بال وإما لأنها لا علاقة لها بالشريعة وإمّا لأنها لا تختلف كثيرا عما تناولناه هنا .

وعلى هذه الشاكلة يصوِّر الشيخ اليسارى الإسلامى أمر النبوة المحمدية ، إذ لا تعدو فى زعمه نَقْلَ محمد تشريعاته عن العرب وأنظمتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ، ثم ضَحِكَه على أتباعه موهمًا إياهم أنه رسول يُوحَى إليه . أما كيف استطاع محمد أن يخدع هؤلاء الأتباع المساكين ويطوّعهم لتحقيق أغراضه دون أن يتنبهوا لخططه

= الإسلامية وتفوقها على النظام الحزبى المعروف ضرَب فيه مثَلَ غزوة أحد (انظر كتابه « دراسات إسلامية » / ط ١ / دار الفكر العربى / ١٤٦ - ١٥١) .

ومراميه البعيدة الغايات ، فإن المؤلف العبقرى يخصص لذلك كتابا كاملا عنوانه « شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة ـ محمد والصحابة » ، وفيه يقول إن « محمدا اجتمعت فيه الخبرة العملية من النشأة الصعبة التى جابهته فى مستهل حياته وصاحبته حتى اقترانه بخديجة ، مع الثقافة العميقة المحصودة من الرواقد العديدة ذات الخطر التى ذكرناها [١] . كل ذلك بالإضافة إلى ما أطبقت عليه كتب السيرة والتواريخ أنه كان يتمتع بشخصية آسرة تبهر كل من يلتقيه وتأخذ بمجامع لبه . هذه العوامل : الخبرة العملية والثقافة الوسيعة ذات الجذور المتنوعة مع قوة الشخصية أهّلت محمدا لأن يهيمن على الصحابة هيمنة كاملة أدهشت معاصريه حتى من كان يخاصمه ويناوئه بل يعاديه ويحاربه » [٢] . ثم يمضى الشيخ خليل عبد الكريم فيورد صوراً من هذا التفانى المطلق فى التعلق بالرسول وطاعته ، مثل ابتدارهم ، عليهم رضوان الله ، وَضوءه وبُصاقه وشعره المحلوق ، وتقبيل بعضهم يديه ورجليه ، وقيام صحابى من فوق امرأته بمجرد سماعه نداءه له ، واستعداد هذا الصحابى أو ذاك لأن يقتل أباه أو

---

(١) يقصد اختلاطه فى أسفاره التجارية بأهل الكتاب واحتكاكه بالحنفاء وتعلمه منهم (شدو الربابة بأحوال مجتمع اصحابة ـ السفر الأول - محمد والصحابة / ٤٩ ـ ٥٠ ، ٥٥) .

(٢) المرجع السابق / ٥٠ ـ ٥١ .

أخاه أو عمه مثلاً بل إقدام بعضهم على ذلك فعلا ، وتغييرهم هيئاتهم وملابسهم بمجرد أن يأمرهم محمد بذلك ... وهلم جرا [(١)].

وهو يؤكد أن هذه النتيجة العجيبة قد تمّ الوصول إليها بخطة مدروسة وضعها محمد ونفذها باقتدار وصبر ودهاء وانتهاز للفرص ومعرفة بطبائع الرجال ومقتضيات الظروف والمواقف [(٢)]. والشيخ يشير بهذا إلى الهدف النهائى الذى يدّعى أن محمدا قد حدّده منذ البداية وعمل طوال حياته على تحقيقه ، ألا وهو إقامة دولة قرشية برأسها ويصبح سيد العرب . أى أنه لا نبوة ولا وحى ولا ألوهية ولا جنة أو نار، وإنما تخطيط وتنفيذ دءوب لا غير .

ويمضى شيخنا فيقول إن محمدا قد اعتمد فى تنفيذ خطته تلك على بعض الوسائل التى استوحاها أو أخذها من المجتمع العربى

---

(١) السابق / ٤٠ - ٤١ ، ٥١ - ٥٣ ، ١٩١ - ٢٢٧ . وسوف يعود المؤلف فى مواضع أخرى من كتابه هذا فيُرْجع مثل هذه التصرفات إلى مجرد التظاهر بطاعة الرسول حتى يرضى عنهم لا إلى طاعة حقيقية (ص ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩) . وهذا التناقض الفجّ هو أحد الملامح الأساسية فى كتابات خليل عبد الكريم ، الذى لم يدّع أحدٌ ادعاءاته الواسعة المملّة بأنه يلتزم الأسلوب العلمى الصارم .

(٢) السابق / ٥٣ ، ٥٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ وغير ذلك .

الذى ينتمى إليه ، وهذه الوسائل هى التنفير بكل سبيل من الماضى ، الذى أطلق عليه اسم « الجاهلية » (من الجهل والجهالة كما يقول الشيخ عبد الكريم) لكى يبغّض فيه أتباعه تبغيضا تاما ، وتوزيع أموال الغنائم والأنفال عليهم عقيب كل معركة جريا على ما كان يتبعه زعماء القبائل آنذاك مع رجالهم فى غارات السلب والنهب التى كانوا يشنونها على القبائل الأخرى ، وإلهاؤهم بالألقاب التى كان يكيلها لهم كيلا بلا حساب لأنها لا تكلفه مالاً ، فضلا عما كان يُجريه من تغيير على أسمائهم وهيئاتهم وملابسهم إذا وجد أنها لا تتسق مع الوضع الجديد الذى جاءهم به [١] . ويكرر الكاتب فى كل مناسبة هنا أن محمدا كان كلما أراد أن يحل مشكلةً أو يأمر أصحابه بشىء أو يُسكتهم عن الاعتراض عليه « تلا عليهم قرآنا » [٢] .

هذا هو رأى الكاتب فى الإسلام ونبيه بإيجاز ، وهو ما يعنى بكل وضوح وجلاء أنه لا نبوة من جانب محمد ولا إيمان من جهة الصحابة ، بل مجرد طمع دنيوى هنا وهناك : محمد يطمع فى إقامة دولة قرشية يكون هو على رأسها سيد جزيرة العرب كما قال الكاتب الأمين [٣] ، والصحابة يطمعون فى الغنائم والألقاب . وهذا هو تفسير

---

(١) السابق / ٥٧ ـ ١٨٨ .

(٢) ص ٥٧ .

(٣) نفس الصفحة السابقة .

الأمر كله عند فضيلة الشيخ . والآن إلى التفصيل :

يبدأ الشيخ خليل عبد الكريم كتابه بالكلام عن « الصحابة » وعن السرّ فى أن محمدا قد أعطاهم هذا الاسم ولم يقل مثلا : « الإخوان أو الأصدقاء أو الأخدان أو الحواريون » . وهو يتحذلق فى ذلك حذلقة غثّة تدل على تخبُّط وجهل بالموضوع الذى يأبى إلا أن يدسّ أنفه فيه . خذ مثلاً تعليله لعدم استخدام الرسول لأتباعه المعاصرين له لقب « الإخوان » : إن السبب عنده هو أن الأخوّة تعنى المماثلة والمساواة بينهم وبينه ، على حين كان محمد يعمل بكل ما فى وسعه على أن ينفى هذا . لكن الشيخ الهمام يصطدم ببعض الأحاديث التى يذكر فيها محمدٌ عليه السلام أخوّة أبى بكر وزيد بن حارثة له ، فيكون ردّه أن الأخوّة هنا هى أخوة الدين ، وهى لا تعنى المشابهة والمماثلة [1] . وهو ردّ متهافت بيّن السقوط ، إذ من قال إنه عليه السلام لو كان سمّى صحابته بـ « الإخوان » لكانت الأخُوّة هنا شيئا آخر غير أخوة الإسلام ؟ ثم يستمر فى الحذلقة الفارغة قائلاً إن القرآن عندما سمّى صالحا مثلا « أخا ثمود » أو هُوداً « أخا عاد » أو شُعَيْبا « أخا مدين » لم يكن يقصد أن أقوامهم الكفرة

(١) ص ٢٧ ـ ٣٨ .

مساوون لهم في الرتبة ، بل المقصود بكلمة « أخ » هنا هو أنه « رسول » . أى أن صالحا هو رسول ثمود ، وهُوداً هو رسول عاد ، وشعيبا هو رسول مدين[١] . ومرة أخرى نقول إن هذا تفسير متهافت بيّن السقوط لسنا نعلم من أين أتى به الكاتب ، فضلا عن أنه هو نفسه يقول إن الإخوانية فى القرآن هى دائما إخوانية الدين[٢] . وعلى هذا يثور السؤال التالى : وأين الأخوة فى الدين بين هؤلاء الأنبياء وأقوامهم وقد أُطْلِقَتْ عليهم هذه التسمية من قَبْل إيمان أحد من أقوامهم بهم ، كما أن الكثيرين من أقوامهم قد ظلوا على عنادهم وكفرهم برسالتهم ولم تكن بين الفريقين من ثَمّ أُخُوّة إيمان ؟ وفوق هذا فقد ذكر الشيخ أن النبى عليه السلام قد فرّق بين أتباعه المعاصرين له وأولئك الذين سيدخلون فى دينه بعد موته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فسمّى الأولين « أصحابه » و الآخرين « إخوانه » [٣] ، وهو ما ينقض كل حذلقاته السخيفة فى هذه المسألة، فها هو ذا محمد يجعل أتباعه جميعهم (ما عدا الجيل الأول منهم) إخواناً له ، فماذا نعمل فيما زعمه الشيخ العبقرى من حرص

---

(١) ص ٣١ .
(٢) ص ٣١ ـ ٣٢ .
(٣) ص ٢٧ ـ ٢٨ .

الرسول عليه السلام على نفى المماثلة والمساواة بينه وبين الصحابة بغرض إقامة حاجز يفصلهم عنه فلا يتخطّونه ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك ما ساقه الكاتب نفسه من حديث الرسول الذى يقول فيه إن خير القرون قرنُه (١)، كان معنى ذلك أن الصحبة خير من الأُخُوَّة ، أى أن النبى لم يكن يحتقرهم أو يضع حواجز بينه وبينهم تجعلهم دائما بنجوة منه كما يدّعى كاتبنا . ألا يوافقنا القارئ إذن على أن هذا رجل يتعرض لما لا يحسن ويرمى بنفسه فى المآزق دون أن يفكر فيما سيصيبه فيها من بلاء ولا فى الطريقة التى سيخرج بها منها ؟

ويتظرّف الأستاذ الشيخ(٢) (أو الشيخ الأستاذ ، لا يهمّ) عندما يقول عن سيد البشر جميعاً (سيّد البشر جميعا ، وإن رَغِمَتْ أنوف) إن « الإجماع منعقد على أن محمدا عبقرية فذة . ويؤمن كاتب هذه السطور (٣) إيمانا عميقا بعد تدقيق وتمحيص بالتّين أن جزيرة العرب لم تنجب مثله » (٤) . إن الأستاذ الشيخ (أو الشيخ الأستاذ) يؤمن إيمانا عميقاً (وهذه واحدة) ، وبعد تدقيق وتمحيص بالغين ، أى

(١) ص ٨ .

(٢) هكذا لقّبه رفيقه د. القمنى فى مقدمة كتابه « الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية » كما ذكرنا قبلا .

(٣) يقصد الأستاذُ الشيخَ (أو الشيخ الأستاذ) نفْسَه .

(٤) ص ٤٩ .

بعد دراسة متأنية فاحصة وتفكير طويل قلّب فيه الأمر على وجوهه جميعا ولم يتسرّع فيه تسرّعا (وهذه ثانية) ، أن جزيرة العرب لم تنجب مثل محمد (وهذه هى الثالثة . والثالثة ثابتة مثلما جاء فى الأمثال ، وهى ثالثة الأثافى كما يقول أسلافنا من العرب البدو المتخلفين) . والحق أن هذا تطرف سمج ، إذ معنى ذلك أن الأستاذ الشيخ (أو الشيخ الأستاذ) قد قرّر بعد تفكير وتدبير وتقدير طويل وعميق ودقيق أن يتعطّف على محمد[1] ويتنازل من عليائه فيشهد له بماذا ؟ بأن جزيرة العرب (ذلك المجتمع البدوى المتخلف كما يصفه دائما أستاذنا الشيخ أو شيخنا الأستاذ) لم تنجب مثل محمد . أى أن محمدا إذا أتى على رأس أحد فإنما يأتى على رأس هؤلاء الجهلة السذّج الذين لا يعرفون الحضارة ولا تعرفهم الحضارة . يعنى أنه مهما طلع محمد أو نزل فهو فى نهاية المطاف بدوى متخلف مثل سائر قومه، وإن جاء فى مقدمتهم . أخجَلْتَ تواضع رسولنا يا أستاذنا الشيخ أو شيخنا الأستاذ ! لقد أسديت لمحمد معروفا عظيما لم يكن يحلم بمثله قطّ ، فقد جئت على نفسك وعصرتَ عليها ليمونة وتعطفت وتكرّمت وشهدت له هذه الشهادة ، فماذا يريد محمد أكثر من هذا ؟

---

(١) « محمد » هكذا عاريا من أى لقب على طول الكتاب كله كأنه يلعب مع الأستاذ الشيخ (أو الشيخ الأستاذ) فى الحارة !

لقد شهد له خليل عبد الكريم ، وحقّ عليه إذن أن يسوس بده ظهرا وبطنا على هذه النعمة العظمى التى أنعم بها عليه خليل عبد الكريم (على سنّ ورمح) ! أما ما يهرف به أتباعه من أنه سيد البشر جميعاً (والجن كلهم أيضاً) فهذا خلل فى العقل . ماذا ؟ أيريدون أن يجعلوه سيداً لواحد كخليل عبد الكريم ؟ لِمَهْ ؟ أهى نهيبة ؟ صحيح: ناس يخافون ولا يختشون ! ألم أقل لك يا قارئى العزيز إن الأستاذ الشيخ (أو الشيخ الأستاذ) يتظرف تظرفا سمجا ؟ إن الله إذا غضب على شخص جعله ثقيل الظل وحرمه من الحساسية فلا يشعر بثقل ظله بل يظن نفسه أخفّ الناس دماً !

وعالمنا الفهّامة جدا الموضوعى جدّاً يهوّل فى معرفة النبى عليه الصلاة والسلام للحنفاء زاعماً أنه كانت له بهم صلة متوثقة أتاحت له الفرصة للعلم بما كانوا يؤمنون به ويجْرون عليه فى سلوكهم وأخلاقهم مثل التوحيد وتنفير الناس من عبادة الأوثان أو أكل ما يقدّم لها من قرابين ونهيهم إياهم عن وأد البنات وشرب الخمر واغتسالهم من الجنابة ، وضاعفت كذلك محصوله الثقافى الدينى (١) . يريد أنه صلى الله عليه وسلم لم ينزل عليه وحى ، وإنما استمدّ دينه من هؤلاء القوم وأشباههم . ليس ذلك فقط ، بل إنه يتهم الرسول عليه

---

(١) ص ٥٠ . وانظر كذلك كتابه « الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية » / ٢٤ _ ٢٦ .

السلام بأنه كان حريصاً على الاختلاء بسلمان الفارسى فى جلسات ليلية طويلة بالغة الطول بغية الاطلاع على ما عنده من كنز ثقافى ثمين ، إذ كان سلمان يحيط « بما لا يُحْصَى من العقائد والمذاهب الدينية » (١) .

ونبدأ بسلمان . وقد كان يكفى ، لولا انتكاس الضمير والعقل والخلق عند طائفة حاقدة من خلق الله ، أن نقول إن سلمان لم يَلْقَ الرسول عليه السلام إلا بعد هجرته إلى المدينة بزمن ، أى بعد أن نزل القرآن المكى كله وشطر غير قليل من القرآن المدنى بما يحويه هذا وذاك من جميع قصص أهل الكتاب والأمم السابقة تقريبًا ، وهو ما يعنى أن محمداً لم يَعُدْ بحاجة إلى الكنز المعرفى الثمين الذى كان عند سلمان . ثم إن الشيخ الأمين قد اعتمد فى ذلك على خبر فى « أُسْد الغابة » تقول فيه عائشة : « كان لسلمان مجلس من رسول الله بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله » ، وهذا كل ما هنالك . فهل ترى ، أيها القارئ الكريم ، فى هذا الكلام أية إشارة إلى المعارف الدينية التى كانت عند سلمان كما يقول كاتبنا الصادق الصدوق ؟ إنه يثير عاصفة من الارتياب حول الرسول عليه السلام ، إذ يؤكد أكثر من مرة أنه كان حريصا على الاختلاء بسلمان فى هدأة الليل دون أن

---

(١) شدو الربابة ـ السفر الأول / ١٤٤ .

يزعجهما أحد من الأصحاب . والذى يقرأ هذا الهراء وليس عنده علم بأوضاع بيت الرسول سوف يظن أنه عليه السلام كان يسكن قصراً ذا أجنحة وأنه كان يختلى بسلمان فى جناح منها بعد أن يغلق الأبواب دون كل فضولى وفضولية من صحابته وزوجاته رضى الله عن الجميع، مع أن الرسول كان يعيش مع عائشة (ومثلُها فى ذلك مثَلُ أية زوجة أخرى من زوجاته) فى حجرة صغيرة ساذجة ليس عليها مغاليق أو أسوار أو حراس. وكانت عائشة فى مثل هذه اللقاءات تجلس فى ذات الحجرة الصغيرة وتسمع كل شىء ، فلا اختلاء إذن ولا يحزنون ، ولا حرص من جانب الرسول على أى كنز ثمين أو رخيص لدى سلمان أو غير سلمان . وهذا كله إن صدّقنا تلك الرواية ، فإنها قد أتت بغير سند ، فضلا عن أن ترجمة ابن سعد لسلمان فى « الطبقات الكبرى » ، وهى ترجمة مطوّلة شاملة ، تخلو من ذلك الحديث المنسوب لعائشة رضى الله عنها والذى جعل الشيخ جليل من حبته قبة .

وانظر بالله عليك ، أيها القارئ ، إلى هذا التدليس فى قول الكاتب عن ذلك الصحابى الجليل إنه كان محيطا « بما لا يُحصَى من العقائد والمذاهب الدينية » . إن مثل هذا الكلام ليس له من معنى إلا أن سلمان كان يحيط بمئات (إن لم نقل بآلاف) العقائد والمذاهب الدينية ، فهذا وحده هو الذى يمكن أن نصفه بأنه « لا يُحصَى » ، مع أننى لا أتصور أن سلمان كان يعرف من الأديان غير اليهودية

والنصرانية إلى جانب دين قومه ، فهو لم يذهب إلى الهند ولا الصين ولا اليابان ولا إلى مجاهل أفريقيا ولا إلى الأمريكتين أو أستراليا . وقصته مسجلة فى كتب السيرة والتاريخ والطبقات ، وليس فيها غير الذى نقول .

ثم إن سلمان هو الذى سعى إلى النبى عليه السلام ولم يسع النبى إليه ، وذلك فى قصة بحث طويلة عن الدين الحق أوجزها الكاتب الذكى الذى يأبى الله إلا أن يجعله يكذّب نفسه بنفسه ، فقد ذكر شيخنا غير المذكور قبل ذلك بسطور قلائل أننا مع سلمان « أمام شخصية بالغة الثراء والتعقيد ... طوّفت على عدد [1] من العقائد والملل وعلى ... اليهودية والمسيحية ثم استقرت أخيرا على الإسلام تفضيلا له عليها جميعا » [2] . فكيف بالله يمكن أن نصدّق المختالين الذين يزعمون أن محمداً كان يتعلم من سلمان ، وهذا سلمان هو الذى سعى جاهداً إلى محمد كى يحظى بشرف الجلوس منه مجلس التلميذ المخلص والتابع المتفانى ويؤمن به دون أن يتعتّم ولو للحظة ، فكان بذلك طليعة لقومه الذين دخلوا الإسلام بالملايين بعد ذلك بعدد

(١) لاحظ أن المؤلف قد اقتصر هنا على كلمة « عدد » عارية من عبارة « لا يُحْصَى » ، ذلك الوصف السخيف الذى استعمله فى النص السابق. ولاحظ أيضاً كيف أنه لم يستطع أن يذكر شيئا من هذه العقائد والملل ، اللهم إلا اليهودية والنصرانية .

(٢) المرجع السابق / ١٤٣ .

ضئيل من الأعوام وكانوا أول أمة إسلامية تقوم بثورة شعبية فى العصر الحديث ترفع راية الإسلام وتصطدم من أجل ذلك بالقوى الكبرى وتحظى من كاتبنا الهمام بهجوم ماحق مع أنها من الشعوب الإسلامية القليلة التى تعتمد الانتخابات الحرة فى اختيار حكامها ونوابها فى البرلمان ؟ أقول هذا رغم أنى لستُ موافقا على كل ما عند الإيرانيين[1]. أتظن ، أيها القارئ العزيز ، أن اليهود (الذين كان سلمان عبدا عندهم قبيل دخوله الإسلام مباشرة) كانوا سيصمتون فلا يتهمون محمدا بأنه يتتلمذ على يد سلمان ويُفيد مما لديه من معارف اكتسب بعضها منهم ومن مخالطته لهم قبيل دخوله الإسلام لو كانوا قد أحسّوا مجرد إحساس أن الاتهام السمج الذى يفتريه الشيخ اليسارى الإسلامى على رسول الله هو اتهام صحيح ؟ فلو ظلّ المدلّسون مع هذا كله يثيرون الارتياب بالباطل حول سيد البشر ﷺ فيما

(١) لكاتب هذه السطور مثلا كتاب عن « سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم » ، وهى السورة التى ترفعها السيدة فريدة النقاش فى وجه المسلمين دليلاً على أن القرآن قد تعرّضت بعض نصوصه للحذف . وأختهـا أمينة هى إحدى زملاء الشيخ خليل فى زيارة أفغانستان التى قام بها بعض صحفيى جريدة « الأهالى » تدعيما للحكومة الشيوعية التى كانت تتسلّط بالحديد والنار على رقاب الناس هناك والتى سقطت عقب تلك الزيارة التى كانت شؤما على الحكومة العميلة وعلى من ذهبوا يعضدونها ، فتأمّلْ !

يخصّ علاقته بسلمان رضى الله عنه وأرضاه ، فإن ردّنا هو : ولو ! إن ذلك العربى البدوى الساذج (كما يلحّ دائما الشيخ خليل على لمزه هو وقومه بذلك) قد أثبت أنه أذكى وأدهى وأبعد غوراً من هذا الفارسى الأرستقراطى المثقف الذى طاف البلاد والعباد وأحاط بالأديان والمذاهب والفلسفات علماً ولم تنفعه ثقافته الكتابية وحضارته المعقدة أمام أمية محمد ومعلوماته الضئيلة التى تلقاها شقاها من هنا وههنا بما فى ذلك المعلومات التى استغفله وأخذها منه بعد أن سقاه « حاجة أصفرة » فخرّ على وجهه مصدّقا بدينه ومعترفا بنبوته وبأن الوحى يأتيه من السماء ، ومؤمنا بأن الشرف كل الشرف أن يكون واحدا من حواريه وأن يكون جنديا محارباً تحت لوائه فى حياته وبعد مماته ، وظل كذلك غير متذبذب ولا متلجلج إلى آخر لحظة فى عمره مُكْمِداً بذلك الشيخ خليل بل مميته هو و « اليسار الإسلامى » كله غيظا وحقدا . أفلا يستحق ذلك العربى منا كل احترام وإجلال ؟ والله لو لم يكن له إلا هذا لكفانى فى الإيمان به واتباعه إلى آخر العالم .

ونأتى الآن إلى الحنفاء . وما يقوله خليل عبد الكريم بشأن تعلم الرسول منهم قد قاله من قبْلُ طائفة المستشرقين والمبشرين ، الذين رأينا الشيخ يحمل عليهم حملة عنيفة فى البداية ثم يُسْقط القناع بعد ذلك عن وجهه الحقيقى ويكيل لهم الثناء كيلاً إلا المسلمين منهم ، فإنه

يلصق بهم وبأبحاثهم وأفكارهم وعقولهم كل نقيصة متهما إياهم بالتفاهة والضحولة ، فلا جديد إذن فى كلام الأستاذ الشيخ (أو الشيخ الأستاذ) . وقد سبق أن ناقشتُ هذه التهمة الاستشراقية التبشيرية باستفاضة فى كتابى « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى »[١] ، وهأنذا أوجز ما كتبتُه هناك مع بعض التصرفات والإضافات فأقول إن أحدا من الحنفاء أنفسهم لم يدَّعِ هذا ، ولو حدث أن النبى قد تعلم من أيهم لذكر ذلك واحد كأمية ابن أبى الصلت مثلا ، الذى كان يحقد عليه صلى الله عليه وسلم لأنه كان يطمع فى أن تكون النبوة من نصيبه . ثم لو أن محمدا كان قد تعلم من الحنفاء ، أفلم يكونوا هم أَوْلَى بادعاء النبوة منه ما داموا هم الأساتذة وهو التلميذ ؟ ثم تعالوا لنرى ماذا حدث بعد أن أعلن محمد أنه نبى مرسل من ربه :

لقد صدّق مثلا ورقةُ بنُ نوفل بدعوته ﷺ كما هو معروف وأعلن أنه لو امتد به العمر فسوف يقف معه ضد قومه ، الذين أخبره أنهم سيعادونه ويخرجونه من بلده . كما أسلم أيضًا عبد الله بن جحش بعد الالتباس الذى كان فيه ، ثم ظل مسلما إلى أن هاجر إلى الحبشة حيث تنصر هناك ومات قبل أن يعود المهاجرون إلى بلاد

(١) ص ١١٧ ـ ١٢١ ، ١٢٩ ـ ١٤٠ .

العرب، وكان حديد اللسان على سائر المهاجرين بعد تنصره يسلقهم بتهكمه القارص محتمياً بأهل البلاد . فلو كان يعرف عن محمد شيئا من هذا الذى يتهمه به المستشرقون والمبشرون وتابعهم قُفّة لفضحه وفضح زملاءه المهاجرين فى بلاد النجاشى ، بل لما آمن به أصلاً منذ البداية . ومما له مغزاه أن زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت معه فى بلاد الحبشة ، لم ترتدّ مثله بل ظلت مستمسكة بدينها . وقد تزوجها النبى عليه السلام بعد موت زوجها . ومما له مغزاه أيضاً أن كل إخوة هذا الرجل وأخواته كانوا من المسلمين الصادقين الأبرار ، ومنهم أم المؤمنين زينب بنت جحش . ومن الحنفاء أيضاً عثمان بن الحويرث ، وكان قد قَدِم على قيصر فتنصر وحسنت منزلته لديه . بل إنهم يذكرون أن قيصر توّجه وولاه أمر مكة ، لكن أهلها رفضوه . وقد مات مسموماً على يد عمرو بن جفنة الملك الغسّانى . وذلك كله يعطينا فكرة عن نياته ودوافعه .

وممن يُذْكَر فى الحنفاء أيضا أمية بن أبى الصلت ، الذى قدم إلى مكة واستمع من النبى إلى آيات من القرآن قائلا لقريش حين سألوه عن رأيه : « إنه على حق » ، ولكنه أجّل الدخول في الإسلام بحجة أنه يريد النظر فى الأمر، إلى أن وقعت غزوة بدر وقتِل بعض أقاربه من المشركين فيها فاستشاط غيظاً وانقلب يهجو الإسلام ويبكى قتلى المشركين بعد أن كان قد نوى إعلان إسلامه . فهل هذا موقف يبعث على الثقة بصاحبه ؟ أليس يكفى رثاؤه للوثنيين ومعاداته لدين التوحيد حتى نُلْقِى بكل ما يقال عن تعلم محمد من مثله تحت

أحذيتنا ؟ إنه هو نفسه ، وقد كان شاعرا وخطيبا وواعظا مشهوراً ، لم يقل هذا قط ، فكيف يجرؤ على قوله أُحْلاسُ آخر الزمان ؟

وعندنا كذلك زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، الذى يظن الشيخ خليل هو ورفيقه القمنى أنهما أمسكا بالذئب من ذيله حين وجدا أنه كان على دين إبراهيم ولم يكن يَطْعَم القرابين الوثنية أو يشرب الخمر. لكن إذا علمنا أن ابنه سعيد بن زيد وزوجته ابنة عمه (أخت عمر بن الخطاب) وعمر بن الخطاب نفسه قد دخلوا كلهم فى الإسلام لتَبَيَّن لكل ذى عقل سليم وضمير مستقيم أن ما يقال عن أخذ محمد من زيد هذا ليس شيئا آخر سوى هراءٍ تافه لا يستحق أن ينصت إليه عاقل ، إذ لو كان هذا صحيحا ما دخل أحد من هؤلاء الثلاثة فى الإسلام ، وبخاصة أن إسلامهم تمّ فى مكة والدعوةُ فى بدايتها ، والمسلمون فى غاية الضعف والقلة مُسْتَضْعَفون هم ورسولهم لكل ألوان الإيذاء والاضطهاد .

ومقطع الحق فى أمر الحنفاء هو أنهم كانوا ، كما تُجْمِع الروايات التى تتحدث عنهم وتذكر كلامهم ، على دين إبراهيم . ولم يقل محمد عليه السلام يوماً إنه أتى بدين جديد غير ما أتى به الأنبياء والرسل السابقون ، اللهم إلا فى بعض التشريعات، بالإضافة إلى اختلاف صور العبادات فى الإسلام غالبا عنها فى الأديان السابقة . وعلى هذا فإن ما هو مشترك بين الإسلام وهؤلاء الحنفاء إنما يرجع

إلى دين إبراهيم عليه السلام . ورغم كل هذه الادعاءات عن أخذ الرسول عليه السلام عن الحنفاء ها هوذا شيخنا ذو المنزع العلمى والذى يقرأ الأنثروبولوجيا والميثولوجيا والسوسيولوجيا والسيكولوجيا ويغرم أشد الغرام بسَوْق هذه الكلمات وأمثالها ليُجْلِب على القارئ ويوهمه بأنه عالم متبحّر ، مع أنه لا يُلِمّ (إن ألمّ) إلا بالقشور ، ها هو ذا يلحس كلَّ ما قاله مؤكدا أن « محمدا كان بصدد تخليق أمّة جديدة ، هى أمة « لا إله إلا الله » ، لها عقائدها وعباداتها وشعائرها وطقوسها وقيمها وأنساقها المستحدثة التى لا صلة لها بما قبلها »[(١)]. أرأيت أيها القارئ الكريم إلى هذا التناقض الذى يدل على أن أمر الشيخ لا يزيد على كونه حالاتٍ وأقنعة ؟ على أية حال لا بأس من أن نعيد هنا ما قلناه قبل قليل من أن الحنفاء أو أقاربهم على الأقل لم يكونوا ليسكتوا لو كان محمد قد تعلم منهم أو أحسّوا أنه نبىّ دعىّ .

على أن الدعىّ الكذاب حقا هو من يتلاعب فى النقول التى يستشهد بها تلاعبا يحوّلها إلى نقيض معناها بغية تشويه صورة النبى بالزعم بأن أستاذا كبيرا كجواد على قد توصل إلى أن القرآن هو الذى أخذ من أمية لا العكس مما أفضنا فيه القول فى موضع آخر من كتابنا هذا . وهو كذلك من يتلاعب فى النص التالى لذات الغاية أيضا . لكن

---

(١) ص ١٨١ .

لا بد من شرح القصة أوّلا : فالشيخ خليل (أو الأستاذ الشيخ كما يسميه د. القمنى) يوصى قراءه دائمًا بالرجوع إلى ما كتبه رفيقه القمنى فى الموضوع الذى يكون بصدد الحديث عنه . ومن ذلك أنه فى آخر الفصل الذى عقده عن الحنفاء وأخْذ النبى عنهم فى كتابه « الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية »[1]، وهو الفصل الذى ذكر فيه تحريمهم[2] القرابين التى كان الوثنيون يضحّون بها لأصنامهم ، قد أحال إلى الصفحة السادسة والستّين وما بعدها من « الدراسة القيمة التى كتبها د. سيد القمنى فى هذا الموضوع » ، كما قال بالحرف . وبالرجوع إلى « الدراسة القيمة التى كتبها د. سيد القمنى فى هذا الموضوع » نجد هذا النص : « تروى لنا الأخبار أن زيدا قد عاصر النبى محمد[3] صلى الله عليه وسلم وأنه التقاه . عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى زيدا بأسفل بلدح فدعاه إلى تناول طعام مما يُذْبَح للأرباب فقال زيد للنبى : إنى لست آكُلُ ما تذبحون على أنصابكم . ويعلل بن[4] هشام أكْلَ النبى قبل بعثة نبينا لأضحيّات أو قرابين الأصنام بقوله : إن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) ص ٢٦ .
(٢) زيد بن عمرو بن نُفَيْل بالذات .
(٣) محمد (هكذا) بدون ألف .
(٤) بن (هكذا) من غير همزة الوصل .

وسلم كان يأكل مما ذُبح على النُّصُب، فإنما فعل أمرا مباحا ، وإن كان لا يأكل فلا إشكال » (١) ، وهو يحيل فى ذلك إلى « سيرة ابن هشام » . وقد عدتُ إلى ابن هشام فلم أجده قال شيئا من ذلك البتة ، وإنما هو جزء من تعليق الأستاذ طه عبد الرءوف سعد محرر الكتاب فى الهامش . فهذه واحدة ، وهى تدل على أمانة علمية من الطراز اليسارى الإسلامى الأصيل . والثانية أن النصّ كالعادة قد خضع لعبثٍ بشِع . ولكى يكون القارئ على جلية مما تمّ نسوق إليه النص كاملا : « روى البخارى ... عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبى عليه السلام الوحىُ ، فقُدِّمت إلى النبى صلى الله عليه وسلم سُفْرة(٢) أو قدّمها إليه النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد : « إنى لست آكُلُ ما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ما ذُكر اسم الله عليه » . وفيه سؤال يقال : كيف وفق الله زيدا إلى ترك أكل ما ذُبح على النُّصُب وما لم يُذْكَر اسم الله عليه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان أولى بهذه الفضيلة فى الجاهلية لما ثبت

---

(١) د. سيد القمنى / الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية / ٦٧ . وهو يشير فى الهامش إلى « سيرة ابن هشام » / تحقيق عبد الرءوف سعد/ ١٩٧٤م / ١ / ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) السُّفْرة هى « الطعام » .

الله له ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أنه ليس فى الحديث ، حين لقيه ببلدح فقُدّمت إليه السفرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل منها ، وإنما فى الحديث أن زيداً قال حين قُدّمت السفرة : لا آكل مما لم يُذْكَر اسم الله عليه . الجواب الثانى أن زيدا إنما فعل ذلك برأى رآه لا بشرع متقدم ، وإنما تقدم شرع إبراهيم بتحريم الميتة لا بتحريم ما ذُبح لغير الله ، وإنما نزل تحريم ذلك فى الإسلام . وبعض الأصوليين يقولون : الأشياء قبل ورود الشرع على الإباحة . فإن قلنا بهذا وقلنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل مما ذُبح على النُّصُب فإنما فعل أمرا مباحا ، وإن كان لا يأكل منها فلا إشكال ... إلخ » . ومن هذا يتبين لنا مدى التلاعب والتدليس فى نقل النص : فقد حذف د. سيد القمنى « صاحب الدراسة القيمة إياها ومُلَقِّب خليل عبد الكريم بالأستاذ الشيخ » من النصّ أن القصة قد حدثت قبل البعثة ، وذلك كى يُدْخِل فى روع القراء الطيبين أنه صلى الله عليه وسلم كان يأكل من قرابين الأصنام بعد أن أصبح نبيا ، وهو ما ينسف نبوّته من القواعد . كما أنه كذَب حين قال إن النبى كان يأكل من تلك القرابين (مسندا ذلك إلى ابن هشام كما رأينا) مع أن القصة لا تذْكُر فى أى موضع منها أنه طَعِم منها ، بل كل ما فيها هو أنه قُدّمت إليه سفرة فقدّمها بدوره إلى زيد فقال زيد ما قال . وأغلب الظن أن النبى إما أنه لم يكن يعلم بأنها قربان وعرف زيد ذلك فامتنع ،

أو كان عليه السلام يعرف ولكنه عاف أن يأكل منها وعرضها على زيد على احتمال أنه ربما لا يجد فى الأكل منها حرجا . ثم إن النصّ، على النحو الذى أورده القمنى بعد العبث به ، يقول على لسان ابن هشام : « إن رسول الله كان يأكل مما ذُبح على النصب ، فإنما فعل أمرا مباحا » . يعنى بكل جلاء أن الإسلام يحلّل أكل القرابين التى تُذبح للأصنام . الحقُّ ، أيها القارئ الكريم ، أن هذه كارثة علمية وأخلاقية، وليس لها من معنى إلا أن الذين يحاربون الإسلام من « اليسار الإسلامى » لا يتورّعون عن استعمال أخسّ الأسلحة وأحطّها . ولقد ظنّ صديق لى حينما ذكرت له هذا اللون من العبث أن القوم سيراجعون أنفسهم بعد كشفى لفضائحهم ، فكان جوابى : أنت واهم يا صديقى ، فإنهم على العكس سيزدادون عنادا وعتنا ، وسوف يلجّون فى طغيانهم ، ولن يلتفتوا إلى شىء مما قلت ، بل سوف يتجاهلونه تماما بغية محاصرة فضيحتهم وإخماد الصوت الذى كشف سوأتهم .

وأخيرا علام كل هذه الضجة على بعض اللّبِنات القليلة العدد والمحدودة الأهمية فى صرح الإسلام الهائل البنيان المتباعد الأركان ؟ ألا يرى القارئ معنا أن المسألة كلها ليست إلا تنطعاً فارغا وحذلقة تافهة ساقطة تنم على قلب مدخول وضمير منخوب وعقل سقيم ومنطق سخيف ؟ وإلا فكيف يمكن أن يجهل إنسانٌ أن الطهارة والصلاة والصيام والزكاة وكثيرا من شعائر الحج ، فضلا عن تفصيلات عقيدة

التوحيد ، تختلف عما كان معروفا آنذاك فى العالم كله ؟ فى جزيرة العرب وحدها ؟ ولقد تناولتُ هذه القضية قبل سنوات وقمتُ بالمقارنة بين عقائد الإسلام وشرائعه ونظائرها عند العرب وأهل الكتاب والمجوس بشىء من التفصيل فى كتابى « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى » (١) ، ويمكن لمن يحب أن يرجع إليه .

وفى فصل « التغنيم والتنفيل » يؤكد الأستاذ الشيخ (أو الشيخ الأستاذ) أن الغنائم والأسلاب والأنفال « كانت أداة فعالة فى يده (أى فى يد الرسول عليه السلام) استعملها بمهارة فائقة فى رياضة الصحاب » ، وأن « النَّفْل أكثر فروع الغنائم بصدد إتاحة فرصة لتنفيذ تلك السياسة لما يتمتع به النفل من طبيعة مرنة رجراجة بعيدة عن التحديد والضبط ... ، وهى تدخل من باب التطوع لا الواجب ولا الفرض ، فهى عطية التطوع... ، ولا إلزام على من يعطيها لأنها هبة» . على أنه لا ينبغى ، فى رأى مولانا الشيخ ، أن « يُفْهَم من ذلك أن تحرُّك محمد انحصر فى دائرة النفل فحسب ، وذلك لسببين : الأول أن محمدا كان هو القائد والمشرِّع فى الوقت نفسه ، فما يفعله فى

---

(١) فى الفصل الأول من الباب الثانى (ص ٢١٥ ـ ٢٥٢) .

دائرة الأحكام يُعتَبر تشريعا ... الآخر أن كلمات الغنائم والأنفال والفيء ليس لها تعريف واضح محدد قاطع فى النصوص الأصلية»[١]. وفى هذه السطور نرى المؤلف يتهم الرسول اتهامًا مباشرا لا تكنية فيه بأنه اتخذ الغنائم وتوابعها أداة للسيطرة على المسلمين وتحريكهم على النحو الذى يحبّ وإلى الهدف الذى يبغى ، ألا وهو إقامة دولة قريش التى حقق بها حُلْم جدّه الأعلى قصىّ بن كلاب [٢]. كما يتهمه صلى الله عليه وسلم بأنه هو المشرِّع ، ومعنى ذلك بكل صراحة أنه لم يكن هناك وحىٌ ينزل بالتشريعات من عند الله ، بل كان محمد هو الذى يشرّعها . ويا ليته صلى الله عليه وسلم كان مشرِّعا ضابطا دقيقًا ، فقد رأينا الأستاذ الشيخ [٣] يصف تعريفات الأنفال والغنائم والفيء بأنها رجراجة غير واضحة أو محددة .

إن الأستاذ الشيخ حرّ فيما يعتقد بشأن حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم ، لكنه يكذب على التاريخ كذبا أبلق حين يزعم أن الغنائم

---

(١) ص ٧٦ ـ ٧٧ . ويقصد بالنصوص الأصلية القرآن الكريم والحديث الشريف .

(٢) ص ٩٩ ، ١٨٤ على سبيل المثال .

(٣) أكبر أن هذا هو اللقب الذى خلعه على مؤلفنا د. القمنى ، الذى أرشحه لنيل جائزة « الشرف والأمانة » فى نقل النصوص .

والأنفال كانت أداته التى توسّل بها صلى الله عليه وسلم إلى ترويض أتباعه ليكونوا عجينة فى يديه لينة يشكّلها كما يهوى ويطوّعها للغرض الذى كان يتوخاه . لقد ظلّ الرسول يدعو بدعوته فى مكة ثلاث عشرة سنة ، فأين كانت الغنائم والأنفال والأسلاب وقتذاك ؟ لقد كان هناك بدلاً من ذلك الاضطهادُ اللاإنسانيُّ المستمرُّ الذى وصل لحدّ القتل ، وكان هناك الحصار والإخراج من الوطن والاستيلاء على الأموال والممتلكات والدور ... إلخ ، فكيف يا ترى استطاع محمد تطويع أتباعه لتحمُّل كل هذا ؟ أكان يشكل عصابات سرقة تسطو على بيوت مكة ليلا ثم تحمل إليه ما يجود الله بها عليها فى كل طلعة ليوزعها على الأتباع كى يروّضهم ويكسب طاعتهم ؟ إن الأستاذ الشيخ لنسيج وحده فى التواء الفهم والعَمَى عن حقائق التاريخ الساطعة! وأعجب العجب أن يكتب عن نفسه بعد ذلك أنه (ومعه رفيقه القمنى الذى لقّبه بـ « الأستاذ الشيخ » طبعا) علميّ المنزع لا يتأثر بالماورائيات والفوق منطقيات والمسطورات ! وهو يكذب مرة أخرى حين يقول إن حياة الصحابة قبل الإسلام كانت قائمة على السلب فأدرك محمد أهمية الغنائم والأنفال لديهم [١] . ذلك أن الذين آمنوا به طوال الثلاث عشرة سنة المكية إنما كانوا كلهم تقريبا من قريش ،

---

(١) ص ٧٨ .

وقريش كانت قبيلة تجارية كما قال هو مرارا وتكرارا ، ولم يكن هناك من ثم غزو ولا سلب فى حياتها . كما أنه صلى الله عليه وسلم عندما هاجر قد هاجر إلى المدينة ، وكان أهلها يعيشون حياة زراعة واستقرار ، وإن ثارت معركة بين بعضهم وبعض لقد كان ذلك أمرا هامشيا ليس له تأثير يُذْكَر فى حياتهم أو فى مكاسبهم . أما المسلمون الذين لحقوا به هناك من القبائل المختلفة فقد كانوا أقلية محدودة . ثم إن المعارك التى كانت تنشب بين المسلمين فى المدينة وغيرهم إنما كان سببها عدوان أعداء الإسلام عليه ، ولم يقع أن بدأ المسلمون عدواناً من جانبهم . لقد أخرجهم القرشيون من بلادهم وبيوتهم ، وغدر اليهود قبيلةً بعد قبيلة بعهد الصحيفة التى نظَّم النبى بها علاقات أهل المدينة بعضهم ببعض ، كما نقضت قريش صلح الحديبية الذى وضعت هى بنفسها شروطه المجحفة وقبلها المسلمون على مضض ، فضلاً عن إغارة بعض القبائل على أراضى المدينة أو قيام بعضها الآخر بقتل مبعوثى رسول الله ... وهكذا ، وهو ما يدل على كذب الأستاذ الشيخ فى مزعمه أن الرسول قد اقتبس نظام توزيع الأسلاب من الجاهلية بناءً على خطة محكمة نفذها بمهارة واقتدار ودأبٍ عجيب هادفا بها إلى أن يكون سيد جزيرة العرب . وعلى كل حال فقد كان خصوم محمد يوزّعون الأموال والغنائم على أتباعهم ، الذين كانت أعدادهم أضعاف أتباع النبى كما هو معلوم ، فلماذا لم يُفلحوا وأفلح محمد ؟ إن السرّ يكمن فى أن أتباع محمد كانوا يؤمنون بالله

وبالجنة، أما خصومه وأتباعهم فقد كانوا من غبائهم وضيق عطَنهم وعمى أعينهم وقلوبهم لا يرون إلا الدنيا . ولولا الإيمان لما كانت لأموال العالم كله أية ثمرة فى حياة المسلمين . ومن هنا فحين سأل أعرابى النبى عليه السلام عمّن يقاتل للحصول على الغنيمة وعمّن يقاتل حبًا للشهرة والذِّكر وعمن يقاتل ليراه الناس بين المحاربين : من منهم فى سبيل الله ؟ كان جوابه صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (١) . وبسبب هذا الإيمان كان الصحابة ينفقون من أموالهم عن سعة فى الزكوات والصدقات وفى ميدان الجهاد إرضاءً لله سبحانه وإيثارًا لما عنده على ما فى أيديهم . وهذا هو الذى لا يفهمه مولانا الأستاذ الشيخ أو بالحرَى يتجاهله ويحاول صرف أنظار القراء الطيبين عنه !

إن هذا الذى يقوله مؤلفنا الأستاذ الشيخ لا يدل إلا على شىء واحد هو أن محمدا لم يكن إلا قرصانا تتبعه طوائف من اللصوص والمجرمين والقتلة (٢) . لقد استبدّت بالمؤلف صورة لينين وستالين

(١) صحيح البخارى بحاشية السندى / ٢ / ١٩٣ .

(٢) يتهم مولانا اليسارى الإسلامى الفاروق عمر مثلا بأنه كان شرها للمال، أما زهده ، رضى الله عنه ، فكلام فارغ من اختراع العصور المتأخرة أو هو من صفاته فى أخريات عمره حينما ولّت عنه الحياة . وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه « كان لسمّاحا فأخذ يوالى ابن الخطاب بالمنائح والعطايا حتى تضلّع منها ، أى حتى شبع » (ص ١٠٠ - ١٠١) .

وضباط وجنود الجيش الأحمر . لا يا سيّدنا الشيخ ، أفِقْ ! إن الاتحاد السوفييتى قد انهار بعد سبعين سنة (فقط لا غير) ، وها هو ذا الإسلام بعد أربعة عشر قرنا ورغم كل المحن والمؤامرات ووهن قلوب كثير من أتباعه لا يزال شامخا ، وما فتىء اسم محمد العذْبُ الجميلُ تردّده ملايين الشفاه كل لحظة فى أرجاء المسكونة . والعاقل ليس هو الذى يهتاج على الإسلام ورسوله لهذا السبب ، بل هو الذى يعرف أن الإسلام هو دين الحق ، وأن رسوله رجل عظيم نبيل لم تصطفه السماء عبثا ! أما الصبيانيات التى يأتيها الأستاذ الشيخ (أو الشيخ الأستاذ) من مثل محاولته الساذجة للتحقير من شأن غزوات الرسول وصحابته بتسمية الواحدة منها « عرّكة » (١) فما هى بنافعة له ولا شافعة ! وهو هنا أيضاً إنما يقلّد تقليدا مفضوحاً أحبّاءه المستشرقين والمبشرين ، فقد استخدم مثلا كاتب مادة « محمد » فى " The Encyclopaedia of Islam " ، وهو المستشرق بوهل (٢) ، فى وصف غزوة بدر ،

(١) ص ٨٠ (عركة حنين) ، و٩٤ ، ٢٠٧ (عركة بدر) ، و١٣٥ ، ١٩٣ ، ١٩٩ (عركة أُحُد) مثلا .

(٢) الذى كان من المؤكد هو أيضاً علمى النزعة جدا وموضوعيا جدا ، تماما كالأستاذ الشيخ وملقّبه د. القمنى . وقد كرّر بوهل تهكمه بغزوة الأحزاب أيضًا واصفا إياها بأنها مسرحية هزلية : " a comedy " . انظر : " Shorter Encyclopaedia of Islam " , Brill & Luzac, 1961, pp. 399 - 400 .

عبارة " insignificant fracas " ، ومعناها « عركة تافهة »! وقد رددتُ عليه في الدراسة الطويلة التي مخَضْتُ فيها هذه الموسوعة مَخْضاً وأظهرت ما فيها من سخف وحقد وهوى ولامنهجية [١] مشيراً إلى أن هذه الـ "insignificant fracas" كانت نقطة فاصلة في مسيرة التاريخ والحضارة الإنسانية ، فليست قيمة المعارك بعدد جنودها ولا بطبيعة أسلحتها وخططها بل بالروح التي وراءها والقِيَم التي غرستها والنتائج التي أدت إليها والآثار التي خلّفتها في ضمير البشر وتاريخهم ، وهل هناك (لا أقول : ما يفوق بل) ما يساوي غزوات الرسول في ذلك ؟

وفي كلام فضيلة الشيخ اليساري الإسلامي عن « التلقيب » يقول إن العرب كانوا يتهافتون على المديح ، وكان محمد يعرف عنهم ذلك ويدرك جيدا أهمية الألقاب وكيف أنها تضمن للمُلقِّب أن يكون الملقَّب طوع يديه كعجينة الصلصال طمعا في مزيد منها من جهة ، وخوفا من حجبها عنه من الجهة الأخرى ، ومن هنا فليس « مستغربا أن يلجأ (محمد) إلى التلقيب يسكبه على الصحاب بغزارة ، فهو من جانب لا يكلف مالا ... ، ومن جانب آخر فإن نتائجه

---

(١) هذه الدراسة عند الناشر منذ حجِّ ١٤١٥هـ ، وقد راجعتُ طباعتها مرتين ، ولم تصدر حتى الآن .

مضمونة وأكيدة الأثر »[1].

إن الكاتب ، كما هو واضح من كتاباته ، يرمى العرب بكل منقصة راميا بذلك إلى لمز الرسول وهمزه (أليس هو واحدا من هؤلاء العرب ؟) ، وكذلك إلى التهوين من شأن دعوته (بمعنى : هل استجاب لها إلا أولئك العرب المتخلفون ؟) . وهو هنا يقول إنهم كانوا يتهافتون على المديح والألقاب ، وكأن غيرهم من الأمم لا يحب ذلك ، وكأنه هو لم يُسْكِره لقبُ « الأستاذ الشيخ » الذى خلعه عليه د. القمنى والمديح الذى كاله له الصحفى الأمريكانى ستيف تيقوس (علاوة على أنه لم يَكْتَفِ بهذا أو بذاك بل انطلق يطْرِى نفسه مثنياً على إيمانه وخروجه للدعوة فى سبيل الله ، وإن كنت لا أدرى عن أية دعوة يتحدث إلا أن تكون دعوة « اليسار الإسلامى ») ، وكأن المصريين أيضاً لم يكونوا يتهافتون قبل ثورة يوليه على لقب « البك » و « الباشا »[2] ويدفعون فيهما الأموال الطائلة ، وهم بحمد الله ليسوا بدواً ولا متخلفين كالعرب فى نظر مولانا الشيخ بل أصحاب حضارة عريقة تمتدّ راجعة فى الزمن سبعة آلاف عام وتزيد .

ثم فليكن الأمر كما يقول مولانا الملقَّب بـ « الأستاذ الشيخ » ،

---

(١) شدو الربابة ـ السفر الأول / ١١٣ ـ ١١٥ .

(٢) بل ما زال المصريون متشبثين بهذين اللقبين حتى الآن تشبثا شديدا ، ولكن دون ضابط ولا رابط ! ودعنا من الألقاب الأخرى التى ظهرت فى الفترة الأخيرة . وهو نفسه قد أكّد غرامهم بلقب « الحاج » عند عجزهم عن إحراز لقبٍ غيره كما مرّ بنا .

فهل كان محمد يحتكر وظيفة « التلقيب » فلا يحقّ لخصومه أن يلقبوا أتباعهم كما يلقّب هو أتباعه ما دام كسب القلوب والطاعة المطلقة ميسورا على هذا النحو ؟ لقد كانت الألقاب موجودة قبل الرسول كما يقرّ بذلك صاحب لقب « الأستاذ الشيخ » ، فما الذى جعل الرسول هو الذى ينجح فى استخدامها ولا ينجح خصومه من زعماء قريش واليهود والمنافقين والقبائل الأخرى ؟ إنها بركة السماء وتسديدها لكل شىء يقوله الرسول أو يفعله وإحباطها لخصومه وباطلهم . ولكن بعض القوم لا يعقلون ولا يفقهون ! ثم ها هم أولاء الصحابة بعد وفاة الرسول قد ظلوا يجاهدون فى سبيل الله مضحّين بأرواحهم وراحة بالهم من أجل رضاه سبحانه والفوز بجنته رغم إغلاق « المصنع المحمدى لسكّ الألقاب » بعد انتقال صاحبه إلى الرفيق الأعلى ، فما قول مولانا اليسارى الإسلامى فى هذا ؟ إن الله عز وجل قد سدّ على الأستاذ الشيخ المسالك والجهات ، فأينما اتجه وجد السبل جميعا مغلقة فى وجهه !

ومما افتراه مولانا الأستاذ الشيخ على سيد البشر صلى الله عليه وسلم مما لا يُسْتَغْرَب منه ولا من أمثاله أهل « اليسار الإسلامى » واستحق بسببه الثناء المعطّر الذى طيّبه به الصحفى الأمريكانى إياه تفسيره النصيحةَ التى نصح بها صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت قيس بباعث الحقد والانتقام . ذلك أن هذه السيدة قد أتته تستطلع رأيه فى خاطبيْن تقدما لها هما أبو جهم ومعاوية ، فقال لها : أما أبو جهم فلا

يضع عصاه عن عاتقه ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له » [1]. وهنا يقبض فضيلة الشيخ اليسارى الإسلامى بأنيابه على ما قاله الرسول عليه السلام فى معاوية، مؤكدا أن دافعه فى ذلك هو الانتقاص من رتبة ابن أبى سفيان لأنه « طالما حاربه وكاد له واشترك فى المعارك وعاون والده أبا سفيان فى محاولات استئصال شأفته » [2]، ناسيا أن محمدا عليه السلام من طينة أخرى غير طينة اليساريين الإسلاميين ولينين وستالين والتقدميين[3] والحداثيين والتنويريين[4] أجمعين ، طينة طاهرة لا تعرف تلك الأحقاد التافهة التى تعشش وتبيض وتفرخ فى صدور الملاعين !

لقد غطّى سيدنا الشيخ عينيه بيديه حتى لا يرى أن كلام النبى فى معاوية ليس انتقاصًا منه بحال ، بل هو مجرد نصيحة خالصة مخلصة لامرأة طلبتها منه . قد يقال : كيف يكون معاوية صعلوكا لا مال له رغم غنى أبيه ؟ لكن لا بد أن معاوية كان كما وصفه الرسول، إذ لا يُعْقَل أن يكذب صلى الله عليه وسلم ، فهو لا يعرف طريق الكذب ، ولا الكذبُ يعرف طريقه . ثم إن معاوية لم يكن

(١) انظر هذا الحديث فى « صحيح مسلم » ١ / ٦٣٨ - ٦٣٩ ، وهو موجود أيضًا فى « مسند ابن حنبل » و « الموطإ » وعند النسائى والدارمى وأبى داود وابن حنبل .

(٢) ص ١١٥ - ١١٦ .

(٣) التقدميين إلى الخلف طبعا .

(٤) « التنويريين » : من « النَّوَر » لا من « النُّور » .

يسكن فى بلاد واق الواق فيقال إن السيدة المذكورة لم تكن تستطيع أن تكشف حقيقة أمره لو افترضنا أن الرسول عليه السلام قد ضللها ، أستغفر الله . وتمام الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قد نصحها وكرّر النصح لها بأن تتزوج أسامة بن زيد فلم تسترح نفسها فى بداءة الأمر لذلك ، لكن الله سرعان ما فتح قلبها له فتزوجته وكان زواجهما زواجا سعيدا مباركا كما روت هى نفسها . ثم إن أبا سفيان كان رجلا شحيحا مُسِّكا حتى لقد اشتكت زوجته هند (أم معاوية هذا) لرسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة : « إن أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يعطينى ما يكفينى وولدى إلا ما أخذْتُ منه وهو لا يعلم » ، فأجابها بأن من حقها أن تأخذ منه ما يكفيها هى وولدها بالمعروف[1] . وعلى ذلك فعندما يقول سيد البشر عن معاوية إنه صعلوك فهو يقرِّر حقيقة لا ينكرها أحد ، لأن « الصعلوك » فى لغة العرب آنذاك هو الفقير . ولم يكن فى هذا الاسم ما يُعابُ ، وإلا ما افتخر به عروة بن الورد وأصحابه من شعراء الجاهلية فى قصائدهم . لكن الشيخ الأمين يترك هذه الكلمة دون أن يشرحها بين قوسين وبنصٍّ على المعجم الذى نقل شرحها منه كعادته ، وذلك ليوقع فى رُوع القارئ أن الرسول عندما قال عن معاوية إنه صعلوك إنما

---

(١) صحيح البخارى بحاشية السندى / ٣ / ٢٨٩ . وربّنا يستر ولا يقول الشيخ اليسارى الإسلامى : انظروا أيها القراء ! لقد كان محمد يعلم نساء الصحابة السرقة !

كان يشتمه وينتقص منه . وبالله لو أراد النبى أن ينتقّص من معاوية فلماذا قرّبه إليه وجعله واحدا من كُتّابه ؟ بل لماذا لم يقتله هو وأباه وسائر كفَرة قريش عام الفتح ويريح ويستريح ؟ ثم كيف ينتقصه وهو أخو زوجته ؟ ومتى كان الفقر سببا فى أن يحتقر النبى أحدا من الناس؟ وهل كان محمد ، رغم كل الغنائم والأنفال التى كانت تنصبّ فى حجره فيوزعها على المجاهدين والمساكين من حوله ، رجلا غنيا حتى يحتقر الفقر والفقراء ؟ ولو كان الحقد الصغير (الذى هو ديدن اليساريين) يحرّك الرسول على ذلك النحو ، فلم أعطى كلا من معاوية وأخيه وأبيه فى غزوة حنين أربعين أوقية من الفضة ومائة من الإبل ، وهوَ ما ذكره الشيخ خليل نفسه ؟[١] فإذا كان يحقد على معاوية وينفّر منه أمّ حكيم بسبب فقره حتى لا تقبله خاطبا ، فلماذا يا ترى أعطاه هذا العطاء الذى يجعل من أفقر صعلوك رجلاً ميسوراً جدّ ميسور ؟ [٢] وهذا كله لو كان معاوية فعلا ، كما ادّعى سيدنا الشيخ، قد حارب الرسول مع أبيه وقومه . لكننا نقرأ أخباره فى مظانّها

(١) انظر فى ذلك صحيح البخارى / ٣ / ٧٠ ـ ٧١ ، وتاريخ الطبرى / ٢ / ٩٠ ، ومغازى الواقدى / تحقيق مارسدن چونز / مؤسسة الأعلمى للمطبوعات / بيروت / ١ / ١٣١ ، وسيرة ابن هشام / ٤ / ١٠٠ ـ ١٠٢ ، وشدو الربابة ـ السفر الأول / ٩٤ .

(٢) ويبدو أن أبا سفيان قد أخذ من معاوية وأخيه ما أعطاه الرسول لهما ، وإلا فلماذا ظل معاوية بعدها صعلوكا لا مال له ؟ وقد يعضّد هذا ما قاله الأستاذ إبراهيم الإبيارى عن معاوية من أن شخصيته كانت تعيش فى =

المختلفة فلا نعثر على إشارة إلى اشتراكه معهم فى حربه صلى الله عليه وسلم، بل نجد فقط ذكراً لاشتراكه فى غزوات الإسلام ، بعد دخوله فيه عام الفتح ، بدءاً من حنين فصاعدا .

إن الدوافع الشخصية عند الرسول هى وحدها فى نظر الشيخ خليل السرُّ وراء الألقاب التى كان يوزعها ذات اليمين وذات اليسار : فقد كافأ مثلا أبا بكر بلقب الصدّيق « لمواساته له بالمال وشدة التصاقه به وبالغ إخلاصه له (أى مواساته لمحمد والتصاقه به وإخلاصه له لا للإسلام) ... وتقديمه ابنته عائشة زوجة له »[1] . أما عثمان فقد اجتهد فى أن يردّ جميل محمد (المتمثل فى الألقاب التى خلعها عليه) بالبذل السخىّ والعطاء المضاعف[2] . وقد سمّى الشيخ خليل تلك الألقاب « صكوك البراءة من العذاب »[3] مشبّها الرسول بذلك بباباوات العصور الوسطى ، هؤلاء الباباوات الفَجَرة الذين كانَ بعضهم يعاشر أخته ، وبعضهم يصطحب خليلته معه فى طوافه برعاياه فى

= ظل شخصية أبيه طوال حياة ذلك الوالد ، ثم برزت بروزا جليا بعد مماته (انظر كتابه « معاوية » / سلسلة « أعلام العرب » (العدد ٦) / ١٢٠ - ١٢٤) .

(١) شدو الربابة - السفر الأول / ١١٨ .

(٢) المرجع السابق / ١٤٢ .

(٣) السابق ١٢١ ، ١٢٢ (مرتين) ، ١٤٣ .

البلاد . فانظر أيها القارئ الكريم إلى هذا الأدب اليسارى (الملقَّب بـ « الإسلامى » !) . وبالمثل يقول الأستاذ الشيخ عن تسمية الرسول لعبد الرحمن بن عوف بأنه « أمين فى أهل السماء وأمين فى أهل الأرض » ، إنها قد أثرت على ابن عوف « حتى (إنه) بعد وفاة محمد طفق يثبت جدارته على التشرف بهذا اللقب بأن أخذ يُجْزِل المنائح على نساء محمد ، وعندما كن يعتزمن الحج كان هو على رأس الحراسة التى تحيط بهن من كل جانب »[1] . وهو كلام يدل على عهارة فكرية متأصلة (أو بلغة اليساريين « متجذِّرة ») ، إذ لماذا يظل ابن عوف على إكرامه للرسول فى شخص نسائه بعد وفاته ما دامت هوجة الألقاب قد انتهت ؟ بل لماذا لم يحجز محمد لنفسه ولزوجاته من بعده الأموال الضخام حتى لا يحتجن يومًا لمنائح ابن عوف وغيره ؟ أليس هذا هو المنطق السليم لو كان محمد بالصورة التى يرسمها كاتبنا الملقب بـ « الأستاذ الشيخ » ؟

وعلى هذه الشاكلة يمضى الأستاذ الشيخ فى سخفه السمج محاولا الاستهانة بعقول القراء ، عاملاً بكل قوى الحقد الضارب بجذوره الحديدية فى أعماق قلبه على الإساءة لسيد البشرية وصحابته

---

(١) ص ١٣٠ ، ١٣٦ .

الكرام (١)، فهو على سبيل المثال يعزو استجابة حنظلة ، رضى الله عنه ، لداعى الجهاد ليلة عرسه فى أُحُد (قبل أن يتمكن من الاغتسال) إلى خوفه من أن يظن محمد به الظنون (٢). وحنظلة هذا رضى الله عنه هو أحد شبان الأنصار ، وأبوه هو أبو عامر الراهب ، الذى كان يحقد على الرسول عليه السلام حقْد اليساريين الإسلاميين عليه ، وكان يتصل بالمنافقين فى المدينة سرًا لطبخ المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين ، وذهب إلى قيصر يستعين به على ذلك . بل إنه انضم إلى المشركين فى غزوة أحد وأخذ ينادى المسلمين ويحرضهم أن ينفضوا عن محمد وينضموا إليه فردّوه أقبح رد . ومن سفاهته وسفالته (التى هى من طينة سفاهة اليساريين الإسلاميين وحماقتهم) أنه عند مقدم النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قال وسمُّ البغضاء يسرى فى دمه وينتشر فى كل أنحاء جسمه : « الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا ! » ، فحقّت عليه لعنةُ نفسه ، إذ خرج إلى الطائف يحث أهلها على حرب الرسول لكنهم خيّبوا ظنه وأسلموا ، فلحق بالشام

---

(١) انظر أيضا كلامه عن « العشرة المبشرين بالجنة » واستغرابه المضحك لإدخاله صلى الله عليه وسلم فلانا فيهم وحرمانه فلانا . والمعنى وراء ذلك هو أن الرسول ، فى نظره ، كان يدخل الناس الجنة ويخرجهم منها بمزاجه الشخصى . وهو يتلاعب فى هذه التسمية مغيرًا إياها على سبيل الاستخفاف إلى « مجلس العشرة المبشرين بالجنة » (ص ١٣٢ - ١٣٤) .

(٢) ص ١٩٣ .

وهلك هناك . ومن هذا كله يمكننا أن ندرك عظمة سلوك ابنه ونبل موقفه ، فقد آثر الإسلام على أبيه . وقد رزقه الله بالشهادة فى غزوة أحد وهو جنُب ، إذ كان أعْجَلَه نداءُ الحرب عن الاغتسال ، فيأتى مفاليك آخر الزمن ويقولون إنه أسرع إلى الغزو خشية أن يظن محمد به الظنون. طيب يا فالح ، وما الذى أكرهه أصلا على الانفضاض عن أبيه والالتحاق بمحمد ؟ صدق ربنا القائل فى كتابه الكريم : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون»[1] ، وصدق أيضا من قالوا فى الأمثال : « إنما العَمَى عمى القلب » !

وعلى نفس المنوال يتهم مولانا الشيخُ اليسارىُّ الإسلامىُّ الصحابىَّ أبا حذيفة بأنه عندما نادى أباه عتبة للمبارزة فى غزوة بدر كان يعرف تمامًا أن ذلك لن يتم ، لكنه إنما أراد الإعلان عن درجة إخلاصه لمحمد [2]. ولا يكتفى بهذا بل يتهمه بالكذب والقَسَم الباطل ، إذ يؤكد أنه عندما رأى أباه ، بعد قتله فى تلك المعركة ، يُجَرّ ويُلْقَى به فى القَليب شعر من أجل ذلك بحزن شديد ، لكنه ، عند سؤال الرسول إياه عن حزنه ، أنكر أن يكون قد حزن لقتل والده وطرّحه فى البئر ، ثم أقسم على ما قال [2].

وبالمثل يدّعى شيخنا اليسارى الإسلامى على سعد بن أبى

(١) البقرة / ١٠ .

(٢) ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

وقاص أنه عندما تعرّض لأخيه عتبة ثلاث مرات فى وقعة أُحُد ليقاتله لم يكن يريد فى الحقيقة شيئا من ذلك ، بل كان كل همه أن يُرِىَ الرسول والمسلمين أنه برىء من أخيه ومن رميه النبى بالحجارة وكسره رباعيته وشجّه جبينه ، وأنه لما وصلت الرسالة إلى محمد بعد المحاولة الثالثة استراحت نفسه ، إذ قدّم بذلك دليل براءته ، وكأنه يقول: «انظروا! لقد جهدت جهدى لقتل أخى ، ولكن محمدا منعنى » (١).

إن الأستاذ الشيخ يريد أن يوقع فى وهم القارئ أن محمدا والصحابة ليسوا إلا صورة من بعض حكام عصرنا ورعاياهم ، إذ تقوم طائفة من الأشخاص فى كل اجتماع صائحين : « بالروح ، بالدم ، نفديك يا فلان » ، وهو صياح كاذب بطبيعة الحال لسبب بسيط جدا هو أن هؤلاء الهتَفَة ليس عندهم دم ! لكن فات الأستاذ الشيخ أن الانتصارات المباركة الميمونة التى شرّق بها الإسلام وغرّب واكتسح بها العالم المعروف آنذاك لا يمكن أن تتم على أيدى الرقعاء ، لأن المنافقين هم فى الواقع سوس ينخر فى عظام الأمة ، فكيف يمكن أن يتم بهم نصر؟ وعلى أية حال فهذه الاتهامات التى يريد أن يوحى بها أنه نقّب قلوب الصحابة وتغلغل إلى أطوائها وعرف أنهم غير مخلصين فيما كانوا يقولونه أو يفعلونه إنما تدمّر فى الواقع ما قاله من قبل عن طاعتهم

(١) ص ٢٠٩ _ ٢١٠ .

المطلقة وخضوعهم التام للرسول عليه السلام ، إذ أين الطاعة والخضوع في مثل هذا النفاق التافه الرخيص ؟ لكن على القارئ ألا يعجب من تناقض مولانا الشيخ الأستاذ ، فقد سبق أن قلت إنها أقنعة وحالات . أما رأينا نحن في هذا الموضوع فهو أن الصحابة الكرام كانوا يحبون دينهم ويراعون ربهم ويجلّون نبيهم وينصرونه ويؤازرونه ويلتفون دائمًا حوله ويَفْدُونه بالنفس والنفيس ابتغاء مرضاة الله . بَيْد أنهم لم يكونوا عجينة صلصال كما زعم مولانا المحترم، بل كانت لهم شخصياتهم المستقلة وعقولهم الراجحة ، وكانوا كثيرا ما يناقشونه صلى الله عليه وسلم الرأى ويستفسرون منه عن الحكمة وراء ما يأمرهم به أو ينهاهم عنه ، وكانوا يبادرونه بالمشورة ، وقد يخالفونه في الحكم على الأشياء ويصارحونه بما يَرَوْن . وكان هو من جانبه ينزل على رأيهم في كثير من الأحيان ما دام رأيا سليما . وقبل ذلك كله فإن إيمان الكثيرين منهم لم يتم في طرفة عين ولا بين عشية وضحاها ، بل أخذ وقتا ردّدوا فيه النظر وفكّروا في أمره صلى الله عليه وسلم ، وربما عارضوه ووقفوا من دعوته موقف العداء وآذَوْه هو ومن سارع إلى الإيمان به . وهذا كله مشهور لا يجهله أحد ، فكيف يحاول كاتبنا الملقب بـ « الأستاذ الشيخ » (ربنا يحرسه من العين !) أن يصوّرهم بصورة البُلْه السُّذّج الذين سحرهم محمد من أول نظرة بشخصيته الكارزمية فخرّوا صرعى تحت أقدامه لا يملكون من أمرهم تلقاءه شيئا ؟ لقد

أخذ عالـمنا العلامة (ربنا يطوّل عمره وينصره على من يعاديه ، فى المنام طبعا) يجعجع بما جاء فى بعض المعاجم من أن « القائد الكارزمى (والكلام عن محمد . لاحظ) يمتلك استعدادات ومهارات ومواهب يعتقد أتباعه أن مصدرها إلهى »[1] . إذن فليست مواهب محمد هى مواهب النبوة أكرمه الله بها ، بل هى مجرد اعتقاد من أتباعه أنها كذلك . ما كل هذه العبقرية يا مولانا ؟

---

(١) ص ٢٢٥ .

جهازُ المؤلفِ الإجلابيُّ لإرهاب القارئ

رأينا فيما مضى كيف يقول المؤلف كلامًا جميلا فى ظاهره بنيّة تخدير القارئ وإقناعه بحسن مقصده وحرصه على الإسلام ثم يسرع بعد ذلك إلى نقضه كاشفا بذلك عن دخيلة نفسه ، كما رأينا تناقضاته الكثيرة وتدليساته فى النقول التى يستشهد بها لتعضيد أفكاره العجيبة ومسارعته إلى تفسير كل شىء فى حياة الرسول والصحابة بأسوإ البواعث حتى لقد تحولت النبوة عنده إلى طموح دنيوى ودهاء سياسى لا يبالى النبى أن يستخدم فيه أحط الوسائل ليضحك بها على العرب البُلْه السُّذّج ، وحتى انقلب صحابة رسول الله ، وهم مَنْ هم عفّةً وطهرا واستقامة وإخلاصا وحبّا لله ورسوله وحرصا على التضحية بأنفسهم وأموالهم فى سبيل نصرة الدين ، إلى كذابين وزناةٍ فسقةٍ وطماعين طلابِ دنيا وعبيدِ شهوة ! والعجب أن الكاتب يريد منا أن نلقى بعقولنا فى سلة المهملات ونؤمن بأنه وأمثاله هم الذين لهم حق الحديث باسم الإسلام لأنهم وحدهم هم الذين يفهمونه وهم الذين يعملون على تحقيق مقاصده وتنفيذ قِيَمه مع أنه لم يترك فى صرح الإسلام طوبة واحدة دون أن ينقضها [1] .

---

(١) على الورق بطبيعة الحال ، وإلا فلا هو ولا يساريّو العالم كله (إسلاميين وغير إسلاميين) بمستطيعين أن يحركوا فيه شعرة !

والمؤلف فى سبيل هذا يستخدم جهازا يُجْلب به على القارئ كى يشغله بصوته العالى عن التركيز فيما يقوله له والتفكير فى مدى صوابه أو خطئه : فهو حريص على ردّ معظم ما يقوله إلى مصادر محترمة وعلى الطنطنة بعلوّ مكانة هذه المصادر عند المتشددين من المسلمين . وهدفه من هذا فى المقام الأول هو إقناع القارئ أنه لا يقول إلا الحق ولا شيء غير الحق ، لكنه فى نفس الوقت لا يبالى أن يعبث بالنصّ أو يخلعه من سياقه أو يعطيه معنى غير المعنى الذى تدل عليه ألفاظه وعباراته . وهو لا يتورع فى سبيل بلوغ هذا الهدف أيضاً عن التدليس والاستعانة بالمدلِّسين . وقد نبهنا على عدد من هذه التدليسات فى حينها .

ومن عُدد هذا الجهاز استعراض مولانا الشيخ لثروته اللغوية ، إذ يحرص كثيراً على إيراد كلماتٍ قد يُحتاج فى فهمها إلى الرجوع إلى المعاجم أو لها فى تلك المعاجم معنى غير المعنى الذى لها فى حياتنا العصرية ، ثم يفتح قوساً يشرح فيه معنى هذه الكلمات ثم يغلقه بعد أن ينصّ على أنه نقل ذلك الشرح من القاموس الفلانى أو المعجم الترتانى . كل ذلك فى حذلقة بغيضة أثقل دماً من دم البقّ . وما أكثر ما ضحكت وأنا أقرأ كتابات سيدنا الشيخ ، وذلك لسببين : الأول أن ذلك الحرص على التفاصح ، على العكس مما يهدف إليه ، إنما يدل على أنه محدث نعمة فى ميدان الكتابة . والثانى أن أخطاءه اللغوية

كثيرة برغم خضوعها لأقلام المصححين قبل الدفع بها إلى المطبعة[١].

ومن هذه الأخطاء على سبيل الاستشهاد القائمةُ التالية التى سأعقب كل خطإ فيها بذكر تصويبه بين قوسين:

وإن محاولة تعميم هذه الآيات ... هو لَوْىٌ (لَيٌّ) لأعناق تلك الآيات [٢].

مِثْلُهم المستشرقين (المستشرقون) [٣].

نفس نظرية المودودى ... و التى (التى) لم يقل بها أحد من أئمة الهدى [٤].

إن هناك بلاد (بلادا) إسلامية ... [٥].

بأهواءهم (بأهوائهم) [٦].

المغنّيون (المغنّون) [٧].

---

(١) انظر الصفحة الرابعة من كتابه « الأسس الفكرية لليسار الإسلامى » .

(٢) لتطبيق الشريعة لا للحكم / ٢٣ ، وقد كررها فى ص ١٨٧ من كتاب « الأسس الفكرية لليسار الإسلامى » .

(٣) لتطبيق الشريعة / ٢٦ .

(٤) المرجع السابق / ٣١ .

(٥) السابق ٥٧ .

(٦) ص ١٠١ .

(٧) ص ١١٣ .

تذيع أحاديثا (أحاديث) [١].

وسواء أكان لفظ « بعل » منقول (منقولا) ... [٢].

وقد رأينا كلا من عمرو بن كلثوم وحاتما (وحاتم) الطائى ... [٣].

أبو بكر الصديق ... تزوج أربعا منهم (منهن) [٤].

مُلْفتة (لافتة) للنظر [٥].

كَوْن الإسلام دين (دينا) فحسب [٦].

لا شك أن لهم موقع متميز (موقعا متميزا) فى مجتمعهم [٧].

يمثلون خلاصةَ مَنْ ورائهم (وراءهم) [٨].

استَخْلَف عُمَراً (عُمَرَ) [٩].

ولا يقدح فى كونه كذلك أن عُمَراً (عُمَرَ) هو الذى اقترح أسماء أعضائه [١٠].

---

(١) ص ١١٧ .
(٢) الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية / ٣٧ .
(٣) نفس المرجع والصفحة . (٤) المرجع السابق / ٣٨ .
(٥) السابق / ٥٦ . (٦) ص ١٠٦ .
(٧) ص ١٠٧ . (٨) نفس الصفحة .
(٩) نفس الصفحة .
(١٠) ص ١١٢ ، وقد تكررت هذه الغلطة فى ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٩ ، وكذلك ص ١٠ من كتاب « قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية » .

المعارك التى دارت بين القبائل العربية بعضها البعض (بعضها وبعض / بين بعض القبائل العربية وبعض) (١).

وكُـلاً (وكلٌ) من الإيلاف وهاتين الرحلتين ورد ذكره فى القرآن الكريم (٢).

بين بعضهم بعضا (بين بعضهم وبعض / فيما بينهم) (٣).

لعل أولئك الكتّاب والباحثون ومنشئو (والباحثين ومنشئى) الجماعات والهيئات لا يدركون أنهم يتحركون من أعماق اللاشعور(٤).

خاصة وأن اثنين من سادتهم كانوا (كانا) من المتحنفين (٥).

وهذا عمل سياسى أكثر منه تحكيم قضائى (تحكيما قضائيا)(٦).

مثْل زيد بن حارثة وعمار بن ياسر وأبوه (وأبيه) ياسر وأخوه (وأخيه) عبد الله (٧).

أصدر فضيلة الشيخ فتوى تحرّم التعامل معها أو تشجيعها أو تمكينها أو اقتنائها (اقتناءها) (٨).

(١) قريش من القبلية إلى الدولة المركزية / ٢٢ .
(٢) المرجع السابق / ٣٢ . (٣) السابق / ٥٥ .
(٤) ص ٧٤ . (٥) ص ٧٦ .
(٦) ص ٧٢ .
(٧) الأسس الفكرية لليسار الإسلامى / ٣٤ .
(٨) المرجع السابق / ٦٤ .

صمّوا (أصمّوا) آذانهم (١).

الواعظ السُمهّاب (السَمهيب / السَمهُوب) (٢).

... أنه وعدد (وعدداً) لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ... كانوا من القراء (٣).

أربعة عشر (أربع عشرة) سُرّيَة (٤).

أما في تجربة المدينة فقد أصبحوا العشرة المبشرون (المبشرين) بالجنة (٥).

وإرجاعها إلى ظروف منشأها (منشئها) (٦)

لم تكن فيه مجالات ثقافية أو فنية تُثْرى (تُغْنى) الوجدان (٧).

وبمرور الوقت غدا لمن يحمل هذا الوصف أو اللقب نوعا (نوع) من القداسة (٨).

(١) السابق / ٧٦ . (٢) السابق / ١١٠ .

(٣) ص ١٢٤ . والذى جعلنى أشير إلى هذه الغلطة إثارته هو نفسه لها فى آخر صفحة من كتابه « لتطبيق الشريعة لا للحكم » فى خبر تاريخى أورده خاصٌ بقراءة من القراءات القرآنية . وفى كتب النحو مع ذلك شواهد شعرية تدل على أن العرب كانوا يستعملون هذا التركيب قديماً ، على الأقل فى بعض صوره ، لكن الأمر استقر على نصب المعطوف على اسم « إن » فى هذا الموضع .

(٤) ص ١٢٥ . (٥) ص ١٤٨ .

(٦) مجتمع يثرب / ١٣ . (٧) المرجع السابق / ١٠١ .

(٨) شدو الربابة – السفر الأول / ٧ .

وكان ذلك عرف مستقر (عرفا مستقرًا) في الجزيرة العربية[1].

أما هذه الأحاديث ... فهى ترصد عُمرًا (عُمُرَ) [2].

عبّر عنها القرآن بأنها (بكونها) « قولا ثقيلا » [3].

يسمع أن أتباعا له ... قد آووا (أوَوْا) إليه [4].

وهكذا غير همزات الوصل التي يكتب تحتها الهمزة ، وهي أكثر من الهم على القلب !

---

(١) المرجع السابق / ٨٦ . (٢) السابق / ١٠١ .

(٣) ص ١١٤ .

(٤) ص ١٨١ . وهذا خطأ يتكرر عند المعاصرين . ولقد لاحظته في بعض كتب د. طه حسين وسجلت ذلك في دراسة لي في أوائل الثمانينات ، فانبرى بعض من ينتمون إلى العلماء من أساتذة الجامعة الكبار (!) وكتبوا تقريرا رسميا يخطئونني فيه ويحتجون عليّ بأن ذلك قد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان ابن نوح : « سآوي إلى جبل يعصمني من الماء » (هود / ٤٣) وقوله عز شأنه على لسان لوط : « لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركن شديد » (هود / ٨٠) . وهم يقصدون أن في الفعل القرآني مَدّة أيضا، مع أنه في القرآن مضارع (على وزن « يفعل ») ، بينما هو في الاستخدام الموجود في كتابات المعاصرين فعل ماضٍ على وزن « أفعل » (أي أن مضارعه « يفعل » بضم الياء لا « يَفعل » بفتحها) . والصحيح هو ما قلته من أن الصواب : « أَوَى فلان إلى كذا » (على وزن « فَعَل » الذي مضارعه « يَفْعِل ») وليس « آوى » (على وزن « أَفْعَلَ » الذي مضارعه « يُفْعِل ») . وحسبنا الله ونعم الوكيل !

على أن هناك شيئا يحيك فى صدرى بخصوص هذه المقالات والكتب التى طلع بها علينا فجأة سيدنا الشيخ بعد أن كبر ، وبخاصة أنها تقوم على اصطياد الأخبار والروايات التى لا يكاد يعرفها إلا الذين يطلبونها طلبا ويفتشون عنها وينقّبون فى بطون الكتب القديمة عمدا مع سبق الإصرار بهدف الكيد بها للإسلام والتشنيع عليه ، وهم طائفة المستشرقين . فكيف يسهل على النفس أن تصدّق أن ذلك من عمل سيدنا الشيخ ؟ إن هذا شىء أحسه إحساسا ، وأدع للدارسين من بعدى أن يوالوا البحث فيه .

ويقوم الجهاز الإجلابى أيضا عند الشيخ اليسارى الإسلامى على التشدق بأسماء العلوم والمصطلحات الأجنبية كالفيلولوچى والأنثروبولوچى واللينجوستك والبطرياركى والبنزيركى ... وهلم جرّا . وغايته من هذا تخويف القارئ بإيهامه أنه أمام عالم كبير متبحر فى العلوم المختلفة ، وبهذا تشَلّ حاسته النقدية ويندفع إلى تصديق ما يلقيه إليه رغم غثاثة وضحالته وضآلة محتواه .

وسيدنا الشيخ يحب حبًا جمًا أن يشقشق بالعلمية والموضوعية والعقلانية والتنوير وكراهية الغيبيات والماورائيات والفوق منطقيات متصورا أنه يكفى أى شخص أن يدّعى شيئا حتى يكونه ، مع أن هناك فرقًا بين الادعاء والواقع ، وغير دارٍ أيضًا أن العلمية شىء وإنكار الغيبيات شىء آخر ، وإلا فأين العلمية فى أن نتهجم على وجود الله

والملائكة والجنة والنار ؟ وما الصلة بين التنوير وهذا التهجم ؟ لقد انقضى الزمن الذى كان لهذه الأسطوانة الماركسية فيه سحرها عند بعض الشباب ، بيد أن سيدنا الشيخ لا يدرك ، فيما يبدو ، أن ذلك قد ولى وأن الماركسية والاتحاد السوفييتى قد أصبحا فى ذمة التاريخ ، لا رحمهما الله !

كذلك فهو يحاول الاستظراف كثيرا ، لكن طبيعة روحه لا تسعفه ، إذ بينها وبين الظَّرْف آماد شاسعة ، فما بالك لو تكلف الظرف تكلفا ؟ أعوذ بالله ! لقد رأيته مرة يصف بعض من كشف حقيقة أمره بأنه « فلْحاس » ، مع أنه يعلم جيدا من هو الذى يستأهل لقب « الفلحاس الأكبر » بجدارة واستحقاق تامّين !

الفهرس



د. إبراهيم عوض

- ليسانس آداب جامعة القاهرة ١٩٧٠م
- دكتوراه من جامعة أوكسفورد ١٩٨٢م
- عضو هيئة التدريس بآداب عين شمس
- له عدد من المؤلفات النقدية والإسلامية منها :

- معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين
- المتنبي - دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- لغة المتنبي - دراسة تحليلية
- المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
- المستشرقون والقرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
- الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد
- عنترة بن شداد - قضايا إنسانية وفنية
- النابغة الجعدي وشعره
- من ذخائر المكتبة العربية
- السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- جمال الدين الأفغاني - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
- فصول من النقد القصصي
- سورة طه - دراسة لغوية أسلوبية مقارنة
- أصول الشعر العربي (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- القراءات الكاثية البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين - دراسة نقدية لرواية «العار»
- مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين و المبشرين حول الوحي المحمدي
- نقد القصة في مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م
- محمد حسين هيكل أديبا و ناقدا ومفكرا إسلاميا
- سورة النورين التي يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم - دراسة تحليلية أسلوبية
- ثورة الإسلام - أستاذ جامعي يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة و تفنيد)
- مع الجاحظ في رسالة « الرد على النصارى »
- محمد لطفي جمعة - قراءة في فكره الإسلامي
- إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية - خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود علي مراد في الدفاع عن سيرة ابن إسحاق
- سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة
- المرايا المشوهة - دراسة حول الشعر العربي في ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
- القصاص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه
- في الشعر الجاهلي - تحليل وتذوق
- في الشعر الإسلامي والأموي - تحليل وتذوق
- في الشعر العربي الحديث - تحليل وتذوق
- موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
- أدبـــاء ســـعوديـون
- دراســـات في المسرح
- دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
- د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية - أضاليل وأباطيل